

بسم الله الرحمن الرحيم



جامعة اليرموك

كلية الشريعة.

قسم الدراسات الإسلامية

أطروحة دكتوراة
بعنوان

الإدراك الحسّي في القرآن الكريم
دراسة تربوية

Perception in the Holy Quran
Education Study

إعداد

كلثم عمر عبّيد الماجد

إشراف

الدكتور ابراهيم أبو عرقوب/ قسم الدراسات الإسلامية/ كلية
الشريعة

الأستاذ الدكتور محمد الشافعي / قسم أصول الدين/ كلية الشريعة.

حقل التخصص/ فلسفة التربية الإسلامية

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

الإدراك الحسي في القرآن الكريم

دراسة تربويّة

إعداد

كلثم عمر عبيد الماجد

بكالوريوس دراسات إسلامية جامعة اليرموك ١٩٨٨م.

ماجستير تربوية إسلامية، جامعة اليرموك ٢٠٠٢م.

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الدكتوراة

تخصص فلسفة التربية الإسلامية في جامعة اليرموك، إربد، الأردن.

وافق عليها

د. ابراهيم أبو عرقوب مشرفاً
أ. د. محمد ابراهيم الشافعي مشرفاً مشاركاً
أ. د. محمد علي الزغول عضواً
د. ماجد عرسان الكيلاني عضواً
د. عارف توفيق عطاري عضواً
د. وليد أحمد علي مساعدة عضواً

تاريخ تقديم الأطروحة: ٢٠٠٩/٨/٩

الإهداء

إلى سيدي وسيد الخلق أجمعين، الذي هدانا وبارك لنا أمّتنا؛ فكانت خير أمة
أخرجت للناس. صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين.

إلى روح والدتي -غفر الله تعالى لها، وأسكنها فسيح جناته - التي تحملت
فراقها طيلة سنوات الدراسة. ثم فارقته إلى الله تعالى. لتترك أجمل ذكرى غرستها
في نفسي، ألا وهي الصبر وتخطي المصاعب.

إلى والدي -أطال الله بقاءه وحفظه وبارك في صحته - الذي لا زال يحثني
ويؤازر مسيرتي العلمية، ويساندني بكل ما يملك من عون ونصح ودعاء وفكر يسمو
فيه بديني وعقلي وفكري وخالقي وهمّتي.

إلى إخوتي وأخواتي، وكلّ أسرتي.

إلى صُحْبتي وأحبّابي وكل من يطمح إلى العلياء.

أهدي هذا العمل

كلّكم

شكر وتقدير

أهدي جزيل شكري وامتناني لأستاذي الفاضلين: الدكتور ابراهيم أبو عرقوب، والأستاذ الدكتور محمد الشافعي، حفظهما الله تعالى، وبارك فيهما. اللذين شرفتم بإشرافهما على رسالتي، وسعدت بتوجيهاتهما وحرصهما على السير بها قدماً إلى ما ينهض بمستواها، ويرفع محتواها. كما أهدى شكري وعرفاني للأساتذة الفضلاء الذين تلمّضوا بقراءة الرسالة ومناقشتها. وهم الأستاذ الدكتور محمد علي الزغول، والأستاذ الدكتور ماجد عرسان الكيلاني، والدكتور عارف عطاري، والدكتور وليد مساعدة. حفظهم الله تعالى.

والشكر الجزيل موصولاً لعميد كلية الشريعة الأستاذ الدكتور محمد العمري، الذي ما زال أخاً حريصاً على أخته منذ أن عرفته في مرحلة الدراسة السابقة. والشكر موصولاً أيضاً لجميع أساتذة كلية الشريعة، وموظفيها. ولأساتذة الكليات الأخرى، وأخص بالذكر الأستاذ الدكتور شفيق علاونة، أستاذ علم النفس بكلية التربية، لأثره الطيب في هذه الرسالة. وأخص بشكري وامتناني أيضاً جميع القائمين على المكتبة الحسينية: إدارة وأعضاء. لما بذلوه لي من عون وتسهيل لأداء مهمتي الدراسية. ولما أبدوه من حسن الخلق وجميل الصبر.

ولا يفوتني أن أشكر أختي وزميلتي مارية عبابنة التي جاهدت في موازرتي وعوني أمام كل المصاعب والظروف القاسية، التي لا يزال طالب العلم يلحقها حتى يبلغ أولى الدرجات العلمية مما ينشده في طريق العلم.

المحتوى

رقم الصفحة	العنوان
ج	الإهداء
د	شكر وتقدير
هـ	المحتوى
١	الملخص
٢	المقدمة
٥	مشكلة الدراسة وأسئلتها
٧	أهمية الدراسة
٨	أهداف الدراسة
٨	الدراسات السابقة
١١	منهج الدراسة
١١	حدود الدراسة
١٢	الفصل الأول: الإدراك وصلة الحواس به
١٣	المبحث الأول: الإدراك والمعرفة والحواس
١٤	المطلب الأول: مفاهيم الإدراك
١٤	أولاً: الإدراك في اللغة
١٥	ثانياً: الإدراك في اصطلاح المفسرين
١٩	ثالثاً: الإدراك في علم النفس المعرفي

٢٥	المطلب الثاني: مفاهيم المعرفة
٢٥	أولاً: المعرفة في اللغة
٢٦	ثانياً: المعرفة في اصطلاح المفسرين
٢٧	ثالثاً: المعرفة في علم النفس المعرفي
٣١	المطلب الثالث: مفاهيم الحواس
٣١	أولاً: الحواس في اللغة
٣٢	ثانياً: الحواس في اصطلاح المفسرين
٣٤	ثالثاً: الحواس في علم النفس المعرفي
٣٨	المطلب الرابع: حاسة اللمس والشم والذوق في القرآن الكريم
٥١	المبحث الثاني: ميادين الإدراك الحسي في القرآن الكريم
٥٢	المطلب الأول: إدراك الذات الإنسانية
٥٢	أولاً: إدراك أعضاء الجسد ومظاهر نموه
٥٥	ثانياً: حاجة الذات الإنسانية لحاسي السمع والبصر
٥٧	ثالثاً: اكتمال المنفعة بكمال السمع والبصر
٥٩	رابعاً: تسوية الخلق مُدركة بالحواس.
٦١	خامساً: السمع والبصر مستخران لإدراك الشواهد من الذات الإنسانية والآفاق
٦٣	المطلب الثاني: إدراك الكون
٦٥	أولاً: إدراك مظاهر إحكام السماء والأرض وزينتهما وما فيهما من منافع
٦٨	ثانياً: إدراك الجليل والدقيق من الكون.
٦٩	ثالثاً: إدراك مظاهر تسخير الكون.
٧١	رابعاً: مدركات محددة من الكون.

٧٣	خامساً: مميزات بعض المدركات الكونية
٧٥	سادساً: إدراك بعض تدابير الكون
٧٧	سابعاً: إدراك الإبداع في الكون
٨٠	ثامناً: إدراك مسيرة حياة بعض الأحياء
٨٢	تاسعاً: مدركات كونية باهرة
٨٤	عاشراً: إدراك تدرّج الإحياء
٨٦	المطلب الثالث: التمثيل للمعرفة المجردة بما يكتسب بالحواس
٨٧	أولاً: التمثيل لبدء الخلق باستمرارية تجدد بدء المخلوقات
٨٩	ثانياً: التمثيل للغائب في صورة الحاضر
٩٠	ثالثاً: تتبع الآثار منهجية لتحقيق المعرفة المجردة
٩٣	المبحث الثالث: العوامل المؤثرة في الإدراك الحسي
٩٤	المطلب الأول: تأثيرات العوامل الذاتية
٩٤	أولاً: القدرات الإدراكية
٩٤	١. العجز عن رؤية الله تعالى
٩٥	٢. العجز عن رؤية المغيبات
٩٦	٣. تأثير الخداع البصري
٩٨	٤. تأثير الأصوات المرتفعة على السمع
١٠٠	ثانياً: القدرات الإدراكية في الدراسات المعاصرة
١٠٤	ثالثاً: العوامل النفسية
١٠٤	١. تأثير الخوف
١٠٥	٢. تأثير الاحتقار

١٠٧	٣. تأثير الكراهية
١١٠	٤. تأثير الاستكبار
١١٣	رابعاً: الخبرات السابقة
١١٣	١. ثبات معاني الدلائل المدركة
١١٤	٢. استكمال ما خفي من المدركات البصرية
١١٦	٣. تأثير الخبرات السابقة في الأحكام المستقبلية
١١٨	المطلب الثاني: تأثيرات العوامل الخارجية
١١٨	أولاً: تأثير أساليب تنمية فاعلية المدركات الحسية
١١٩	١. تأثير الاعتناء بإدراك مظاهر الزينة
١٢٠	٢. تأثير الاعتناء بانتقاء المدركات
١٢٢	٣. تأثير الاعتناء بإدراك مظاهر إحكام الصنع
١٢٤	ثانياً: تأثير أساليب ممارسة التصدي للمدركات الحسية
١٢٤	١. تتبع وتنظيم المدركات
١٢٨	٢. تحقيق الوعي بالمدركات
١٢٩	٣. تحقيق قصد السماع
١٣١	٤. تحقيق استمرارية قصد السماع في عملية التلقي
١٣٤	ثالثاً: تأثير أنواع وأحجام وألوان وطبيعة المدركات الحسية
١٣٤	١. تأثير النوع والحجم والطبيعة
١٤١	٢. تأثير اللون
١٤٥	الفصل الثاني: الآليات الإدراكية للحواس في القرآن الكريم
١٤٦	المبحث الأول: تحقيق الإطار المعرفي للمدركات الحسية

١٤٩	أولاً: الدعوة إلى التقوى قدر الاستطاعة
١٥٢	ثانياً: الدعوة إلى تجنب المؤثرات السلبية
١٥٤	ثالثاً: الدعوة إلى فهم حقيقة الحياة الدنيا
١٥٦	رابعاً: الدعوة إلى استشعار نعم الله تعالى السابعة
١٥٩	المبحث الثاني: تكرار السلوك الإدراكي
١٦٠	أولاً: اختبار المدركات
١٦٥	ثانياً: تحري المدركات
١٦٨	المبحث الثالث: التركيز على النماذج الفعالة في سلوك المتعلم
١٧٠	أولاً: نموذج العقاب
١٧٢	ثانياً: نموذج التوعية
١٧٤	ثالثاً: نموذج التجربة
١٧٦	رابعاً: نموذج حل المشكلات.
١٧٨	خامساً: نموذج المحتوى التعليمي المحكم
١٨١	الفصل الثالث: أساليب القرآن الكريم في توجيه الإدراك الحسي
١٨٢	المبحث الأول: توجيه العمليات الإدراكية بما يتفق وقدرات الإنسان وحاجاته
١٨٣	أولاً: تلبية حاجة الإنسان للمعتقد السليم والحياة الكريمة
١٨٦	ثانياً: العملية التربوية والتعليمية تقتضي موازنة المادة المدركة
١٨٨	ثالثاً: تنمية المواقف الإيجابية في مواجهة تلقي المدركات السلبية
١٩١	المبحث الثاني: تحقيق استشارة البيئة
١٩٣	أولاً: التعرف إلى وفرة النبات وحسن ثمره
١٩٥	ثانياً: التعرف إلى عجيب الصنع

١٩٧	ثالثاً: التعرف على دلالة إحاطة السماوات والأرض
١٩٩	رابعاً: التعريف بمنافع النعم وكثرة الدلائل والشواهد
٢٠٢	المبحث الثالث: توجيه النشاط الإيجابي في انتقاء المدركات وتفادي التعرض السلبي
٢٠٦	أولاً: انتقاء المفيد من القول
٢٠٧	ثانياً: آثار المواقف السلبية تجاه المدركات النافعة
٢١٠	ثالثاً: التعرض السلبي للمدركات النافعة دلالة الجهل
٢١٤	الفصل الرابع: الآثار التربوية والتعليمية للإدراك الحسي في القرآن الكريم
٢١٥	المبحث الأول: الآثار التربوية للإدراك الحسي في القرآن الكريم
٢١٦	المطلب الأول: الآثار الاعتقادية
٢٢٩	المطلب الثاني: الآثار النفسية
٢٣٠	أولاً: تحقيق طمأنينة النفس
٢٣٦	ثانياً: تركية النفس
٢٣٩	ثالثاً: معالجة الدواخل النفسية
٢٤٤	المطلب الثالث: الآثار السلوكية
٢٤٤	أولاً: تأثير السلوك الإنساني بما تهدي إليه الآيات من المدركات السمعية
٢٤٦	ثانياً: تأثير السلوك الإنساني بما تهدي إليه الآيات من المدركات البصرية
٢٥٠	المبحث الثاني: قضايا تعليمية مستفادة من عمليات الإدراك الحسي في القرآن الكريم
٢٥٢	أولاً: مهارة الاستماع
٢٥٦	ثانياً: استثمار طاقات الإنسان
٢٦١	ثالثاً: تطبيق التكرار
٢٦٦	الخاتمة والنتائج والتوصيات

٢٧٣	فهرس المصادر والمراجع.
٢٩١	فهرس آيات القرآن الكرم
٢٩٨	المخلص باللغة الانجليزية

الملخص

المأجد: كلثم، الإدراك الحسي في القرآن الكريم، دراسة تربوية.

رسالة دكتوراة بجامعة اليرموك/٢٠٠٩م.

إشراف: الدكتور إبراهيم أبو عرقوب، والأستاذ الدكتور محمد الشافعي

هدفت الدراسة إلى الكشف عن معالم الإدراك الحسي في القرآن الكريم، ومنهجية توظيفه. واستخدمت الباحثة المنهج الاستقرائي، والمنهج الوصفي التحليلي. وتوصلت إلى النتائج التالية:

١. إن الإدراك الحسي عمليات إجرائية تتم عبر الحواس الإنسانية، وتتصل بإجراءات أخرى، تعضد بعضها بعضاً، لتكوّن عنها بُنى معرفية، وخبرات إدراكية، تنتج عنها المعرفة الإنسانية.

٢. إن المعرفة الإنسانية تعتمد بشكل كبير على الإدراكات الحسية. وأن الحواس تشكل بهذه الأهمية، ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية. وذلك يؤكد الصلة الوثيقة بين الحواس من جهة، والإدراك والمعرفة من جهة أخرى.

٣. إن القرآن الكريم وظّف الحواس الإنسانية لتزوّد الإنسان بمعارف كثيرة؛ وظهر ذلك التوظيف في آليات عديدة، منها:

- أ. التلذذ بالمحسوس على الجرد.
 - ب. تكوين أطر عامة للمكتسبات الإدراكية الحسية، لتكون مرجعية للمعرفة الإنسانية.
 - ت. إبراز أساليب تعليمية معينة، تُحقق تأثيراً فاعلاً في العمليات الإدراكية الحسية.
٤. إن القرآن الكريم قدّم أساليب مُنوّعة في توجيه الحواس الإنسانية، لتحقيق الإدراك والمعرفة، منها:
- أ. توجيه الإدراك الحسي نحو تنبّع وتنظيم وانتقاء ما ينبغي أن يتم إدراكه والتعرّف عليه.
 - ب. إبراز مرجعيات كثيرة، تُغذّي الإدراك الحسي بصورة متكاملة.
 - ت. توعية الإنسان على الاستخدام السليبي للمدرّكات الحسية، وتحذيره منها.

٥. إن الإدراك الحسي في القرآن الكريم يحقق آثاراً تربوية، تظهر مؤشراتهما في معتقد الإنسان وفي تهذيب نفسه وسلوكه.

٦. إن توجيهات الإدراك الحسي في القرآن الكريم تضمّنت كفاءات تعليمية، كمهارة الاستماع وأساليب التكرار التعليمي، واستثمار الطاقات الإنسانية في تحقيق التعلم.

ومن هنا توصي الباحثة بما يلي:

١. تأسيس منهجية، ذات إجراءات محددة، يُستفاد فيها من توجيهات القرآن الكريم للمدرّكات الحسية.
٢. إضافة دراسات قرآنية أخرى حول موضوع الإدراك الحسي، وإبراز معالم جديدة. مما يتضمنه كتاب الله تعالى.

الكلمات المفتاحية: الإدراك الحسي - القرآن الكريم - دراسة تربوية.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، رسول
الرحمة وقائد الغر المحجلين وعلى آله وصحبه والتابعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم
الدين.

وبعد، ، ،

فإن القرآن الكريم كتاب الله العظيم الذي أهداه للبشرية، وجعله كتاباً لا
يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. وهو الكتاب الذي ربي الأجيال جيلاً بعد جيل،
وما زال يربيهم، وينهض بهم، ويبني مستقبلهم وحياتهم ونهضتهم. وقد كثر الدارسون
لهذا الكتاب، والشاريون من معينه النقي، لينهل كلٌّ منهم ما يشاء من خيراته
العظيمة. وهذه الدراسة هي إحدى المحاولات لفهم جوانب من جوانبه العظيمة، ألا وهي
الإدراك الحسي، ومضامينه في القرآن الكريم. ووجوه توظيفه، ومزاياه مما بيّنه
القرآن الكريم حول ذلك. حيث عنيت الدراسة بالكشف عن تلك الوجوه، ومحاولة
التوصل إلى أساليب توظيف القرآن الكريم للإدراك الحسي وأساليب معالجته. فأتضح
أن كتاب الله العزيز يعرض للقارئ عظمة الإنعام بتلك الحواس. ويوجهه نحو
استخدامهما في مجالات عديدة يتحصّل له من خلالها مدركات ومعارف تقوده لمعرفة
الحق واليقين بالله تعالى. وتعرّفه بذاته وبما حوله من مخلوقات. وتهبّه قدرة على التعرف
على قيمته ومنزله الرفيعة بين تلك المخلوقات. وما حباه الله تعالى به من مميزات

وقدرات ومُسَخَّرات، ونعم لا يحصيها العدّ. اتضحت تلك الوجوه في مفاهيم الإدراك والمعالجات المعرفية ومهمات الحواس. وإلى جانبها وجوه توظيف الحواس في التعرف على المجردات من المعارف. ووجوه توظيفها في تنمية القدرة على تحقيق الإدراك الهادف، وما يُستلهم من ذلك، من قضايا حول التعلم.

وفي سبيل ذلك حوت الدراسة فصولاً أربعة: حوى الفصل الأول منها دراسة حول المفاهيم المتعلقة بموضوع الإدراك الحسي، والفوائد العملية للحواس الإنسانية، وما تتأثر به تلك الحواس من عوامل تتدخل في قدراتها الإدراكية. ودراسة عدد من البحوث الأخرى التي عُثيت بالكشف عن قضايا الإدراك السمعي والبصري. وحوى الفصل الثاني من الدراسة موضوعات تتعلق بوجوه توظيف الإدراك الحسي في القرآن الكريم، فتضمن مباحث حول كفاءات ووجوه ذلك التوظيف، وعملياته. أما الفصل الثالث فتضمن مباحث أخرى حول أساليب القرآن الكريم في توجيه العمليات الإدراكية في تحصيل الفوائد المعرفية، والاستفادة من قدرات الحواس. وتضمن الفصل الرابع استنباطات تربوية وتعلمية مما تمّ توضيحه في الفصول السابقة. وتُعدّ هذه الدراسة محاولة جديدة في الكشف عن جوانب ذات أهمية بالغة في حياة الإنسان. وقد توصلت الدراسة إلى بعض أهدافها، ولا تزال الباحثة تطمح في دراسات أخرى تواصل مسيرة هذا الموضوع وتكشف عن جوانب جديدة من مظاهر الإدراك الحسي التي حوتها مؤشرات القرآن الكريم.

ولابد من التنويه في هذا الموضع إلى أن الدراسة حملت عنوان الإدراك الحسي، ولكنها عُنيت في غالب مواضعها بالإدراك السمعي والبصري على وجه الخصوص،

لكونها أهمّ حاستين بين الحواس الأخرى. ولكونها الحاستان اللتان وظّفهما القرآن الكريم بصورة واضحة في الجوانب التربوية والتعلمية. وقد أمكن الإفادة من ذلك، وتوجيه موضوعاتها بما يتفق والقضايا التي اشتمل عليها موضوع الدراسة. أما الحواس الأخرى فقد تمّت معالجة قضاياها في عجالة، اقتصرت على مطلب واحد فقط من الدراسة. وذلك لغلبة المعاني المجازية في استخداماتها في آيات الكتاب العزيز. ولما كانت الدراسة مقتصرة على المعاني الحسية المباشرة، فقد حال ذلك دون القدرة على دراستها، إلا ما أتصل بهذا الموضوع منها، وهو قليل جداً.

وهذا هو جهد المقلّ، فإن أحسنت فمن الله تعالى، وإن أسأت فمن نفسي وتقصيري، وحسبي أني بذلت ما بوسعي من جهد في الاطلاع والبحث والتقيب عن كل ما يأخذ بيدي لتحقيق خدمة كتاب الله تعالى في هذا الموضوع، وإخراجه على الوجه الأكمل. والحمد لله تعالى على ما فتح به من علم وفهم وتيسير. وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

مشكلة الدراسة وأسئلتها :

عُني عدد من الاتجاهات الفكرية والفلسفية بموضوع الحواس الإنسانية، وعاجلت هذا الموضوع من منظور فكري، وناقشت إمكانات الحواس وقدراتها، ومدى تفردها بما تنقله من معلومات حسية. وتبلورت تلك الاتجاهات في فريقين: التجريبيين، والعقليين، فأما التجريبيين فـ "يالغون في الاعتماد على الحواس طريقاً للمعرفة، بل ويعدونها المنبع الوحيد والسبيل الرئيسي للمعرفة، وتقوم نظرتهم لغيرها من الطرق، كالعقل، على أنه تابع للحواس، بل وتعتمد عليها كلية. وينحصر دوره فيما تقدمه له هذه الحواس، بل هو لا يعدو أن يكون مستقبلاً، هذا إن كان ثمة اعتراف به وبدوره في المعرفة".¹ وأما العقليون فيعترفون بدور الحواس، ولكنهم يقللون من أهميتها الفعلية، فهم "يأخذون على التجريبيين اعتمادهم التام عليها طريقاً للمعرفة، ثم يخالفونهم في اعتبار العقل محصوراً في مهمة الحواس. ويقول العقليون: إن التجربة التي تحصل بوساطة الحواس مضللة موهمة، وإن الحواس لخداعة كذابة مخطة لو اعتمدنا عليها كل الاعتماد في المعرفة، ذلك أن الإدراك الحسي إنما يخبرنا عما يتعلق بحالة واحدة من أحوال الشيء، كما أن ما تظهرنا عليه الحواس ليس إلا مظهر الأشياء فحسب، ولا تطلعنا على حقيقتها، وهذا لا يعني إنكار دور الحواس لهائياً في المعرفة، ولكن التجارب الحسية إنما تقدم عليها المعاني الأولية التي على أساسها تفهم التجربة ويحصل الإدراك الحسي، فالعقل أساس الحواس، وموجه للإدراك الحسي".²

¹ (الكردبي: راجع عبد الحميد. نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة. أصل المعرفة. ١٠١/٣. دار الفرقان. عمان، الأردن. الطبعة الثانية: ٢٠٠٣م.

² (المرجع السابق: ١٠٣/٣، ١٠٤.

إن ما ذهب إليه الفريقان يتطلب شواهد تطبيقية تثبت مدى صحة ما ذهبوا إليه؛ فإن الحواس قادرة على نقل المعلومات الحسية نقلاً صحيحاً، وفي الوقت نفسه نجد أن الخطأ يعترى ذلك النقل في بعض الأحوال، لأنه محدود بقدرات الحواس وبالظروف والأحوال التي تُنقل المعلومة فيها. وهو ما تعرّضت له الدراسات الفكرية الإسلامية، في حديثها عن الحواس في القرآن الكريم. ولكنها لم تتعرض للتفاصيل والمعلومات التحريية التي تكشف عن العمليات الإدراكية بصورة تفصيلية. بحيث تتمكن من البحث من خلالها عن المؤشرات العلمية للإدراك الحسي في القرآن الكريم.

وكذا عُنيت دراسات علم النفس المعرفي، والدراسات التربوية بموضوع الإدراك الحسي، واهتمت به من ناحية علمية وتربوية. ولطبيعة موضوعاتها فإنها لم تربط بين تلك الدراسات وبين ما يمكن أن تكشف عنه من فهم لمؤشرات القرآن الكريم في جانب الإدراك الحسي.

ولذا جاءت هذه الرسالة لتسهم في تغطية جزء من تلك الثغرة، بالكشف عما يتعلّق بالإدراك الحسي من عوامل تسهم في ترقية المعرفة الإنسانية، مما يهدي إليه القرآن الكريم ضمن المنهج التربوي العظيم الذي حفل به.

وللسير قُدماً في معالجة هذه المشكلة تمت صياغة السؤال الرئيس الآتي:

ما معالم الإدراك الحسي في القرآن الكريم؟ وتتفرع عنه الأسئلة الآتية:

١. ما الإدراك وما المعرفة وما صلة الحواس الإنسانية بهما؟
٢. ما الآليات الإدراكية للحواس الإنسانية في القرآن الكريم؟
٣. ما أساليب القرآن الكريم في توجيه الحواس الإنسانية؟
٤. ما الآثار التربوية والتعليمية للإدراك الحسي في القرآن الكريم؟

وتمت الإجابة عن هذه الأسئلة في أربعة فصول شملتها الرسالة؛ فحاء الفصل الأول متضمناً عدداً من التفصيلات: كمعالجة مفاهيم الإدراك والمعرفة والحواس، والتعرف على الفوائد الإدارية للحواس الإنسانية. والكشف عن العوامل التي تؤثر في الإدراك الحسي. وكشف الفصل الثاني عن آليات الإدراك الحسي ووظائفه. ثم عالج الفصل الثالث قضايا وأساليب القرآن في توجيه الإدراك الحسي. ثم اتضح في الفصل الرابع التأثيرات التربوية لآيات الإدراك الحسي في القرآن الكريم.

أهمية الدراسة:

تعتمد التربية الإسلامية عدداً من الأصول التربوية وفي مقدمتها الأصل التربوي الأول، وهو القرآن الكريم، وتعتمد إلى البحث عن مكوناته التربوية في شتى المجالات المعرفية.

وقد جاءت هذه الدراسة لتكون لبنة في مجالات التربية الإسلامية، للبحث والتنقيب عن فاعلية الحواس في عملية الإدراك، ومنها إلى قضية التعلم بالاستفادة منها كما يوجهها القرآن الكريم والدراسات المعاصرة، وتمثل أهمية ذلك فيما يأتي:

أولاً: تكشف هذه الدراسة عن أساليب جديدة في تدبر الأساليب التربوية القرآنية، وفي الوعي العلمي الأكثر ملاءمة للكتاب العزيز، من خلال إيجاد أساليب فهم جديدة، تعترف بالخطأ والصواب، ولا تُلزم القرآن بوصف إعجازي قد يناقضه الواقع في المستقبل.

ثانياً: ترمي هذه الدراسة إلى التأكيد على أن الكتاب العزيز، كتاب هداية وإرشاد، يدعو العقل إلى السير والنظر والغور في مجالات العلم، والتبحر فيها، ليُجعل في المكانة اللائقة به، والمنسزة الحريرة بالإنسان كما تقتضي مسؤولية الخلافة.

ثالثاً: تُسمِّد هذه الدراسة لدراسات تربوية إسلامية أخرى، تبني جديتها وفعاليتها من خلال الاستفادة من المناهج العلمية الحديثة في طرح مجالات التربية الإسلامية طرحاً جديداً قادراً على مواكبة التطورات العلمية والمناهج الحديثة التي تقتضيها الحياة المعاصرة، وقضايا الارتباط التربوي الدولي.

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى التوصل إلى مشاريع فهم جديدة للتربية القرآنية حول الإدراك الحسي، تُبنى على ما توصلت إليه أفهام جماهير علماء المسلمين، وغيرهم، بما أوتوه من عقل وعلم وفهم، ولذا طمحت الباحثة أن تحقق الأهداف الآتية:

1. التعرف على عمليات الاستخدام الأمثل للحواس، بما يتفق وقدراتها في العملية الإدراكية.
2. التعرف على الأهمية الإدراكية للحواس من خلال العناية التي يوليها القرآن الكريم لها.
3. تحقيق نظرية تعليمية مهتدية بهدي القرآن الكريم في مجال الاستفادة من الحواس، من خلال التعرف على قدرات تنظيم الأداء الإدراكي الحسي كنوع من أساليب التعلم.

الدراسات السابقة:

تعددت الدراسات المعنية بالحواس في المجالات الطبية، والنفسية، والمعرفية، والإسلامية، وغيرها. وتناولت كل دراسة منها جوانباً تخدم مجالاتها الوظيفية والمعرفية. ورغم ذلك لم أجد فيما أطلعت عليه، أي دراسة معنية بالكشف عن الإدراك الحسي من الناحية العملية في كتاب الله العزيز، سوى الجوانب التفسيرية التي شملتها كتب تفاسير القرآن الكريم.

وكذلك بعض الرسائل العلمية والمقالات العلمية التي لم تتعرض -إلا في بعض الوجوه- لتفاصيل المدركات الحسية في القرآن الكريم.

أما الرسائل العلمية، فقد توافرت دراستان فقط، وهما:

١. مسؤولية السمع والبصر والفؤاد كما وضحها القرآن الكريم والسنة الشريفة^١:

هدفت هذه الدراسة إلى الكشف عن مسؤولية السمع والبصر في القرآن الكريم والسنة النبوية، فعالجت هذا الموضوع باستقراء بعض آيات الكتاب العزيز، وبعض الأحكام الفقهية المتعلقة بالسمع والبصر. وتوصلت إلى بعض النتائج المتعلقة بقضايا الإدراك عموماً لدى الإنسان، ومحدودية إدراك السمع والبصر. وأهميتهما والتفاضل بينهما، ومسؤولية الإنسان تجاههما. وجاء طرح المادة بمنهجية إنشائية، أكثر منها تحليلية.

ولذا فإن الدراسة الحالية لن تلتقي بهذه الدراسة في شيء سوى الإشارات السريعة التي حوتها الرسالة المذكورة فيما يتعلق بالآثار الإيجابية النفسية والسلوكية.

٢. الوسائل السمعية والبصرية في التربية الإسلامية.^٢

هدفت هذه الدراسة إلى بيان أهمية السمع والبصر في القرآن الكريم والسنة النبوية، وعرضت لهما عرضاً إنشائياً، تناولت فيه بعض القضايا المتعلقة بتفعيل السمع والبصر أو تعطيلهما، من خلال عرض مواقف عملية من تاريخ الإسلام. وأشارت بإيجاز شديد إلى بعض

^١ (مهنا: ماجدة محمد رشاد. مسؤولية السمع والبصر والفؤاد كما وضحها القرآن الكريم والسنة الشريفة. رسالة دكتوراة. جامعة الأزهر، كلية الدراسات الإسلامية والعربية. غير منشورة. ولم يرد فيها ذكر تاريخ تقديم الرسالة ومناقشتها.

^٢ (الحمدان: آمنة عوض الحمدان. الوسائل السمعية والبصرية في التربية الإسلامية. رسالة ماجستير قدمت هذه الرسالة عام ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م. في كلية الشريعة بجامعة اليرموك. وهي غير منشورة.

قضايا الاستجابة للمثيرات التي تحيط بالإنسان. وتوصلت إلى توجيهات تربوية مستنبطة من القرآن الكريم والحديث الشريف.

وتلتقي هذه الدراسة بالدراسة الحالية في إشاراتها إلى قضايا الاستجابة للمثيرات التي

تحيط بالإنسان، وأهمية تلك المثيرات في عملية التعلم.¹

ما يميز هذه الدراسة عن الدراسات السابقة:

١. عرض أهمية الحواس في حياة الإنسان من خلال عرض موجز للجانب التشريحي والوظيفي لها بما تحتويه من الأعضاء الفاعلة في عملية الإدراك. ومن خلال عرض المجالات العديدة التي تتمتع بتدوقها الحواس الإنسانية، مما له تأثير في بناء شخصية الإنسان.
٢. الكشف عن وجوه المعالجة القرآنية والدراسات المعاصرة في عرضها وجوه الإدراكات العديدة التي يمكن اكتسابها بالحواس.
٣. الكشف عن آليات الإدراك الحسي التي تضمنتها إشارات القرآن الكريم في مضامين مفردات الآيات، بالاستعانة بالآليات التي كشفت عنها الدراسات المعاصرة.
٤. محاولة الوصول إلى نظرية في التعلم مستنبطة من محاور الإدراكات الحسية كما وجهها القرآن الكريم والدراسات المعاصرة.

¹ (كما في ص: ٢٥ و ٢٦ و ٣٩، وغيرها.

منهج الدراسة:

اعتمدت الباحثة في هذه الدراسة المناهج الآتية:

أولاً: المنهج الاستقرائي:

- جمع الآيات المتضمنة لمصطلحات الدراسة من المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.
- الرجوع إلى كتب التفاسير العامة وكتب التفسير الموضوعي.
- الرجوع إلى كتب الدراسات المعاصرة المتعلقة بموضوعات الإدراك الحسي.

ثانياً: المنهج الوصفي التحليلي:

وذلك بوصف وتفسير وتحليل وإبراز العلاقة بين مضامين آيات الكتاب العزيز وما يلتقي وتلك المضامين من مفهومات علمية حول عمليات الإدراك الحسي.

مسرد الدراسة:

اقتصرت هذه الدراسة على الآتي:

١. دراسة الإدراك الحسي، كما يُبيئه القرآن الكريم ويوظفه.

٢. التركيز على مدركات حاسي السمع والبصر.

المبحث الأول

الإدراك والمعرفة والحواس

وفيه أربعة مطالب:

- المطلب الأول: مفاهيم الإدراك.
- المطلب الثاني: مفاهيم المعرفة.
- المطلب الثالث: مفاهيم الحواس.
- المطلب الرابع: حاسة اللمس والشم والذوق في القرآن الكريم.

الفصل الأول

الإدراك وصلة الحواس به

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الإدراك والمعرفة والحواس.

المبحث الثاني: ميادين الإدراك الحسي في القرآن الكريم

المبحث الثالث: العوامل المؤثرة في الإدراك الحسي في القرآن

الكريم.

المطلب الأول

مفاهيم الإدراك

مفاهيم الإدراك في اللغة والاصطلاح وفي علم النفس المعرفي.

يُطلق مصطلح الإدراك على عدد من العمليات التي يتم بعضها ابتداءً مما تتلقاه الحواس، وانتهاءً بما يتم تأسيسه من بُنى معرفية يخزنها الدماغ، وتُشكل مرجعية للمدركات الجديدة. ويُطلق في الوقت نفسه على عمليات ذهنية معرفية لا ترتبط بالمدركات الحسية المستحثة.¹

أولاً: الإدراك في اللغة:

يعود لفظ الإدراك إلى الجذر دَرَك. و الدَرَكُ كـ الدَرَج، لكن الدَرَج يُقال اعتباراً بالصَّعود، والدَرَك اعتباراً بالحدور. ولهذا قيل: درجات الجنة ودرجات النار.² وذلك كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ

التَّنْفِيذِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيراً﴾³

وتعددت مشتقات هذا الجذر فتعددت مفاهيمه. ف تَدَارَكَ يَرُدُّ في الغالب بمعنى الإغاثة

والنعمة. كما في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُنَّ رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي، لَنُبَذَ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ﴾⁴

¹ (يقول عدنان العتوم: "الإدراك عملية مجردة، لأنها لا تشترط وجود المثيرات في لحظة الإدراك، أي أن الإدراك قد يحدث بغياب المثير موضوع الإدراك". انظر: العتوم، عدنان: علم النفس المعرفي، ص: ٩٥، دار المسيرة، عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

² (الأصفهاني: الحسين بن محمد بن الفضل. معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص: ١٦٧، ١٦٨. منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.

³ (سورة النساء، الآية: ١٤٥).

⁴ (سورة القلم، الآية: ٤٩).

وأدرك بمعنى بلوغ الشيء، كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾^١.

و"أدرك" بمعنى اللحاق. كما في قوله تعالى: ﴿ بَلِ أَدْرَاكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكِّكَ

مِّنْهَا بَلْ هُمْ مِّنْهَا عَمُونَ ﴾^٢. وفي الحديث الشريف: (تعوذوا بالله من جهد البلاء ودرك

الشقاء...)^٣. بمعنى: اللحاق والوصول. ويُقال: أدركته ببصري أي رأيته. واستدرك الشيء بالشيء:

حاول إدراكه به. ويُقال أيضاً: رجلٌ دراك: أي مُدرك كثير الإدراك. ورجل مُدركة، بالهاء، أي سريع

الإدراك.^٤

والتأمل في مادة الإدراك يجدها اجتمعت حول معنى الوصول للشيء وبلوغه. وهذا البلوغ قد

يرد بمعنى الغلبة والإحاطة، كما في قوله تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ ﴾^٥.

وذلك يعني أن مفهوم الإدراك يحتمل معنى التحصيل، وهو ما يتصل بوظيفة حواس الإنسان،

إذ مهمتها تحصيل المادة المدركة، ومن ثم نقلها عبر عدة عمليات عصبية إلى الدماغ.

ثانياً: الإدراك في اصطلاح المفسرين:

ورد لفظ الإدراك في عدة آيات، وعرفه المفسرون بحسب المعنى الاشتقاقي له كما جاء في

اللغة، وبحسب موضعه من الآية. مثال ذلك قوله تعالى: (...ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله

^١ (سورة يونس، الآية: ٩٠).

^٢ (سورة النمل، الآية: ٦٦).

^٣ (صحيح البخاري، كتاب القدر، باب: (١٣) من تعوذ بالله من درك الشقاء وسوء القضاء. رقم

الحديث: ٦٦١٦. ص: ١١٤٢).

^٤ (ابن منظور: لسان العرب، مادة "درك". بتصرف. دار صادر، بيروت. دط. دت).

^٥ (سورة يونس، الآية: ٩٠).

ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً).^١ كلمة يدركه، في الآية الكريمة، لم يوضحها الطبري بتوضيح معين، ولكنه قال: "إن أدركته منيته قبل بلوغه أرض الإسلام...".^٢ وواضح أنه يريد بذلك المعنى اللغوي للإدراك، أي: اللحاق. بمعنى: لحقته منيته وبلغته.

وكذلك في شرح قوله تعالى: ﴿لَا الشَّمْسُ يَلْبَغِيهَا أَنْ تَدْرِكَ الْقَمَرَ﴾.^٣ قال "مقاتل

بن سليمان": "فتضيء مع ضوء القمر، لأن الشمس سلطان النهار، والقمر سلطان الليل، ثم قال عر

وجل: ﴿وَلَا أَيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾^٤ يقول: ولا يدرك سواد الليل

ضوء النهار، فيغلبه على ضوءه".^٥ هذا التفسير يفيد معنى الوصول والغلبة لكلمة تُدْرِكُ في الآية الكريمة.

ولذا قال "لا يدرك سواد الليل ضوء النهار، ووضح مقصوده بالقول "فتضيء مع ضوء القمر" أنه "يغلبه على ضوءه".^٥

ومما ذكر يبدو جلياً أن اشتقاقات اللفظ درك في آيات القرآن الكريم لم تختلف عن معانيها في اللغة،

إلا ما أضيف لمعنى الإدراك في قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾. فقد ذكر المفسرون في

قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ﴾.^٦ آراء كشفت عن مفهوم أشمل

^١ (سورة النساء، الآية: ١٠٠).

^٢ (تفسير الطبري: ١١٣/٩. جامع البيان عن تأويل القرآن. دار المعارف، مصر. دط. دت. حقه: محمود شاكر.

^٣ (سورة يس، الآية: ٤٠).

^٤ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٨٧/٢. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ. ٢٠٠٣م. تحقيق: أحمد فريد.

^٥ (المرجع السابق).

^٦ (سورة الأنعام، آية: ١٠٣).

للإدراك. فقد ناقش المفسرون مفهوم هذا المصطلح - في هذه الآية على وجه الخصوص - من حيثيات عدة، منها: معنى الإدراك وحدوده، ومدى إمكانية. ومنها: مناقشة المخالفين في المراد بهذا اللفظ في الآية الكريمة.

وفيما يأتي تم إيراد بعض تلك الآراء بإيجاز:

١. قوله تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾: لا يعني عدم إمكان الرؤية، فرؤية الله عز وجل

يوم القيامة ثابتة، وجائزة عقلاً ونقلاً؛ لقوله تعالى: ﴿وَجُودٌ يُؤْمِنُ تَأْتِرُ ۝٢٢﴾ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ

٢٣. ١. ولقوله صلى الله عليه وسلم: (إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر، لا

تضامون في رؤيته... الحديث).^١ قال الطبري: "...فكان معلوماً بذلك أن قوله: ﴿لَا

تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ﴾ من معنى لا تراه الأبصار بمعزل، وأن معنى ذلك: لا تحيط به

الأبصار، لأن الإحاطة به غير جائزة. قالوا: فالمؤمنون وأهل الجنة يرون ربهم بأبصارهم ولا

تدرکه أبصارهم. بمعنى أنها لا تحيط به؛ إذ كان غير جائز أن يوصف الله بأن شيئاً يحيط به.

قالوا: ونظير جواز وصفه بأنه يُرى ولا يُدرك، جواز وصفه بأنه يُعلم ولا يحاط بعلمه".^٢

^١ (سورة القيامة، الآيتان: ٢٢، ٢٣)

^٢ (صحيح البخاري، كتاب مواقيت الصلاة، باب (١٦): فضل صلاة العصر. رقم الحديث: ٥٥٤.

ص: ١٤٤. مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م.

^٣ (تفسير الطبري ١٢/١٤).

٢. وقال الثعالبي: "أجمع أهل السنة على أن الله عز وجل يُرى يوم القيامة، يراه المؤمنون، والوجهه أن يبين جواز ذلك عقلاً، ثم يستند إلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز^١، واختصار تبين ذلك أن يعتبر بعلمنا بالله عز وجل، فمن حيث جاز أن نعلمه لا في مكان، لا متحيزاً ولا مقابلاً، ولم يتعلق علمنا بأكثر من الوجود، جاز أن نراه غير مقابل ولا محاذي، ولا مكيفاً ولا محدداً^٢". قوله هذا يشير إلى أن مفهوم الإدراك لديه هو الإحاطة بالشيء علماً من حيث الكيفية والوضوح التام.

٣. وقال الفخر الرازي: "...المرئي إذا كان له حدٌ ولهاية وأدركه البصر بجميع حدوده وجوانبه ولهاياته، صار كأن ذلك الإبصار أحاط به. فتسمى هذه الرؤية إدراكاً، أما إذا لم يُحيط البصر بجوانب المرئي لم تُسم تلك الرؤية إدراكاً. فالخاصل أن الرؤية جنس تحتها نوعان: رؤية مسع الإحاطة، ورؤية لا مع الإحاطة. والرؤية مع الإحاطة هي المسماة بالإدراك، فنفي الإدراك يفيد نفي نوع واحد من نوعي الرؤية، ونفي النوع لا يوجب نفي الجنس، فلم يلزم من نفي الإدراك عن الله تعالى نفي الرؤية عن الله تعالى..."^٣. يناقش الرازي بقوله هذا مذهب المعتزلة، ويذهب في رأيه إلى ما ذهب إليه الطبري والثعالبي.

اتضح مما سبق أن المفسرين أنزلوا مفهوم الإدراك في الآية الكريمة منزلة العلم والإحاطة. وبهذا المفهوم يختلف معنى الإدراك في هذه الآية -على وجه الخصوص- عن مفهوم الإدراك في الدراسات المعاصرة، مما كشفت عنه بحوث علم النفس المعرفي. ولا إشكال في ذلك؛ فالمعنى الاصطلاحي للفظ

^١ (يشير الثعالبي بقوله: (ورود السمع)، إلى الحديث المذكور في النقطة الأولى.

^٢ (الثعالبي: عبد الرحمن مخلوف، الجواهر الحسان في تفسير القرآن: ٥٠٢/١. المكتبة العصرية، تحقيق: محمد الفاضلي، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.

^٣ (الرازي: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن الشافعي. التفسير الكبير، المجلد السابع: ١٣ - ١٠٣/١٤. منشورات دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

الإدراك في الآية يُراد به إدراك خاص يتعلق بصلة الإنسان بربه، وما تحكمه هذه الصلة من حدود إدراكية للإنسان، لا يمكن تجاوزها مطلقاً. بينما تحدثت دراسات علم النفس المعرفي عن الإدراك المحدود بالقدرات الإنسانية تجاه ما حولها من مدركات حسية فقط.

ثالثاً: الإدراك في علم النفس المعرفي:

قبل البدء بالحديث عن مفهوم الإدراك، يحسن ذكر مفهوم علم النفس المعرفي، لتتضح صلته بهذا الموضوع. فعلم النفس المعرفي علمٌ "يعنى بجميع العمليات العقلية التي يمارسها الفرد عندما يستقبل المعلومات ويعالجها ويرمزها ويخزنها ثم يسترجمها عند الحاجة. لذا فإن علم النفس المعرفي يتعامل مع عمليات حصول الفرد على المعلومات، وكيفية تمثيلها وتحويلها إلى معرفة، وكيفية تخزينها، وطريقة استخدامها في توجيه النشاط الإنساني. وهكذا نجد أنه يتضمن مدى واسعاً من العمليات العقلية ابتداءً من الإحساس والإدراك، وعلم الأعصاب، والتعرف على النمط، والانتباه، والتعلم والذاكرة...".¹

وللحديث عن مفهوم الإدراك في علم النفس المعرفي، يجدر إلقاء الضوء على ما ذُكر حول المعرفة أولاً. فقد ذكر عدنان العتوم "أن المعرفة تتطلب عمليات عديدة حتى تصبح على شكل بُنى معرفية جاهزة للاستخدام، مثل: عمليات الإحساس، والانتباه، والإدراك، والتعرف، والترميز، والتحليل، والتفكير، واللغة، وغيرها".² وذلك يشير إلى أن الإدراك يُعدّ واحداً من العمليات المعرفية، وليس مستقلاً بها. ولذا عرفه بأنه: "القدرة على فهم وتحليل المعلومات التي تنقلها الحواس إلى العقل الإنساني (الدماغ)".³ وأضاف أن ذلك التعريف يكاد يتفق عليه علماء النفس. فذكر تعريفات عدّة؛

¹ (الزغول: رافع النصير، و الزغول: عماد عبد الرحيم: علم النفس المعرفي. ص: ١٧، ١٨. دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الأول. ٢٠٠٣م.

² (العتوم: عدنان. علم النفس المعرفي: ص: ٢٤.

³ (المرجع السابق: ص: ٢٩.

يرى أحدها أن الإدراك "يرتبط بفهم المثيرات الحسية"¹. ويرى الآخر أنه "محاولة تفسير المعلومات التي تصل إلى الدماغ. وهو عملية ذهنية يتم من خلالها التعرف إلى المنبهات الحسية القادمة عن طريق الحواس وتنظيمها واستيعابها"². ويرى آخرون أنه "تعديل للانطباعات الحسية عن المثيرات الخارجية من أجل تفسيرها وفهمها"³. ويرى بعضهم أنه "العملية التي يتم من خلالها التعرف على المثيرات الحسية القادمة من الحواس وتنظيمها وفهمها"⁴.

ويُلاحظ أن هذه التعريفات -وكما يرى العتوم- قد ربطت بين الإدراك وقدرة الإنسان على تنظيم الإحساسات التي تزود بها الحواس. وأنها العملية التي يتم من خلالها تنسيق عمل الحواس لتصبح ذات معنى. ولذا يُلخص إلى أن "الإدراك عملية تفكير عليا مرتبطة بالبنى المعرفية لدى الفرد ومتأثره بميوليه وقدراته المختلفة. ومع ذلك فإن عملية الإدراك لا تحدث باستقلالية عن الإحساس إلا في حالة ما يعرف بالإدراك فوق الحسي (ESP) (Extrasensory Perception)..."⁵.

ورأيه هذا يوضح صلة الإدراك بالحواس، فالإدراك لا يتم بمنأى عن الحس. ولأن الإدراك يُعدّ عملية تفكير عليا مرتبطة بالبنى المعرفية، فذلك يشير إلى أهميته بين العمليات المعرفية الأخرى، وأنه وغيره من العمليات يرتبط بـ "النشاط المعرفي الذي يمارسه الأفراد في مواقف الحياة المختلفة"⁶. بمعنى أن عملية الإدراك تكمل عمليات أخرى في تكوين المعرفة، وأنها مهمة أساسية تعتمد على النشاط

¹ (المرجع السابق: ص: ٩٣.

² (أندرسون: جون. علم النفس المعرفي وتطبيقاته. ص: ٦٦. ترجمة: محمد صبري سليط، ورضا مسعد الجمال. دار الفكر، عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ. ٢٠٠٧م.

³ (العتوم: علم النفس المعرفي، ص: ٩٣.

⁴ (المرجع السابق. ص: ٩٤.

⁵ (المرجع السابق.

⁶ (الشرفاوي: أنور محمد. دورية "علم النفس" بحث بعنوان: "الإدراك في نماذج تكوين وتناول المعلومات ١ -٤" ١٩٩٧م. الإصدار: ٤٠، ٤١. ص: ٨.

المعرفي الذي يبذله الإنسان، وهذا الاعتماد يتطلب تنظيم النشاطات المعرفية، وتحديد استراتيجية معرفية لتحقيق النمو المعرفي السليم. مما يدعو إلى التأكيد على أهمية ارتباط النشاط المعرفي بنشاط الحواس التي يُعدّ المحيط البيئي مرجعاً أساسياً لها.

وتنقل هدى الشيال تعريف الإدراك بقولها:

"عرّف العلماء الإدراك بأنه عملية معقدة تنسّق بين الإحساسات المختلفة في نظام متكامل، وذلك بانطباع صور المرئيات على شبكية العين، وتفسير هذه المرئيات بالجهاز العصبي من حيث الشكل واللون والحجم والإدراك البصري".¹ ويُلاحظ في هذا التعريف اقتصره في التمثيل للمحسوسات على الإدراك البصري، وهو جزء من الإدراكات الحسية الأخرى.

بينما أشارت نادية محمود إلى عملية الإدراك بأنها "من العمليات العقلية المعرفية التي يتحدد على أساسها أسلوب تنظيم العلاقات المتضمنة في موقف من المواقف، سواء كان تنظيم تلك العلاقات يتم في إطار نظرة كلية شاملة لعناصر الموقف، أو في إطار فقرة تحليلية لعناصر هذا الموقف".²

إن التعريفات المذكورة حول الإدراك تجتمع معانيها حول ما يتسق مع عملية الإدراك، من إحساس، وانتباه، وترميز، وتفسير، وتحويل، التي تتم في الدماغ. وهي هذا الأتساق تشكّل إجراءات للعملية الإدراكية التي تتأتى عنها البنى المعرفية. وما ذكر هو عدد من التفاسير العلمية للإدراك كما يراها الباحثون في علم النفس المعرفي. تم إيرادها للإطلاع على مفهوم هذا اللفظ لديهم.

¹ الشيال: هدى عبد الرحمن. دورية "مجلة الطفولة والتنمية" بعنوان: "الطفل والإدراك البصري في الفراغات العمرانية" دراسة ميدانية بالقاهرة لأطفال المرحلة الإعدادية". عدد الإصدار: ٣. مج: ٢٠٠١/١. ص: ٢٠.

² شريف: نادية محمود. دورية "عالم الفكر" بعنوان: "الأساليب المعرفية الإدراكية وعلاقتها بمفهوم التمايز النفسي". المجلد: ١٣. العدد: ٢. ١٩٨٢. ص: ٤٥٣.

وبالنظر إلى المفهوم اللغوي والاصطلاحي لمفردة الإدراك اتضح أنه لم يُعَنَّ بالبحث التجريبي، كما هو الحال في علم النفس المعرفي المعاصر، وذلك عائد إلى طبيعة المنهجية العلمية لكل منهما؛ فالمنهجية العلمية للدراسات اللغوية اعتمدت على أصول اللغة ومعالجة مفردات اللغة ومصطلحاتها من منطلق فكري نابع عن لغات العرب الأصيلة، وكذلك بالنسبة للعلوم التفسيرية التي انطلقت من الفكر الإسلامي الخاضع للقواعد العلمية الدينية المستقاة من شروح المفسرين واستنباطاتهم الفكرية النابعة عن النصوص النقلية، والاجتهادات العقلية.

بينما اعتمدت دراسات علم النفس المعرفي المعاصر على بحوث وتجارب عديدة كشفت عن عمليات باطنية في الدماغ البشري، واتفقت في كثير مما اكتشفته حول العمليات المعرفية. ولا شك أن ما توصلت إليه تلك البحوث ليس هو نهاية المطاف، ولكنه سلسلة ضمن بحوث متواصلة ستتطور اكتشافاتها عما تمّ التوصل إليه اليوم. كما تطوّر العلم الحالي عن سلسلة من المعلومات التي تمّ التوصل إليها سابقاً، فعلم النفس المعرفي المعاصر امتداد لفلسفة ابتدأت معالمها لدى فلاسفة قدماء مثل: أفلاطون وأرسطو وغيرهم. وامتدت عبر العصور اللاحقة إلى عصرنا هذا، بالتطوير والإضافة إلى أن وصلت إلى تقرير العلوم الحالية عن عمليات الإدراك والمعرفة.

ولا شك أن الاستئناس بما في الدراسات التربوية الإسلامية يساعد على الكشف عن المؤشرات العلمية في القرآن الكريم والسنة النبوية، وتفحص تلك المؤشرات بعين مُقرّة بأن القرآن الكريم هو كتاب الهداية للإنسان والإنسانية، وفي الوقت نفسه كتاب مَوْجّه للمنطلقات العلمية، ومتضمن حوافز بالغة الأهمية في توحى المؤشرات العلمية التي أمكن استنباط بعضها من معاني آيات القرآن العظيم.

ولذا فلو أردنا أن نكشف عن وجه العلاقة بين مفهوم الإدراك في الاصطلاح، ومفهومه في علم النفس المعرفي، فسنعجد أن الإدراك في اصطلاح المفسرين أفاد معنى البلوغ واللاحاق، والغلبة والإحاطة

والعلم. وهذه المعاني تلتقي ومفهوم الإدراك في علم النفس المعرفي في كونه عملية انتقال معرفي عبر عدد من الخطوات الإجرائية، منها الاكتساب الحسي، أي ما تتلقاه الحواس من المثيرات حولها. ومنها عملية الانتباه، التي تساعد على نقل مفهوم المثيرات بحجم أكبر وأوضح عن غيرها من المثيرات التي لا يتنبه إليها الفرد. ومنها عمليات الترميز والتفسير التي تتم عبر الجهاز العصبي حتى تصل إلى ما يسميه علماء النفس المعرفي بالذاكرة الطويلة التي تتم بعملية تخزين المعلومات في الدماغ. وتُشكّل هذه العمليات مجتمعة إجراءات تسير عبر عمليات ذهنية، يتوصّل الإنسان بها إلى بلوغ المعرفة.

وهذه العمليات تشكّل في حقيقتها عمليات توصيل وتلاحق إجرائي تقوم به مجموعة من الأعضاء العصبية المتصلة بالدماغ. وعليه فتلتقي مفاهيم الإدراك في الاصطلاح وفي علم النفس المعرفي حول تلاحق مادة المعرفة عبر سلسلة من وظائف الأعضاء، ثم بلوغها الدماغ واستقرارها في الذاكرة. وإن كانت الأولى مبنية على الفهم اللغوي لكلمة الإدراك والثانية مبنية على البحوث والتجارب.

ويتضح ذلك في الإشارة الآتية، التي أوجز فيها العتوم حديثه عن الإحساس ثم الانتباه ثم الإدراك: فقال: "الإحساس يحدث عندما يستقبل أي جزء من أعضاء الحس كالعين أو الأذن أو الأنف أو اللسان أو الجلد مثيراً منبهاً، مشيراً إلى حدوث شيء ما في البيئة الخارجية المحيطة بالإنسان... أما الانتباه فيبدأ دوره عند وصول هذا الكم الهائل من المثيرات إلى الدماغ ليقرر الفرد أي المثيرات يهتم بها وأيها يهملها ولا يتعامل معها. والإدراك هي العملية الثالثة التي يبدأ عملها بعد الانتباه ليقرر الفرد بتحليل المثيرات القادمة وترميزها وتفسيرها في ذاكرة الفرد حتى تظهر الاستجابة".¹

إذا اتضح ذلك، أمكن القول: إن موضوع الإدراك يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالعمليات المعرفية الأخرى، إلا أن دراسته كموضوع مستقل، تهدف إلى التوصل إلى بيان صلة الحواس بعملية الإدراك، وصلتها

¹ (العتوم: علم النفس المعرفي. ص: ٦٧، ٦٨.

كذلك بموضوع التربية والتعليم، من خلال التعرف إلى سبل الإستفادة منها، لتحقيق عملية إدراك أكبر، مع التسليم بآليات العمليات الأخرى في تحقق المعرفة. والتسليم كذلك بطرق المعرفة الأخرى المتمثلة في الوحي والعقل وغيرهما.

المطلب الثاني

مفاهيم المعرفة

مفاهيم المعرفة في اللغة واصطلاح المفسرين وفي علم النفس المعرفي.

ترتبط المعرفة بالإدراك الحسي، لما تحتلّه الحواس من مكانة مهمة في تغذية الدماغ بالمادة المعرفية، فإن المدركات الحسية التي تُكتسب باستمرار تكوّن ذخيرة معرفية، ومرجعية تؤسس البناء المعرفي لدى الإنسان. وهذا البناء يشكل مرجعية لها ضرورة بالغة، مُضافة للمعارف المكتسبة من مصادر المعرفة الأخرى. ومن هنا تمّ إلقاء الضوء على موضوع المعرفة، للكشف عن المفهوم والصلة. أولاً: المعرفة في اللغة:

مادة عَرَفَ في لسان العرب جاءت بمعنى العرفان، وهو العلم. والتعريف هو الإعلام.

ومعارف الأرض: أوجهها وما عُرِفَ منها. والمعروف ضد المنكر، والعرف ضد النكر.¹

هذه التعريفات تشير بمجملها إلى ما يكتسبه الإنسان من علوم ومعارف، فالعرفان، وهو

العلم، والتعريف هو الإعلام. فيشير الأول إلى ما تم اكتسابه من العلم، ويشير الثاني إلى عملية

الاكتساب، بفعل فاعل في تقدم المعرفة. أما معارف الأرض التي تعني أوجهها، فهي الظاهر منها

الذي يمكن أن تناله الحواس، وتتمكن من إدراكه وتحقيق معرفته. والمعروف هو ما تم اكتسابه

وتحصيله من المعرفة، وثباته كعلم، يميّز الإنسان به المعروف عن غيره مما يُنكره. وتتصل المعرفة

بالإدراك في كونها نتيجة تتحصّل بالإدراك الحسي وغيره. ولذا ارتبطت معانيها اللغوية بما يتأتى

للمدراك الحسية من معلومات تتأسس بها المعرفة.

¹ ابن منظور: لسان العرب: ٢٣٦/٩ - ٢٤١. يتصرف.

ثانياً: المعرفة في اصطلاح المفسرين:

ذكر الراغب الأصفهاني الجذر عَرَفَ بأنه المعرفة والعرفان، وأنه "إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره. وهو أخصّ من العلم".^١ وفي هذا التعريف إشارة إلى مفهوم: معرفة الله تعالى، لأنها تتمّ بتدبر آثاره دون إدراك ذاته. ولذا فإن المعرفة تستعمل في العلم القاصر، المتوصّل إليه بتفكير.

قال الراغب: "وأصله من عَرَفْتُ، أي أصبْتُ عَرَفَهُ، أي رائحته...".^٢ وبهذا، اجتمع المفهوم في معنيين: العلم القاصر، وأثر الرائحة. وتكمن الصلة بينهما في الأثر الذي يتحقق بوجود الرائحة، فوجود الرائحة في مكان ما، يُنبئ عن وجود سببها.^٣ فيُعرف السبب لوجود الرائحة. وصلته هذا المعنى بالعلم القاصر أن كثيراً من المعارف التي يكتسبها الإنسان، تبقى ناقصة حتى تظهر آثارها الدالة عليها. وكذلك بالنسبة للمعرفة المتحققة بسبب ظهور علامة على شيء ما، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَانِهِمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾^٤. أي تظهر لك

علامة المناق عن غيره من فحوى خطابه.

وفي قوله تعالى: ﴿تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ﴾^٥. قال الطبري:

"يقول: تبيّن في وجوههم ما ينكره أهل الإيمان بالله من تغيرها لسماعهم بالقرآن".^٦ والتبيّن هنا أثر

^١ (الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن. ص: ٣٧٠.

^٢ (المرجع السابق: ص: ٣٧٠. بتصريف.

^٣ (كان تكون هناك رائحة جميلة، فيُعرف أنها رائحة ورد أو عطر تم رشه في مكان ما. أو تكون هناك رائحة دخان، فيُعرف أنها ناتجة عن إشعال نار، أو نشوء حريق. وما شابه ذلك.

^٤ (سورة محمد، آية: ٣٣.

^٥ (سورة الحج، من الآية: ٧٢.

^٦ (تفسير الطبري: ٢٠١/١٧.

يُعرف به حالهم. وجاء في "المفردات في غريب القرآن" في قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ

تُعَرِّفُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (٨٣).^١: "العارف في تعارف قوم هو

المختص بمعرفة الله، ومعرفة ملكوته، وحسن معاملته تعالى، يقال عرفه كذا... وقال في الجنة:

﴿عَرَفَهَا لَهُمْ﴾ (٦).^٢ أي طيها وزينها لهم، وقيل: عرفها لهم بأن وصفها لهم وشوقهم إليها

وهداهم".^٣

وهذه التعريفات تشير إلى أن المعرفة التي يكتسبها الإنسان، إنما يكتسبها بأثر معين: إما بالتعلم، وإما بالوحي، وإما بالحدس والإلهام، وإما أن تكون على شكل ذخيرة معرفية، تكوّنت لديه نتيجة للخبرات السابقة التي اكتسبها بإحدى أو بمجموع المصادر المذكورة.

ثالثاً: المعرفة في علم النفس المعرفي:

فرّق علماء النفس المعرفي بين مفهوم المعرفة لدى الفلاسفة -الذين تُعدّ توجّهاهم في قضايا المعرفة منطلقاً من منطلقات دراسات علم النفس المعرفي المعاصر- وبين مفهومها في علم النفس المعرفي، "فعلماء الفلسفة قد أشغلوا أنفسهم بطبيعة المعرفة ودرجات حقيقتها ومصادرها، بينما اهتم علماء النفس المعرفي بالمعرفة محورا للنشاط العقلي، ومادة للعقل البشري الذي ينطوي على عمليات الاكتساب والتخزين والاسترجاع. لذلك فإن المعرفة قابلة للتطور والاشتقاق والتوليد، كما هي قابلة للمعالجة والاحتفاظ والتخزين. كما أن المعرفة تتطلب عمليات عديدة حتى تصبح على شكل بُنى معرفية جاهزة للاستخدام؛ مثل عمليات الإحساس والانتباه والإدراك والتعريف والترميز والتحليل

^١ (سورة النحل، الآية: ٨٣).

^٢ (سورة محمد، الآية: ٦).

^٣ (الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ٣٣١/١).

والتفكير واللغة وغيرها".^١ وذلك يبين الفرق بين الجانب الذي اختصّ به علم النفس المعرفي وبين الجانب الفكري، سواء ما كان لدى قدماء الفلاسفة أم ما كان لدى المفكرين الإسلاميين؛ فإن المفكرين الإسلاميين درسوا موضوع المعرفة، لا من حيث الكيفية الحيوية والإدراكية للاكتساب، ولكن درسوه من حيث الآفاق والمصادر والطرق والتنوع المعرفية التي يقدمها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة للعقل والقلب والحس. وهو أمر جدير بالاهتمام فإن الاختلاف بين طبيعة الدراستين لا تقلل من شأن أحدهما، فكلاهما له أهميته البالغة في حياة الإنسان، وكل منهما يكمل الآخر في الوصول إلى القدرات المعرفية التي يتمتع بها الإنسان، والوسائل والمصادر التي تخدم تلك القدرات، وما هو نوع المعارف التي ينبغي أن يهتم الإنسان بها في مراحل حياته المختلفة. والوصول كذلك إلى حدود المعرفة ومعوقاتها.

وبالنظر إلى مفهوم المعرفة في علم النفس المعرفي اتضح أن هذا العلم لا يتعرّض لمفهوم المعرفة كمصطلح، ولكنه ينظر إلى قضية المعالجات المعرفية وأساليبها، من حيث اختلافات الأفراد في انتقاء المعارف وأساليب تحصيلها، وطرق استخدامها. فإن "المعالجات الإدراكية ليست فقط مجرد وظائف معرفية، مثل الانتباه والإدراك والتذكر، ولكنها البحث في طرق استخدام هذه الوظائف أو الاستراتيجيات المستخدمة في معالجة المعلومات".^٢ وهذا هو سبب اهتمام علماء النفس بتعريف المعالجات المعرفية وأساليبها عوضاً عن تعريف مصطلح المعرفة بعينه.

يقول الشرقاوي: "تعددت الأطر والتصورات النظرية التي اهتمت بتناول الأساليب المعرفية ودورها في تفسير كثير من مظاهر السلوك الإنساني في مجالاته المختلفة، ورغم هذا التعدد في التصورات والأطر النظرية، إلا أن هناك شبه اتفاق بين الباحثين والمهتمين بالأساليب المعرفية على أنها

^١ العتوم: علم النفس المعرفي. ٢٣، ٢٤.

^٢ شلبي: محمد أحمد. مقدمة في علم النفس المعرفي. ص: ١١٥.

تعتبر بمثابة تكوينات نفسية عبر الشخصية، لا تتحدد بجانب واحد من جوانبها، بل هي متضمنة في كثير من العمليات النفسية. كما أنها تساهم بقدر كبير في الفروق الفردية بين الأفراد بالنسبة لكثير من المتغيرات المعرفية الإدراكية والوجدانية، وتعتبر الأساليب المعرفية عن الطريقة الأكثر تفضيلاً لدى الفرد في تنظيم ما يمارسه من نشاط معرفي في أبعاده المختلفة. هذا بالإضافة إلى أنها تهتم بشكل هذا النشاط الممارس دون المحتوى، كما أنها تهتم بالطريقة التي يتناول بها الفرد المشكلات التي يتعرض لها في العالم المحيط به".¹

يُشير الشرقاوي بقوله السابق إلى أن الأساليب المعرفية تتضمن الذخيرة المعرفية التي يمتلكها الأفراد، وما يتأتى عن هذه الذخيرة من تأثير في نشاطاتهم المعرفية تجاه المدركات والخبرات والمعارف المكتسبة باستمرار. ويوضح هذا المعنى تعريف ميسيك الآتي.

"يعتبر ميسيك (Messick) (١٩٨٤م) أن الأساليب المعرفية بمثابة الفروق الفردية الثابتة

نسبياً بين الأفراد في طرق تنظيم المدركات والخبرات وتكوين وتناول المعلومات (Information

Processing)، أي أنها عبارة عن طرق متميزة أو عادات يمارسها الأفراد في تكوين وتناول

المعلومات، مع الأخذ في الاعتبار أنها ليست عادات بسيطة بمفهوم عملية التعلم التي تخضع لمبادئ

وقواعد الاكتساب والانطفاء. كما أنها ليست ردود أفعال خاصة بمواقف معينة دون أخرى، ولكنها

أساليب أداء شبه ثابتة لدى الأفراد تشبه بدرجة كبيرة العادات المصممة للتفكير، التي ترتب فيها

استجابات الأفراد في شكل تفصيلي. ويجدد "ميسيك" ثلاث خصائص رئيسة للأساليب المعرفية

تميزها عن القدرات العقلية والاستراتيجيات المعرفية على النحو التالي:

¹ (الشرقاوي: أنور محمد. علم النفس المعرفي المعاصر. ص: ٢٣١).

١. إن الأساليب المعرفية تشير إلى الفروق الفردية بين الأفراد في الإدراك والتذكر والتفكير وحل المشكلات وتكوين وتناول المعلومات.

٢. إن الأساليب المعرفية تشير إلى الفروق الفردية في البنى المعرفية، أي أنها تعتبر بمثابة النظام المعرفي المميز للفرد في تفسيره وإدراكه للعالم المحيط به، وخاصة ما يرتبط بالجانب المعرفي.

٣. إن الأساليب المعرفية تمثل تفضيلات الفرد المعرفية، بمعنى أنها تمثل أشكال الأداء المفضلة لديه والمميزة له في تصوره وإدراكه وتنظيمه للمثيرات التي يتعرض لها في البيئة المحيطة به.^١

ويتضح من هذا القول أن المعرفة التي يكتسبها الأفراد تتوقف على الأساليب المعرفية في تكوين وتناول المعلومات، يستوي في ذلك المعلومات والخبرات المنظمة وغيرها.

ويلتقي مفهوم الأساليب المعرفية ومفهوم المعرفة في الاصطلاح في كون الأخير يشير إلى أن المعرفة تتطلب فعلاً مقصوداً في تحصيلها تارة، وتتحصل من غير قصد تارة أخرى؛ اتضح ذلك في تعريف المعرفة والعرفان أنه إدراك الشيء بتفكير وتدبر لأثره، وفي تعريف أصل اللفظ أنه من عرّفْتُ: أي أصبْتُ عرْفَهُ، أي راثحته. وأصل اللفظ هذا يشير إلى المعرفة المتحصلة بغير قصد. وأن الأساليب المعرفية تشتمل على مفهوم النوعين معاً، فهي ترتبط بقدرات الأفراد في الإدراك والتذكر والتفكير... وترتبط أيضاً بالنظام المعرفي الخاص للأفراد، في تفسير وإدراك العالم من حولهم، وما يحكم ذلك النظام من طرق مختلفة في اكتساب المعرفة، وحجم تأثيرها في تعاملهم مع المدركات الجديدة.

^١ (الشرقاوي. علم النفس المعرفي المعاصر، ص: ٢٣٣.

المطلب الثالث

مفاهيم الحواس

مفاهيم الحواس في اللغة والاصطلاح وفي علم النفس المعرفي.

تعدُّ الحواس الإنسانية مصدراً مهماً من المصادر الحيوية التي يتزوّد الإنسان من خلالها بالمدرجات ثم بالمعارف المتنوّعة، ومن هنا جاءت العناية بدراسة مفاهيمها في اللغة والاصطلاح، وفي علم النفس المعرفي، فهو من العلوم التي عنيت بالنواحي الإدراكية التي تشكّل الحواس عنصراً مهماً فيها.

أولاً: الحواس في اللغة:

حواس الإنسان هي: "الطعم، والشم، والبصر، والسمع، واللمس".¹ والحواس منافذ للإدراك، وأدوات ذات صلة بالجهاز العصبي. تنتقل المادة المحسوسة عن طريقها إلى الدماغ عبر الأعضاء الخاصة بها إلى ذلك الجهاز.

ونظراً للمهمة التي تؤديها الحواس، اشتقّ منها لفظ الإحساس، وهو "الإدراك ببعض الحواس الخمس".² وفسّره ابن الأثير أنه "العلم بالحواس".³ وكذلك لفظ الحس وهو يطلق للتعبير عما يخسّج الإنسان من مشاعر وأحاسيس مختلفة. واستُخدمت في التلّفظ بما حين وقوع ما يحس الإنسان من أذى.

قال ابن قتيبة: "يطأ أحدكم الجمره فيقول: "حس": هذه كلمة يقولها الإنسان إذا أصابه الشيء غفلة فأمضه وأحرّقه، كالجمره تسقط على يده أو الجراحة تقع به".¹ وقيل: الحس الحسيسُ تسمعُهُ ولا تراه،

¹ (ابن منظور، لسان العرب: مادة (حسس).

² (الأندلسي: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، تفسير البحر المحيط: ٤٩٣/٢. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: ٤٢٢هـ. ٢٠٠١م. تحقيق: علي محمد معوض، وآخرون.

³ (ابن منظور: لسان العرب: مادة "حسس".

وكذلك الحساس. وتحسّسُ خيراً: سَلُّ واطْلُبُ.^٢ ولهذا اللفظ اشتقاقاً أخرى، شرحها المفسرون، وذكروا لها عدّة معانٍ، تم إيرادها فيما يلي.

ثانياً: الحواس في اصطلاح المفسرين:

وردت مشتقات هذا اللفظ في القرآن الكريم، وجاء بعضها بمفاهيم ذات صلة بوظائف الحواس، وبعضها بمعانٍ أخرى. ومن ذلك ما ذكره الدمشقي^٣ فيما يأتي:

١. بمعنى الرؤية، كما في قوله تعالى: ﴿... هَلْ يُحِيسُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ

رِكْزاً ۗ﴾ {مریم: ٩٨}. أي هل ترى منهم.

٢. بمعنى القتل، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ

بِأَذْنِهِ ۗ﴾ {آل عمران: ١٥٢}. أي تقتلونهم.

٣. بمعنى البحث: كما في قوله تعالى: ﴿يَنْبِقُ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ

وَأَخِيهِ ۗ﴾ {يوسف: ٧٨}.

^١ (ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري، غريب الحديث: ٥٣٦/١. مطبعة العلي، بغداد. الطبعة الأولى: ١٣٩٦هـ. تحقيق: عبد الله الجبوري.

^٢ (العباس: إسماعيل بن عباد. المحيط في اللغة: ٣٠٠/٢. عالم الكتب، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م. تحقيق: محمد حسن آل ياسين.

^٣ (الحنبلي، عمر بن علي الدمشقي. اللباب في علوم الكتاب: ٢٥٦/٥. دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

٤. بمعنى الصوت، كما في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا...﴾ (١٠٢) . {الأنبياء:

١٠٢}. أي صوتها.

وقيل عن الصوت غير المفهوم: حس، كما في قول الشاعر:

"وللِقِسِيِّ أَرْزَامِيلٌ وَغَمَّعَمَةٌ حِسُّ الْجَنُوبِ تَسُوقُ الْمَاءِ وَالْبَرْدَا".^١

والغماغم هي "الأصوات التي لم تُفهم، وحسّ الجنوب: صوتها".^٢

وقال الراغب: "الحواس: المشاعر الخمسة؛ يُقال: حَسَسْتُ وحَسَيْتُ وأحسستُ فأحسستُ... فأما:

حَسِسْتُ فنحو: علمتُ وفهمتُ، ولكن لا يُقال ذلك إلا فيما كان من جهة الحاسة... وأما أَحَسَسْتُهُ

فحقيقته: أدركته بحاستي، وأحسستُ مثله، لكن حُذفت إحدى السينين تخفيفاً نحو ظلتُ".^٣ وقال الأنباري

في قوله تعالى: ﴿هَلْ يُحِيسُ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾ (١٨) :^٤ "هل تجد".^٥

ومن خلال المفاهيم اللغوية والاصطلاحية للفظ الحواس ومشتقاته، اتضح الآتي:

١. إنها جاءت بمعنى الشيء المدرك نفسه، وهو الصوت. أفاد ذلك: معنى هذا اللفظ في اللغة: إن

الحس، أصله من الصوت الخفي. وكذلك ما جاء في شرح قول الشاعر: حسّ الجنوب: أي

صوتها. وهو في هذا المقام: الصوت غير المفهوم. وفي كل الأحوال هو صوت. ويُدرك بالسمع،

سواء فهم أم لم يفهم. لكون سماعه يُعدّ وظيفة لألة السمع وهي الأذن.

^١ (الأندلسي: علي النحوي اللغوي. كتاب المخصص: ٢٢٧/١).

^٢ (التيمي: أبو عبيدة معمر بن المثنى. مجاز القرآن: ٥٨/١. مكتبة الخانجي بمصر. دط. دت. عارضه بأصوله: محمد فؤاد سزكين).

^٣ (الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ١٣٠).

^٤ (سورة مريم، آية: ٩٨).

^٥ (الأنباري: أبو بكر محمد بن قاسم: الزاهر في معاني كلمات الناس: ٢٣١/١. مؤسسة الرسالة،

بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م. تحقيق: حاتم الضامن).

٢. جاءت بمعنى آلات الإدراك، أفاد ذلك قولهم: الإحساس: العلم بالحواس. وقولهم: الإدراك ببعض الحواس الخمس. وهي السمع والبصر... الخ.
٣. جاءت بمعنى المشاعر التي تحتاج الإنسان، أفاد ذلك قول ابن قتيبة.
٤. جاءت بمعنى الفعل المقصود لتحصيل المعرفة، أفاد ذلك معنى طلب البحث الوارد في قوله تعالى: (فتحسسوا من يوسف). وكما قيل: تحسسُ خبراً، بمعنى: سلّ واطلّب.

ثالثاً: الحواس في علم النفس المعرفي:

لم يُعنَ علم النفس المعرفي بتعريف مفهوم الحواس، بقدر ما عُني بالكشف عن وظائفها، وصلة تلك الوظائف بما بعدها من عمليات الترميز والتحليل والتفسير. ولذا تُعدّ وظائف الحواس مراحل أولية لنقل مادة المعرفة إلى مراكز أعلى في المخ. وهذا لا يقلل من أهميتها، فهي منافذ أولى لجميع المراحل اللاحقة. وقد أشار أندرسون إلى صلة وظائفها بتلك العمليات، فقال: "إن أجسامنا مزوّدة بحواس تكشف عن الرؤية والصوت والشّم والاتصال الجسمي، وبلايين الخلايا تعمل على تشغيل المعلومات الحسية وإرسال ما ترى منها إلى مراكز أعلى من المخ، وهذا النظام الهائل من تشغيل المعلومات يولّد مشكلة للمستويات الأعلى من المعرفة، ألا وهي: كيف نحدد ما نهتم به من بين كل المعلومات الحسية التي يتم تشغيلها...".¹

إن المشكلة التي ذكرها "أندرسون" تشكّل في حقيقة الأمر مجالاً يشير إلى قدرة الإنسان على إحكام السيطرة على ما ينبغي أن تدركه حواسه وما لا ينبغي لها. وإن كان الإنسان يكتسب في بعض الأحيان مدركات غير راغب فيها، إلا أن قضية الانتباه واستراتيجياته تتدخل في هذا التحصيل، وتضع له حدوداً. ويوجز علي وفائقة في حديثهما عن العمليات المتصلة بعمل الحواس، وصفها بـ الإدراك الحسي، ويُعرفها بأنه: "تفسير التنبهات الحسية التي تستقبلها أعضاء الحس المختلفة، وإضفاء معنى عليها، وفقاً لخبرة الفرد

¹ أندرسون: جون. علم النفس المعرفي وتطبيقاته: ص: ٦٥.

السابقة بهذه التنبيهات. وتبدأ عملية الإدراك الحسي بالإحساس بمصدر التنبيه من خلال الطاقة التي تسوثر على الخلايا الحسية التي تستقبل ذلك التنبيه، والتي تختلف من حاسة لأخرى. حيث تتأثر حاسة البصر بالموجات الضوئية، بينما تتأثر حاسة السمع بالموجات الصوتية، في حين تتأثر حاستا الشم والذوق بالمواد الكيميائية، وأخيراً تتأثر خلايا الجلد الحسية بالضغط وميكانيكية الحركة. ثم تقوم الخلايا الحسية بعد ذلك بتحويل هذه التنبيهات إلى نبضات عصبية يتم نقلها عن طريق الخلايا العصبية الخاصة بكل حاسة إلى المراكز العصبية الخاصة بها في القشرة المخية، حيث تتم فيها معالجتها إدراكياً وإضفاء معنى عليها".^١ وعليه فإن الإحساس هو الوظيفة الأولى للحواس، يأتي بعد ذلك دورها في نقل المحسوسات للذاكرة الحسية، ومنها إلى المراحل الأخرى. وحول هذا المفهوم قال العتوم: "...فإن الإحساس هو المصدر الأساسي الذي يغذي عمليات الإدراك، بالإضافة إلى المعلومات المستقاة من الخبرات السابقة. وأن وظيفة الحواس هي نقل جميع التغيرات التي تحدث في البيئة ليقوم الدماغ بتحليلها وفهمها وتخزينها ضمن خيرة الفرد أو الاستجابة لها عند الحاجة".^٢

إن هذا التفسير وما قبله يتعرّضان لموضوع تأثر الحواس بالمحسوسات، بينما يذكر باحث آخر تأثير وظائفها من حيث التوافق الذي يتم بين الإنسان وما حوله، جاء ذلك في حديث الشرقاوي عن الإحساس والإدراك، فقال:

"إن الإنسان كمخلوق مميز قادر على التوافق مع البيئة التي يعيش فيها، يحتاج دائماً إلى معرفة ما يحدث حوله من أحداث، وتؤدي عملية الإحساس دوراً مهماً في أنها تخبرنا عما يحدث حولنا خارج أنفسنا، كما أن الإدراك يقوم بالدور الأساسي في معرفتنا عن ماهية هذه الأحداث وأين تكون وماذا تعمل. ولذلك

^١ أحمد: السيد علي سيد. ويدر: فائقة محمد. الإدراك الحسي، السمع والبصري: ص: ١٧. مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م.

^٢ العتوم: علم النفس المعرفي: ص: ٩٣.

نجد أن العلاقة بين الإحساس والإدراك علاقة وطيدة وعلى درجة كبيرة من الأهمية في معرفة وفهم كثير مما يحدث حولنا من أحداث وما يوجد من موضوعات. ومعنى آخر: تؤدي الإحساسات والإدراكات التي تصدر عنا دوراً مهماً في ربطنا بالعالم المحيط بنا بما يسمح لنا أن نكون صوراً مماثلة لحقيقة هذا العالم تمكننا من التوافق معه".¹ بمعنى أن الحواس لدى الإنسان تعمل على تكوين انطباعات مختلفة عن الأشياء من حوله، فتكون منها أساساً معرفية تُعد مرجعاً يتم به توافق الانطباع مع ما يتم تحصيله بالحواس في الظروف المتجددة.

ومن هنا يمكن القول: إن الحواس في علم النفس المعرفي لم تحظ بمفهوم اصطلاحى، ولكنها حظيت بمفهوم وظيفي، جاء في عدة تفصيلات حول مكونات الحواس وآلية انتقال المحسوسات، وكيفية العمل الوظيفي لمكونات الجهاز العصبي المتصلة بالدماغ، لتسير عملية الانتقال هذه عبر الذاكرة الحسية، ثم الذاكرة القصيرة - وتسمى الذاكرة العاملة - ثم الذاكرة الطويلة، ومنها إلى تكوين البنى المعرفية والتخزين. ومن ثم تتم عمليات التوافق مع المثيرات المستجدة، وإمكان التعرف عليها، واسترجاعها وقت الحاجة إليها.

ولما كانت دراسات علم النفس المعرفي مُنصبةً غالباً جهودها حول الإدراك السمعي والبصري، فأتضح بذلك أنهما الحاستان اللتان تتم عن طريقهما معظم العمليات الإدراكية. ويُشار إلى عملية الإدراك البصري منفردة بما تزيد نسبته عن: ٩٠%^٢ من مجموع المعلومات الواردة من العالم الخارجى. ولذا اقتصرت مباحث الدراسة الحالية على الكشف عن قضايا الإدراك السمعي والبصري على وجه

¹ (الشرقاوى: الإدراك في نماذج تكوين وتناول المعلومات ١ -٤. ص: ١٠. وانظر كتاب "علم النفس المعرفي المعاصر" للمؤلف نفسه. ص: ١١٤.

² (انظر: أبو المكارم، فؤاد: أسس الإدراك البصري للحركة. ص: ٢٥. مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

الخصوص، مما اشتملت عليه آيات الكتاب العزيز. ولم تغفل عن دراسة الآيات المتضمنة لموضوعات إدراك الحواس الأخرى، فورد شرحها في المطلب التالي.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

المطلب الرابع

حاسة اللمس و الشم والذوق في القرآن الكريم

ورد في الكتاب العزيز عدة آيات متضمنة معاني ومفردات اللمس والمس والذوق. وجاءت

هذه الآيات في الغالب بمعان مجازية، فمشتقات مادة: مسس، بلغ عدد ورودها: واحد وستون

موضعاً. ومشتقات مادة: لس بلغ عدد ورودها خمسة مواضع. أما مشتقات مادة: ذوق، فبلغ عدد

ورودها ثلاثة وستون موضعاً.^١ وهناك آية تضمنت دلالة حاسة الشم، وهي قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ

تَفْتَدُونِ ﴿١٤﴾﴾^٢. وفيما يأتي تم بيان ذلك.

أولاً: اللمس:

باستقراء الآيات المذكورة، اتضح أن الآيات التي اشتملت على مادة: مسس، حمل غالبها المعاني

الآتية:

١. الإصابة بالعذاب في الدنيا والآخرة. كقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي

الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾﴾^٣.

^١ انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. مادة: (مسس) و (لس) و (ذوق).

^٢ (سورة يوسف، آية: ٩٤).

^٣ (سورة النور، آية: ١٤).

٢. حصول الخير. كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۗ ﴾ (١١)

٣. الإصابة بالتعب والنصب. كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ ۗ ۝١٣٠ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ۗ ۝١٣١ ۚ ﴾

أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّ مَسَّهُ ۗ

كذالك زَيْنَ الْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ ٢.

٤. الجماع. كقوله تعالى: ﴿ لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا

لَهُنَّ فَرِيضَةٌ وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَّعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ

الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٦﴾ ٣.

٥. الأحوال التي تعترى الإنسان من خير وشر. كقوله تعالى: ﴿ وَإِنْ يَمَسَّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ

فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسَّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ ١.

٦. الابتلاء. كقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَكُم مِّن نِّعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ تَعَرُّوْنَ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ قَالَ لِي

يَجْتَرُونَ ﴿٥٣﴾ ١.

١ (سورة المعارج، آية: ٢١.

٢ (سورة يونس، آية: ١٢.

٣ (سورة البقرة، آية: ٢٣٦.

٤ (سورة الأنعام، آية: ١٧.

٧. لحوق الكبر. كقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فِيمَا

تُبَشِّرُونَ ﴿٥٤﴾ ٢

٨. الإصابة بضرّ الشيطان. كقوله تعالى: ﴿ وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ

الشَّيْطَانُ بِضُرٍّ مُّضْمِرٍ وَعَذَابٍ ٣ ﴿٤١﴾ ٣

ويلاحظ أن هذه المعاني لا تحتل معنى الملامسة الحسية، فالإصابة بالخير والضر والسرء والخير والابتلاء. كل ذلك يعني حالات تعترى حياة الإنسان بوجوه متعددة، كالفقر، والمرض، والضعف. أو خلاف ذلك كالغنى والصحة والنشاط. ونحوه. مما لا يُطلق عليه مفهوم اللمس.

ويستثنى من ذلك آيتان من مادة: لمس، وآية واحدة من مادة: لمس. جاء الحديث عنها

فيما يلي:

أولاً: قوله تعالى: ﴿ إِن يَمَسُّكُمْ فَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ

نُذِرُوا لَهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ

الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ ٤

¹ (سورة النحل، آية: ٥٣.

² (سورة الحجر، آية: ٥٤.

³ (سورة ص، آية: ٤١.

⁴ (سورة آل عمران، آية: ١٤٠.

وصفت الآية الكريمة حالة المسلمين يوم أحد، وما أصابهم من جراح وآلام. وفيها خطاب المولى جل وعلا لهم ببيان حالهم وحال عدوهم. "قال قتادة: القرح: الجراح، وذلك يوم أحد؛ فشا في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ القتل والجراحة؛ فأخبرهم الله أن القوم قد أصابهم من ذلك مثل ما أصابكم".¹ وفي هذا الحادث دروس وعبر تتلقاها النفوس بما تعانيه من آلام نفسية وجسدية.

وتُفسَّر الإصابة بالجراح والآلام بأنها ما يصيب جلد الإنسان من مؤثرات تغيّر حالته الطبيعية. وهي حالة إدراكية تنتقل فيها مشاعر اختلاف حالة الجلد الطبيعية إلى الدماغ، وهي معلومات يستقبلها الدماغ، ليجعل الإنسان يتخذ موقفاً معيناً تجاهها. فإن الجلد ينقل "كميات هائلة من المعلومات، حيث يقيس اللمس والضغط والآلام والحرارة، ويزوّد المخ بمعلومات جارية عن تأثير كلّ محرّز على المخ".² وتعدد الإحساسات الجلدية، لتعطي الدماغ انطباعات مختلفة، ومنها الإحساس بالألم، وهو "أكثر الحواس حيوية من بين الحواس التي تدافع"³ عن الإنسان. فهو يُدرك من خلالها حاجته إلى نوع الإسعاف الذي يتطلبه ذلك الألم. وبالألم أيضاً تتحقق للإنسان إدراكات ذهنية ونفسية، حيث تكون في بعض الحالات دافعاً لتهديب السلوك وتنميته، وذلك ما وجدناه في الآية الكريمة، فإن مفهومها الذي يُهَوَّنُ المولى جل وعلا به على المؤمنين مصابهم، يتضمّن معانٍ أخرى، ذكرها المفسرون في حديثهم عما ينبغي أن يكون عليه المؤمنون جراء ما أصابهم من الجراح والآلام. ذكر البيضاوي غاية الخطاب في الآية الكريمة، فقال: "...ثم إنهم لم يضعفوا ولم يجبنوا فأنتم أولى بأن

¹ (تفسير ابن أبي زمنين: ٢٢٠/١. وهو عبد الله بن محمد بن أبي زمنين. مكتبة الفاروق الحديثة. مصر. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م.

² (فارد: بريان، جسم الإنسان: اللمس، الذوق، والرائحة. ص: ١٠.

³ (المرجع السابق، ص: ١٨.

لا تضعفوا فإنكم ترجون من الله ما لا يرجون".^١ وهذا يوضح أن الألم الحاصل لهم في الغزوة مسن دوافع الصبر والتحمل والاستمرار في المجاهدة والدفاع عن الحق، ويُستفاد من ذلك ضرورة تعويد المتعلمين على الصبر وتحمل الشدائد، وتعزيز مثابرتهم واستمراريتهم في طلب العلم والعمل به. وفي استمرارية طلب كل ما يرتقي بهم علماً وأدباً وفهماً.

ثانياً: قوله تعالى: ﴿ قَالَ فَأَذْهَبَ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسٌ وَإِنَّ لَكَ

مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ، وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُْحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ

فِي الْيَمِّ نَسْفًا ۝٩٧﴾^٢

تذكر الآية الكريمة حالة، حلّ بها عذاب مُعَجَّل، فجاء من جهة إدراك الحس باللمس. كما ذهب بعض المفسرين، والمذكور في الآية هو السامريّ، الذي عصى سيدنا موسى عليه السلام، وخالف أمره، وأضلّ بني إسرائيل ليحتمعوا عليه ويتبعوه. وقد فسّرت كلمة (لا مساس) بأن الله تعالى جعل "حظّه في حياته أن يقول: لا مساس، أي سلبه الله الأُنس الذي في طبع الإنسان فعوضه به هوساً ووسواساً وتوَحُّشاً، فأصبح متباعداً عن مخالطة الناس، عائشاً وحده، لا يترك أحداً يقترب منه، فإذا لقيه إنسان قال له: لا مساس، يخشى أن يمسه، أي لا تمسني ولا أمسك".^٣ وقال الألووسي: "وذلك أنه تعالى رماه بداء عقام، لا يكاد يمس أحداً أو يمسه أحد، كائناً من كان إلا حُمّ من ساعته

^١ (تفسير البيضاوي: ٩٦/١.

^٢ (سورة طه، آية: ٩٧.

^٣ (الألووسي: التحرير والتوير: ١٧٥/١٦. مؤسسة التاريخ، بيروت. لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ،

حمى شديدة، فتحامى الناس وتحاموه، وكان يصيح بأقصى صوته: لا مساس، وحرّم عليهم ملاقاته ومكالمته ومؤاكلته ومبايعته وغير ذلك..."^١.

ويتضح من ذلك أن الإدراك الحسي باللمس، تتحقق عنه مدركات إيجابية، كما تتحقق عنه مدركات سلبية، فالإنسان يوظف حاسة اللمس لتحقيق له منافع كثيرة، ولكن إذا أصبحت هذه الحاسة، مصدراً من مصادر الوباء والمعاناة، فتتحوّل وظيفتها للجانب المقابل لما خلقت له. وفي ذلك دلالة على أن التربية الإنسانية بمقدورها أن تستخدم الجانبين في التربية. ومن هذا المنطلق شرّعت وجوه العقاب بالضرب والرحم والقطع، كقطع يد السارق، ونحو ذلك. وقد أفادت أساليب التربية والتعليم في السابق من هذا الأسلوب في تهذيب خلق الطلاب، ووجه المربّون قضية الضرب توجيهاً نافعاً، فاشتروا أن لا يكون الضرب مبرّحاً، أو ضاراً بالمعلم.

وفي الوقت نفسه استُخدم أسلوب التعلم باللمس في تعليم الطلاب في المراحل التأسيسية، ما يتعلّق بمدركات اللمس، من التعرّف على الأسطح الخشنة والمساء والحارة والباردة ونحو ذلك. مما يفيد أهمية الاستفادة من الإدراك باللمس.

ثالثاً: وردت أربع آيات تضمنت مشتقات مادة: لمس. واحتملت المعاني التالية:

١. الطلب. كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنْفِقَاتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا انظُرُونَا نَقْتَسِبْ

مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ

وَوَظْهَرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾^٢.

^١ (روح المعاني: ٣٧٤/٩، دار الفكر، لبنان، دط، دت.

^٢ (سورة الحديد، آية: ١٣).

٢. اللمس باليد. وهو وارد في آيتين، اختلف في المعنى المراد بها، فاحتمل معنى اللمس باليد أو

الجسد، واحتمل معنى الجماع. كقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى

الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ

وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَىٰ أَوْ

عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً

فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ

عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾

وهناك آية أخرى تضمنت معنى اللمس باليد. وفيها مؤشر على أن الإنسان قادر على تحقيق

مزيد من القدرة على التعرف على المادة المدركة. يوضح ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ

كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالُوا لَئِن كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

فالآية الكريمة تصف القدرة الإدراكية التي يمتلكها الإنسان بواسطة اللمس، ولكنه يجحد بها

ويضنّ كيلا يرضخ للحق. فسّر الطبري المراد بذلك فقال: "...لو أنزلت عليك يا محمد الوحي الذي

أنزلته عليك مع رسولي في قرطاس يعاينونه ويمسونه بأيديهم وينظرون إليه ويقرعونه منه معلقا بين

¹ (سورة المائدة، آية: ٦.

² (سورة الأنعام، آية: ٧.

السماء والأرض بحقيقة ما تدعوهم إليه وصحة ما تأتيهم به من توحيدي وتنزيلي لقال الذين يعدلون بي غيري فيشر كون في توحيدي سواي إن هذا إلا سحر مبين...¹.

وفي هذا المعنى مؤشر على أن الاستزادة من التعرف على الشيء المدرك يمكن أن تتم بواسطة عملية اللمس، بإضافتها إلى ما يتم إدراكه بالبصر. ذكر الفخر الرازي ذلك في مضمون تفسيره الآية الكريمة فقال: "فإذا لمسوه بأيديهم فقد يقوى الإدراك البصري بالإدراك اللمسي، ويبلغ الغاية في الظهور والقوة"². وقال الألوسي: "إن ذكر الأيدي ليفيد أن اللمس كان بكتنا اليدين ولا يظهر وجه الافادة وتخصيص اللمس لأنه يتقدمه الابصار حيث لا مانع، ولأن التزوير لا يقع فيه فلا يمكنهم أن يقولوا إذا ترك العناد والتعنت: إنما سكرت أبصارنا"³. ومن هنا يتضح أن عملية الإدراك باللمس لها أثر في تطبيقات التعلم، حيث تساعد على تحقيق مزيد بيان للمادة التعليمية.

ثانياً: الذوق:

باستقراء مادة: ذوق، اتضح أن آيات الكتاب العزيز تضمنت مشتقات هذا اللفظ، وعنت به عدة مفاهيم ليس فيها ما يفيد الإحساس الذوقي الذي يتم باللسان، سوى قوله تعالى: ﴿فَدَلَّٰهُمَا بِمُرْوٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتَا لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾

أما بقية المفاهيم فتضمنت الآتي:

¹ (تفسير الطبري: ١٥٠/٧.

² (التفسير الكبير: ١٢/١٢٢.

³ (روح المعاني: ١٠٢/٧.

⁴ (سورة الأعراف، آية: ٢٢.

١. معاناة عاقبة الفعل. كقوله تعالى: ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ ١



٢. معاناة العذاب. كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَتَائِبِينَ سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَلِمًا

فَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلَتْهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا

حَكِيمًا ٥٦﴾ ٢

٣. معاناة الجزاء الدنيوي. كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً

مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا

اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ١١٢﴾ ٣

٤. معاناة الحرمان من البرد والشراب في النار. كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا

شَرَابًا ٢٤﴾ ٤

¹ (سورة الطلاق، آية: ٩.

² (سورة النساء، آية: ٥٦.

³ (سورة النحل، آية: ١١٢.

⁴ (سورة النبأ، آية: ٢٤.

٥. نفي الإصابة بالموت. كقوله تعالى: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ

الْأُولَىٰ وَوَقَّعَهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٥٦﴾^١

٦. معاناة حالة الجوع والخوف. كقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً

مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا

اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾^٢

٧. معاناة حالة الابتلاء بالخير والشر. كقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَذَقْتُهُ نِعْمَاءَ بَعْدَ ضِرَاءٍ

مَسَّتُهُ لِيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾^٣

٨. معاناة أحوال الحياة وأحوال الممات. كقوله تعالى: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ

وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾^٤

^١ (سورة الدخان، آية: ٥٦).

^٢ (سورة النحل، آية: ١١٢).

^٣ (سورة هود، آية: ١٠).

^٤ (سورة الإسراء، آية: ٧٥).

٩. معاناة ابتلاء الناس بعضهم ببعض. كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ

عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا وَيُزَيِّقَ بَعْضَكُمْ بِأَسْبَعْضٍ أَنْظُرْ

كَيْفَ نَصَرَفُ الْآيَاتِ لِعَالَمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ١.

هذا بالنسبة لمواضع مادة: ذوق، في الآيات الكريمة، أما قوله تعالى: (فلما ذاقا الشجرة) فليس فيه ما يفيد تحقق إدراك معين نتيجة ذلك الذوق من إحساس بطعم حلو أو مر أو نحو ذلك مما يدركه الإنسان بالأكل. وإنما تبين لهما بعد أكل الشجرة، عاقبة هذا الفعل، وهو ما نهاهما الله سبحانه وتعالى عنه. ومن هنا فلا تتصل دراسة هذه الآية بما يراد توضيحه من المدركات التي تتحصّل للإنسان بالحواس، وأثرها في عملية التعلم. إلا ما يشار إليه من معنى مجازي، وهو ضرورة التزام الأمر الإلهي، بطاعة الله تعالى فيما أمر والانتهاز عما نهى.

ثالثاً: الشم:

ذُكرت حاسة الشمّ في معرض كلام سيدنا يعقوب عليه السلام، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعَيْرُ قَالَتْ أَبُوهُمَ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ

تَفْنَدُونَ ﴿٩٤﴾ ٢.

وفي الآية دلالة على الإدراك المتحقق بحاسة الشم، فهو إدراك دالّ على معرفة ما، وهو ما أشار إليه الراغب الأصفهاني في تعريفه لفظ عرف، أنه معرفة الشيء بأثره. ٣ وما حدث لسيدنا

١ (سورة الأنعام، آية: ٦٥).

٢ (سورة يوسف، آية: ٩٤، ٩٥).

٣ (انظر ص: ٢٥)

يعقوب عليه السلام كان كرامة إلهية، فقد استطاع أن يُدرك حقيقة وجود سيدنا يوسف عليه السلام بما وجدته من ريحه من مسيرة ثمانية أيام.¹ أما قضية حاسة الشم لدى الناس جميعاً فهي محدودة بالمكان الذي يكون فيه الإنسان، فقد تأتيه الرياح برائحة معينة من مكان بعيد، كرائحة الحريق ونحوه. أو رائحة عطر انتشرت حوله في مكان ما. وهذا يدلُّ على القدرة الإدراكية لحاسة الشم وتأثيرها في حياة الإنسان، فالإنسان قادر على أن "يُميّز الكثير من الروائح... وللرائحة أهمية كبيرة في العلاقات الإنسانية؛ فالأم تعرف رائحة ابنها، والابن يعرف رائحة أمه".² كما أن الروائح لها أهمية في تعريف الإنسان بالنافع منها والضار، وذلك يساعده على الاستفادة مما ينفعه، وتفادي ما يضره منها. وهو ما يمكن أن يُستفاد منه في العمليات التعليمية الموجهة للأطفال على وجه الخصوص، لتعريفهم بأهمية التفريق بين النافع والضار، وأهمية اتخاذ موقف فاعل تجاهه، كي لا يتعرض الإنسان لما يضره فيجني عواقب وخيمة تعود عليه بأمراض ومشكلات صحية، ونحوها.

كما يُستفاد من تعريف الروائح في تصنيع أشياء كثيرة كالعطور، والزيوت وغيرها من المواد الأخرى المستخدمة في الآلات ومواد التعقيم ونحوها. وذلك له أهميته في قضايا التعلم، فهذه الجوانب تُقدّم للمتعلم في دروس يتعرّف عليها نظرياً، ويمكنه أن يزيد من معرفتها عملياً إذا أتى بها المعلم في نماذج، واستخدمها كوسائل تعليمية تعزّز التعلم النظري.

وإذا اتضح ذلك أمكن القول: إن حواس اللمس والذوق والشم، ووظائفها الإدراكية في القرآن الكريم، لم تُحظَ بما حظيت به حاسيتي السمع والبصر من توجيهات عامة للإدراك الحسي المتعلق بالنواحي التربوية والتعليمية. ولذا انصبّت جهود الدراسة الحالية في بيانهما وتصنيف موضوعاتهما في القرآن الكريم. ولذا فيجدلر إيراد نبذة حول ما تمايزت به الحاستان من عدة حيثيات، مما كشفت عنه

¹ (انظر تفسير الصنعاني: ٢/٣٢٩.

² (شواهين: خير أجهزة الإحساس عند الإنسان. ص: ٩٥.

بعض الدراسات القرآنية. يليه عرضٌ موجزٌ حول كيفية انتقال الحس السمعي والبصري إلى مراكزهما في الدماغ، مما جاء في الدراسات العلمية الحديثة. وذلك للتقدم لدراستها في الفصول والمباحث اللاحقة.

المبحث الثاني

مبادئ الإدراك الحسي في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: إدراك الذات الإنسانية.

المطلب الثاني: إدراك الكون.

المطلب الثالث: التمثيل للمعرفة المجردة بما يكتسب بالحواس.

المطلب الأول

إدراك الذات الإنسانية

أشارت بعض آيات الكتاب العزيز إلى ضرورة تأمل الذات الإنسانية، والتعرف إلى وجوه الإبداع فيها، عن طريق الإدراك السمعي والبصري، مما يُمكن إدراكه من تلك الذات. وإن كانت معرفة الذات لا تقتصر على ما تدركه تلك الحاستين، فالقرآن لم يقتصر إرشاده على ذلك فحسب، بل إلا أن الإدراك السمعي والبصري له اعتبار في القرآن الكريم بصفة لا يمكن التقليل منها، فهما المنافذ الأولى لاستقبال المدركات الحسية، وعن طريقهما تكتسب المعلومات التي يتم تحليلها وتفسيرها وترميزها، ثم تخزينها في الدماغ، ولولا هذه المنافذ لفقد الدماغ كثيراً من المعلومات التي تغذيه وتُثري البنى المعرفية فيه.

وقد استخدمت آيات الكتاب العزيز حاسة البصر -على وجه الخصوص- في التوجيه نحو إدراك الذات الإنسانية، وإدراك عجائب خلق الله تعالى الظاهرة منها. وفيما يأتي تمت دراسة عدد من تلك الآيات الكريمة.

أولاً: إدراك أعضاء الجسد ومظاهر نموه.

تُدرك أعضاء الجسد، ومكوناته الظاهرة، وجمال هيئته، واستواؤه، واختلاف مظاهر مراحل

نموه بما يمتلكه الإنسان من إدراك بصري. يؤخذ ذلك من بعض قوله تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا

تُبْصِرُونَ﴾^١ فقد ذكر الله تعالى الإبصار الحسي، وبيّن أنه المنفذ الأول للعقل والبصيرة، وهو

^١ (سورة الذاريات، آية: ٢١).

المطلع ابتداءً على ما يحتويه الجسد من مفاصل الأبدان والجوارح^١، فمن لم يبصر ذلك ولم يعرفه أوضاع حظه منه^٢.

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى: (وفي أنفسكم): "في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني، وبالألسن والنطق ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها. دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، وتأنيها لما خلقت له، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني..."^٣ فهذه النفس الإنسانية التي ذكرها المولى جل وعلا في الآية الكريمة، منها جانب يطلع عليه القلب ومنها جانب تطلع عليه الحواس فتستقبل كل معلومة تتأني لها مما تبصره وتلمسه ومما تستشعره من كل وظيفة تقوم بها لتأني بمنافع وفوائد ليس لها عد.

ولو تأملنا وظيفة السمع فقط، سنجد أنها "يتوقف عليها تكوين الإنسان العقلي والحسي، وتنمية مداركه وعلاقته بكل ما يحيط به في الكون"^٤. ذلك لأنها "تساعده على التكيف والتوافق مع البيئة المحيطة"^٥. وهذه حاجة ماسة يفتقر لها كل إنسان. وهي بذلك جزء يسير مما أشارت إليه الآية الكريمة. وليس ذلك فحسب، فإن البصر أيضاً قادر على تأمل مراحل انتقال الجسد من هيئة إلى هيئة ومن حال إلى حال، فالنطفة التي يُبدأ خلق الإنسان بها، ثم العلقة ثم المضغة ثم مراحل النمو في الرحم،

^١ (تفسير الطبري: ٢٠٤/٢٦. بتصريف.

^٢ (تفسير السلمي: ٢٧٤/٢. بتصريف يسير.

^٣ (الزمخشري: محمود بن عمر الخوارزمي: الكشاف: ٤٠٣/٤. دار إحياء التراث العربي، بيروت. دت. تحقيق: عبد الرزاق المهدي.

^٤ (الصيفي: علاء. السمع في الأطفال: ص: ٧. مطبعة نهضة مصر، القاهرة. دط. ١٩٩٠م.

^٥ (علي وفائقة: الإدراك الحسي والسمعي والبصري: ص: ٢٥٣.

وما يلي ذلك من مراحل الطفولة ثم الشباب ثم الكهولة ثم الشيخوخة. تلك المراحل مُشاهدة بالبصر -يعينه على ذلك الأجهزة والوسائل الحديثة- مُدرّكة بالحس، ومعلومة بالعقل. وفي كل تلك المراحل تبقى الجوارح التي زُوِّد بها هي ذاتها، لا يستطيع الإنسان أن يزيد عليها جوارح أخرى. ولا يستطيع أن يغيّر سير نموّه على عكس سنة الله تعالى، فهو "يرى نفسه شاباً، ثم كهلاً، ثم شيخاً. وهو لم ينقل نفسه من حال الشباب والقوة إلى حال الشيخوخة والمهرم، ولا اختاره لنفسه، ولا في وسعه أن يزايل حال المشيب ويراجع قوة الشباب".¹ وهذه المعاني في حياة الإنسان كفيّلة بأن تقدّم له قناعة مهمة حول ضرورة وجوده، وهدف ذلك الوجود في حياته الدنيا. فهو مخلوق لكي يعمّر دنياه وآخرته كما يريد الخالق جل وعلا، وذلك يقتضي أن يُسخّر نفسه لتربية ذاته، وتربية الآخرين، وحسن توجيههم نحو تلك الغاية، وذلك الهدف الأسمى.

وفي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾²

² دلالة أخرى على أهمية النظر إلى تلك النطفة والتعرف على ماهيتها، لإدراك البون الشاسع بين قدرها وهي نطفة، وبين قدر ما توول إليه من خلقٍ قوم معتدل، له قدرات ومواهب، وله قدر عظيم ومكانة رفيعة. فرؤية الإنسان لها ولهوان شكلها وضعفها تؤكد له قدرة الله تعالى، الناطقة بلسان الحال: "أنا خلقناه من نطفة فسوّيناه خلقاً سوياً".³ وكم هو الفارق بين قيمة النطفة، وقيمة الخلق السويّ.

¹ (تفسير القرطبي: ٢٠٢/٢.

² (سورة يس، آية: ٧٧.

³ (تفسير الطبري: ٣٠/٢٣.

إن ما يدركه الإنسان من ذلك كله يجعله على بصيرة وهدى في التعامل مع نفسه، فهو يعي متطلبات جسده ونفسه، ويعي اختلاف تلك المتطلبات بحسب اختلاف مراحل عمره، فيتعامل مع كل مرحلة بما يناسبها:

١. فهو بحاجة إلى أن يبقى بجوار أمه في المرحلة المبكرة.

٢. وبحاجة إلى أن يتعد عنها قليلاً في المرحلة التالية.

٣. ويحتاج للتعلم والدراسة في المراحل التالية.

وفي كل مرحلة يجد نفسه متوجهاً لتلبية احتياجات تملئها تلك مرحلة. وهي مراحل توجه العمليات التربوية بحسب ما تتطلبه كل مرحلة، وبحسب ما تقتضيه من إعدادات تربوية وتعليمية مناسبة. ولا يخفى أن الإنسان تتطور لديه قدراته الإدراكية بتطور الزمان وتجدده، ويصل إلى مرحلة من تلك المراحل يعي فيها أهمية تطوير ذاته علمياً وحياتياً. فيفيد من قدرات الإدراك لديه، ويوظف حواسه -السمع والبصر على وجه الخصوص- في تنمية ذاته، وترقية قدراته.

ثانياً: حاجة الذات الإنسانية لحاسي السمع والبصر:

ويجد مؤشراً آخر في كتاب الله العزيز، في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ

وَأَبْصَرَكُمْ وَخَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ مِّنْ إِلَهِ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرُ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِمَن

هُمْ يَصِدُّونَ ﴿٤٦﴾

تُعرفنا الآية الكريمة بحجم الضرر الذي يتأتى للإنسان بسبب فقدان وظائف تلك الأعضاء.

فإن المفهوم الوارد في الآية، المتعلق بوظيفة السمع ووظيفة البصر، خصهما جميعاً بذكر حالة الحرمان.

¹ (سورة الأنعام، آية ٤٦).

ولا شك أن فقدان الحاستين معاً يجعل الإنسان عاجزاً عن تحقيق منافع كثيرة يمكن أن تتحقق لو ملك أحدهما على الأقل، ذلك لأن أعضاء الحس تُعَوِّض بعضها بعضاً، فإن "فقدان العضو الحسي البصري لدى فاقد البصر، قد يجعلهم أكثر حدة في السمع كجزء من عملية التعويض... فإن هذه الحالة، يكاد أن يمتاز بها جميع فاقد البصر عدا قليل منهم، إذ أن حاسة السمع عن طريق الأذنين يقومان بتعويض حاسة البصر، ويحدث هذا كجزء من عملية التكيف التي تتكون لدى الفرد الفاقداً للإبصار... وكلما كان فقدان الحاسة قديماً كلما أصبحت القدرة على التكيف لهذا الفقدان لدى الفرد أكبر. وهذا ما يفسر لنا لماذا فاقد البصر منذ الولادة أفضل من فاقد البصر في مراحل عمرية متقدمة".¹

إن هذا الواقع يكشف عن حجم الضرر الذي يلحق بالإنسان، وحجم الضعف الذي يعترى الذات الإنسانية لو فقدت المرء الحاستين معاً. ومن هنا يُلاحظ أن ما ألححت إليه الآية الكريمة -سمع أن السياق وارد للتمثيل على حال المعاندين المكابرين- مؤشر مهم في إدراك حاجات ومتطلبات الذات الإنسانية والضرورات التي لا تستغني عنها في جميع حالاتها. يقول الفخر الرازي: "اعلم أن المقصود من هذا الكلام ذكر ما يدل على وجود الصانع الحكيم المختار، وتقريره: أن أشرف أعضاء الإنسان هو السمع والبصر والقلب. فالأذن محلّ القوة السامعة، والعين محلّ القوة الباصرة، والقلب محلّ الحياة والعقل والعلم، فلما زالت هذه الصفات عن هذه الأعضاء اختلّ أمر الإنسان، وبطلت مصالحه في

¹ (رشيد: غالب محمد. الإدراك، والإدراك الحسي الفائق: ص: ١٧، ١٨. مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية. الأردن. الطبعة الأولى: دت.)

الدنيا وفي الدين".¹ ويقول ابن عاشور: "...واقصر عليهما من بين الحواس لأهما أهم، ولأن بهما إدراك دلائل الاعتقاد الحق...".²

وهذا يفيد بأن حاستي السمع والبصر يُكْمَل بعضهما بعضاً في عملية الإدراك، فيتحقق للإنسان بهما قدرات التعلم الذي يمكن أن يصاحبه القدرة على امتلاك مهارات سلوكية قد يعجز عن امتلاكها من فقد إحدى الحاستين.

ومن هنا يظهر أن إدراك الذات الإنسانية وحاجاتها تتجلى لكل إنسان بما أوتيته من قدرات السمع والبصر، وتتجلى كذلك لدى من فقدهما أو فقد أحدهما، فيدرك بذلك الفقد مدى الحاجة إليهما. ويؤكد ذلك الدور الذي تقوم به حاستا السمع والبصر، حيث تُساعد على تسهيل قدرات التعلم. وتقدم لمن ملكهما سبل تعليم أيسر، كما هو ملحوظ في أساليب التعلم المختلفة، كالتعلم الذاتي -الذي يعتمد على حاسة البصر على وجه الخصوص. والتعلم التعاوني الذي يُستعان فيه بحاسة السمع بدرجة كبيرة، حيث يتم تبادل المعلومات بين الطلبة.

ثالثاً: اكتمال المنفعة بكمال السمع والبصر.

قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ

السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْعِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾

تضمن هذه الآية تقريراً آخر للسمع والبصر، فبينما أشارت الآية السابقة إلى الضرر المتحقق بفقدان الحاستين، قرّرت هذه الآية الإنعام بهاتين الحاستين، لأهما من مستلزمات الذات الإنسانية؛

¹ (الرازي: التفسير الكبير: ١٢/١٨٧).

² (ابن عاشور: محمد الطاهر. التحرير والتشوير: ١٤/٢٣٢. دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس. دط. ١٩٩٧م.

³ (سورة النحل، آية: ٧٨).

فإنها تخاطب الإنسان لتقرر له أن الله تعالى: "جعل لكم السمع الذي تسمعون به الأصوات، فيفقه بعضكم عن بعض ما تتحاورون به بينكم، والأبصار التي تبصرون بها الأشخاص فتعارفون بها، وتميزون بها بعضاً عن بعض، والأفئدة... التي تعرفون بها الأشياء فتحفظونها وتفكرون فتفقهون بها..."¹ وفي الوقت نفسه حوت الآية الكريمة ذكر حالين من أحوال الإنسان، هما: الجهل الذي يولد به الإنسان، والوسائل التي تعينه على التقليل من ذلك الجهل شيئاً فشيئاً، وتبلغ به ما يشاء الله تعالى له من العلوم والمعارف.

وإذا خصصنا ميزة حاسي السمع والبصر بالذكر في هذا الموضع، فإنهما وسيلتا التعلم والاستدلال والترقي في العلم، ومن المعلوم بالضرورة أن منزلة الإنسان تزداد وترفع بما يمتلكه من علم وفهم. وهذا يقودنا للنظر فيما توصل إليه الباحثون في مجال تدريس اللغة - كمثال على منافع الحاسيتين-. يقول سعود السبيعي: "ينظر الباحثون في تدريس اللغة إلى الفهم الاستماعي، بوصفه معتمداً اعتماداً كاملاً على حاسة السمع، وأما المعلومات البصرية فينظر إليها كأداة مساعدة للمعلومات السمعية، وليس جزءاً لا يتفصل عنها. إضافة لهذا ترى نظرية إدراك الكلام أنه توجد نظريتان تتعلقان بالبصر وعلاقته بالمعلومات السمعية: إما أن يكون البصر بمثابة جهاز مساند يُستخدم عندما تدهور الإشارات السمعية بشكل ما، وإما أن يكون البصر جزءاً مركزياً في إدراك الكلام تحت كل الظروف. والقرآن عندما يحصي نعم الله على البشر فإنه يستعرض دوماً حاسة السمع وحاسة البصر، وفقاً لهذا التلازم عندما يذكران معاً. علاوة على هذا فقد منح القرآن هاتين الحاسيتين أفضلية على ما عدهما من حواس"².

¹ (تفسير الطبري: ١٥٢/١٤.

² (www.nooran.org/0/12/120(3).htm السبيعي. مرجع سابق.

إن الاقتران بين السمع والبصر في الآيات، سواء ما كان منها في سياق ذكر الإنعام بهما، أم ما كان في سياق التحذير من سلبهما، لبيان أهميتهما. أم ما كان في سياق تشبيه من يملكهما بمن ليس كذلك - كالأعمى والأصم - أم ما كان في سياق آخر؛ في جميع تلك الحالات يرد التلازم في ذكرهما، وهو مؤشر واضح على التكامل الذي تحققه الحاستان معاً في عمليات الإدراك. ولا ضرورة للتعريج على ذكر من فقد واحدةً منهما، لأن الأصل العام والغالب في حياة البشر أنهم يمتلكون الحاستين معاً، إلا من ابتلاه الله تعالى. وخطاب القرآن الكريم موجّه في كثير من مواضعه إلى الأصل الغالب في حياة البشر، ولا يغض - في الوقت نفسه - من ذكر من هم على خلاف ذلك.

وذلك يدعو إلى القول: إن الاستفادة من حاستي السمع والبصر في تحقيق تكامل إدراكي في العملية التعليمية، له أهمية في تأسيس منهجية محددة تعمل على توظيف كل من الإدراك السمعي والبصري بأسلوب يكمل أحدهما الآخر، وهو أمر استعانت به الدراسات التربوية الحديثة. ومن ذلك دراسة: اتجاهات مهارات الاستذكار. وسيأتي الحديث عن كيفية تناولها هذا الأمر لاحقاً.

رابعاً: تسوية الخلق مُدركة بالحواس.

قال تعالى: ﴿ تُمْسَوْنَهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ

وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ ۝١

في هذه الآية الكريمة تقرير آخر، فالآية السابقة جمعت بين حالة الجهل التي يولد بها الإنسان وبين وسائل التعلم، وفيها إشارة إلى حاجة الإنسان للتعلم بالسمع والبصر والفؤاد. أما هذه الآية فمتضمنة ذكر الاستواء في الخلق: (ثم سواه) وذكر نفخ الروح: (ونفخ فيه من روحه) ثم ذكر

¹ (سورة السجدة، آية: ٩).

الإنعام بالسمع والأبصار والأفئدة. وفي هذا التلازم دلالة على التوافق بين المدركات التي تتأتى عن طريق السمع والبصر، والمدركات التي تتأتى عن طريق الأفئدة، وبين ما حواه صدر الآية؛ فالسمع والبصر في الآية الكريمة قادران على إدراك مظهر الاستواء واعتدال القامة في البدن. والأفئدة قادرة على تلمس آثار تلك النفخة العلوية في الروح والبدن والمشاعر والميول وغير ذلك.

وقد ذكر "ابن تيمية" من فوائد الحاستين ما يبين أهميتهما في هذا المقام، فقال: "إن من فقد شيئاً من هذه الأعضاء فإنه يفقد بفقده من العلم ما كان هو الواسطة فيه، فالأصم لا يعلم ما في الكلام من العلم، والضرب لا يدري ما يحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة".¹ ويلحظ في قوله هذا أن الشطر الأول ليس على إطلاقه، لأن المصابين بالصمم، لا يُعدمون العلم تماماً فمنهم من يتعلم بوسائل أخرى غير الكلام، كالتعليم بالإشارات ونحو ذلك. إلا إذا كان يقصد العلم الوارد عبر الكلام على وجه الخصوص أي ما تُعبر عنه نيرة الصوت من معانٍ. وهنا تجدر الإشارة إلى أن من فوائد السمع ما لا يمكن تعويضه بشيء آخر؛ فبالسمع "يحدد الإنسان أماكن الأشياء"² ومواقعها منه، سواء من حيث قربها أو بعدها عنه، أو من حيث وجهتها منه، سواء كانت جهة اليمين أو اليسار، أو للأمام أو الخلف، كما يستطيع الإنسان أيضاً من خلال حاسة السمع أن يميز بين الأصوات المختلفة ويحتمي نفسه من مصادرها الضارة مثل الحيوانات المفترسة والزواحف..."³ أما الشطر الثاني مسن قول ابن تيمية إن: الضرب لا يدري ما يحتوي عليه الأشخاص من الحكمة البالغة، ففيه اتفاق مع ما اتضح من التوافق بين صدر الآية وشطرها الثاني، في كون الأسماع والأبصار قادرة على تأمل استواء

¹ (ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين، أحمد بن عبد الحلیم. الفتاوى الكبرى: ٣٣٢/١. دار المعرفة، بيروت، دط. دت.

² (المراد بـ "أماكن الأشياء" هنا مكان وجهة الصوت الذي يصدر منهما.

³ (علي وفائقة: الإدراك الحسي السمعي والبصري: ص: ٢٥٢.

البدن وحسن هيئته، وما تحويه أعضاء البدن من قدرات كالالتصفيق والتصفيير والطرق، ونحو ذلك، مما يدركه السمع. وجميع ذلك صفات للذات الإنسانية.

إن إدراك عظمة خلق الله تعالى في تسوية الأبدان وجمال هيئتها وتكامل أداء أعضائها من الدلائل التي يُنتفع فيها بالإدراك السمعي والبصري على وجه الخصوص ابتداءً، ويتظافر وإياها الفؤاد في الاستدلال لتحقيق اليقين بالله، ذلك "لأن الاستدلال موقوف عليها"¹ ولذا نفى المولى جل وعلا قيمتها الفعلية عمّن لا ينتفع بها. وفي الآية الكريمة دلالة تربوية مهمة، فإن الوسائل التعليمية التي ذكرها القرآن الكريم، وهي السمع والبصر والفؤاد تبين المهمة العملية للحاستين، مضاف لهما هيمنة الفؤاد، وفي ذلك مؤشر على قضية الاستهداء بأحكام الفؤاد، من حيث الحكم على أهمية ما ينبغي أن يتم إدراكه، وما لا ينبغي له ذلك. وهي قضية ذات أهمية في عملية التنمية والتطوير الذاتي.

خامساً: السمع والبصر مُسخران لإدراك الشواهد من الذات الإنسانية والآفاق.

قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا

وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا

يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٦﴾

عابت الآية الكريمة على الذين ملكوا من "حواس الهداية ما لم يهتدوا به".² فلإن الإدراك

السمعي والبصري مسخران لإدراك الشواهد والاستدلال بها على قدرة الله تعالى، سواء كانت

¹ (الرازي: التفسير الكبير: ١٠٠/٢٣.

² (سورة الأحقاف، آية: ٢٦.

³ (الماوردي: علي بن محمد بن حبيب البصري. النكت والعيون، تفسير الماوردي: ٢٨٥/٥. دار الكتب العلمية، بيروت. دط. دت. تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم.

الدلائل في الذات الإنسانية أم فيما حولها من المشاهدات والمسموعات. وظهر من هذا المعنى أن كمال الذات الإنسانية، واهتدائها يتأني بدرجة كبيرة عما تمثله هذه الذات من حواس قادرة على تزويد العقل بحقائق شاهدة على الحق تبارك وتعالى. والعاقل من عقل عن الله تعالى مراده في هذه الحياة. وكفى بما في جسد الإنسان من آيات عظام يستدل بها على قدرة الله تعالى. والآية الكريمة تتضمن مؤشراً بالغ الأهمية في توجيه الإنسان إلى أنه يمتلك ذخيرة عظيمة من الذخائر التي يفيد منها طيلة حياته، فإن فاته اليوم شيء فينبغي أن لا يفوته مستقبلاً. فإن التمكين ونعمة السمع والبصر والفؤاد، كل ذلك من ذخائر الجسد والعقل الإنساني. فيها يتعلم ويتقدم، ويستدل على شواهد الهداية، ويتعرف على منابع التوفيق والسداد، وبها يستعين على بلوغ كماله الإنساني، وتربية ذاته ومجتمعه وأمته. وبها يبلغ الغاية الأسمى من خلقه، فهو مخلوق لله تعالى، وينبغي أن يستخر نفسه لله تعالى؛ عبادةً، وسعيًا، وإعمارًا، وسوى ذلك مما قُدِّر له أن يمتلك سلاحه، ويستمكن من توظيفه وإعماله.

ومن هنا تتضح الأهمية البالغة في تربية الإنسان وتوعيته إلى أهمية استخدام مدركاته السمعية والبصرية فيما يخدم عقيدته وحياته، وفيما يُحصّل به العلوم والمعارف المختلفة. كما تتضح أهمية استخدام هاتين الحاستين في التعمق في العلوم التي تخدم دين الإنسان ودنياه.

المطلب الثاني

إدراك الكون

وجه القرآن الكريم الإنسان تجاه الكون من حوله، لإطلاعهم على حقائق عظيمة ظاهرة للعيان، تأخذ بيده نحو تحقيق مجال أكبر للمدركات والمعارف الضرورية، حيث يتعلم الإنسان مسن معاينة الكون حوله "دقة النظام"^١ والتعبير عن غايات رفيعة يجعلها منهجاً في حياته، فـ "كلما تعمق الإنسان في جزئيات هذا الكون وما اشتمل عليه أفاد علماً وازداد فضلاً"^٢. ذلك لأن "آيات الله في الآفاق وفي الأنفس دائمة الخطاب للإنسان بما يخاطبه به القرآن، فلا ينفك الإنسان أبداً من حديث إليه يوقظه من غفلة ويحفظه من نسيان"^٣. ولذا كانت معاينة الكون والتدبر في مخلوقاته وعجائب صنعها باباً عظيماً من الأبواب التي يستأنس بها الإنسان ويفيد منها غايات رفيعة.

وتؤدي وظيفة الإدراك السمعي والبصري مهمة كبيرة في تلقي المظاهر الكونية، وتعرّف غايات وجودها. وذلك يقتضي أن يتعرّف الإنسان على الأسلوب الذي يمكنه مسن تحقيق إدراك أفضل. فإن استخدام الإدراك السمعي والبصري لتحقيق إدراك المخلوقات الكونية يقتضي تنظيم المدركات، لأن الإنسان يتعرض إلى آلاف المثيرات من حوله، ويحتاج إلى تحديد ما هو الأهم، ليوّجه انتباهه إليه. ويؤكد ذلك ما أشار إليه علماء النفس أنه "عندما نركز طاقاتنا العقلية خلال أداء مهمة ما، فإن سلوكنا الذي يتبع ذلك يصبح تحت ضبطنا ووعينا الكامل لأننا نقرر شعورياً أي المثيرات

^١ (الراوي: محمد. القرآن والإنسان، ص: ١١. مطبوعات أخبار اليوم. قطاع الثقافة. دط. دت.

^٢ (المرجع السابق: ص: ١١.

^٣ (المرجع السابق، ص: ٢٢.

نركز عليها، وأي المثيرات هملها".^١ ويُقصد بالطاقات العقلية هنا عملية الانتباه وما يتعلق به من خصائص أخرى. ويعرفه بعضهم بأنه: "عملية تنطوي على خصائص معينة تميزه، أهمها: الاختيار، أو الانتقاء Focalization، والتركيز Concentration، والقصد، والاهتمام Conciousness، أو الميل لموضوع الانتباه".^٢

وقد ذكر القرآن الكريم كثيراً من المشاهد الكونية -داعياً لتوجيه الانتباه إليها، والتركيز في قضاياها- وجاء ذلك الذكر مُحدداً تلك المشاهد بأسمائها، إلا ما كان ضمن حرف الجنس، كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ

﴿٢٠﴾^٣ أو بلفظ عام كقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا

خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ إِلَيْهِمْ فِي آيٍ حَدِيثٍ بَعْدَهُ

يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾^٤. وهو إرشاد مرّن، ليتسنى للإنسان معاينة ما يرغب في معاينته من المخلوقات،

وفي الوقت نفسه، هو إرشاد محفّز، يأخذ بيد الإنسان نحو استشعار أهمية كل ما حوله من مخلوقات. وبالنسبة لما سمّاه القرآن الكريم من المشاهد الكونية فهو كثير، منه: مظهر الإحكام في بناء السماء، وما زُيّنت به، ومظهر الإحكام في بناء الأرض وتثبيتها. وكذلك ما حوته السماء والأرض

^١ (العتوم: علم النفس المعرفي: ص: ٦٨.

^٢ (الزيات: فتحي، الأسس المعرفية للتكوين العقلي وتجهيز المعلومات: ص: ٢٢٢. دار النشر للجامعات، القاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

^٣ (سورة لقمان، آية: ٢٠.

^٤ (سورة الأعراف، جزء آية: ١٨٥.

من عجائب المخلوقات وبديع صنعها وحسن تسخيرها. ومن ذلك أيضاً ذكر تدابير الصنع مثل: سَوِّقَ السَّحْبَ وتراكمها وإنزال المطر وظهور النبات وحيويته ثم انتقاله لمرحلة الانتهاء وهو الاصفرار والتَّيْس. وفيما يأتي تم إيراد أمثلة لذلك من آيات كتاب الله العزيز.

أولاً: إدراك مظاهر إحكام السماء والأرض وزينتهما ومافيهما من منافع:

قال تعالى: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ

فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضِ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ بِمِزَاجٍ ﴿٧﴾ ۝

إن النظر في الآيات الكريمة موجّه نحو السماء، ومُحدّد له ما ينبغي أن ينظر إليه فيها، فقوله تعالى: كيف، يفيد الدعوة للنظر إلى الكيفية، والكيفية المقصودة في الآية هي كيفية البنيان وكيفية الزينة وكيفية إحكام المظهر العام، وخلّوه من الشقوق. وكذلك كيفية مدّ الأرض وإلقاء الرواسي وإنبات النبات.

إن الناظر إلى ما دعت إليه الآيات الكريمة، يرى سماءً محمولةً دون عُمْد، ويرى زينةً بالكواكب السيارة، منها الشمس ومنها القمر ومنها النجوم، ويرى صفاءً لا يعتره خلل أو تشقق أو صدوع. ويرى كذلك أرضاً شاسعة الأرجاء، مبسوطةً ممتدة، وإذا تنقّل فيها رأى بحاراً وأمهراً وجبالاً وغير ذلك. والزينة المذكورة للسماء، فيها دلالة على قدرة عجيبة زوّدت لها الأعين، حيث أمكنها أن ترى مخلوقات تبعد عنها مئات السنين الضوئية^١. يقول ابن عاشور: "واقصر على آية تزيين

^١ (سورة ق، الآيات: ٦، ٧).

^٢ (السنين الضوئية: تعني المسافة وليست الزمن، وهي التي يقطعها الضوء في سنة كاملة، وتُعدّ في علم الفيزياء بأرقام يصعب على غير المتخصص فهمها. ويمكن التقريب لها بالقول إنها بقدر ٦٣٠٠٠ مرة مثل بعد الأرض عن الشمس. انظر: الطائبي: محمد باسل. علم الفلك والتقويم. ص:

٢٢٤. دار النفائس، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

السماء دون تفصيل ما في الكواكب المزينة بها من الآيات، لأن التزيين يشترك في إدراكه جميع الذين يشاهدونه، وللجمع بين الاستدلال والامتنان بنعمة من التمكين من مشاهدة المرائي الحسنة".¹ وهو تمكين مُحكم، لأن القرآن الكريم وفق بين هذا التمكين وبين معتقد المخاطبين، لتؤتي حِكْمُ الرؤية ثمارها البناء كما يشاؤها المولى جل وعلا "فالهداية التي جاء القرآن من أجلها تقتضي ألا يخاطب القرآن الناس عن الكون بما ينكرون، فيقوم ذلك حجاباً بينهم وبين قبول دعوته، وحاملاً على تكذيبه. وهي أيضاً تقتضي ألا يوافق الناس على باطل معتقداتهم الكونية في عصر نزول الوحي به فيقوم ذلك حائلاً دون قبول دعوته في عصور العلم المتقدمة، وتجنب هذين العائقين عن قبول هداية القرآن في الماضي والمستقبل هو من روائع إعجاز أسلوبه".²

وبالنظر إلى مفهوم السماء -على وجه الخصوص- فيما ذكره علماء الفيزياء فإن لها عدداً من المفاهيم المنطقية، التي استُمدت من مجموع المفاهيم الواردة في آيات الكتاب العزيز³، فالسماوات: "تدلّ في وجهها العام على الفضاء الممتد فوق سطح الأرض بمدى لا محدود. وفي وجه مخصوص تدل

¹ (الألوسي: التحرير والتنوير: ٢٦/٢٨٥).

² (حسب النبي: منصور محمد. الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث: ص: ٢٦. دار المعارف، القاهرة. دط. دت).

³ (ذكر الباحثان اللذان أشارا للمعاني المذكورة أعلاه، بعد استعراضهما الآيات التي تضمنت مفردة "السماء" أنه بعد "تخليص تلك الآيات التي جاءت بمعنى الفضاء الممتد فوق الأرض، وتخليص الآيات التي تدل فيها مفردة السماء على السحاب، بدلالة الماء. فقد وجدنا آيات أخرى يبدو فيها معنى السماء مبهماً بمقياس المعهود في لغة العرب وأفهامهم في عصر ظهور القرآن، وذلك أن خصائص غير معروفة بالبداية قد احتوتها آيات أخر من القرآن ولذلك اعتبرناها مبهمة..." وساق الباحث تلك الآيات في جدول ذكر فيه سبب الإبهام. ثم وضّح بعد ذلك أن الإبهام المذكور، اتضح فيما كشفت عنه الدراسات المعاصرة. وهو الذي ذكره في تعريف مفردة السماء أعلاه. انظر: الطائفي: محمد، والزعبي: محمد. "مفهوم السماء والسموات في القرآن وعلوم الفلك المعاصرة" محمد الطائفي ومحمد الزعبي. ص: ٢٣٠. وما بعدها. المجلة الأردنية للدراسات الإسلامية. المجلد الرابع، العدد: ٢. ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٨م. جامعة آل البيت.

على الغلاف الجوي الذي يحيط بالأرض، وفي وجه آخر مخصوص وجدناها تدل على السحاب،¹ وفي وجه أخرى تدل على الكون بمجمله عدا الأرض".² وهذه المعاني تمب الناظر مجالاً رحباً، ومتعة أكبر في انتقاء مفهوم السماء بين الاحتمالات المذكورة.

ويظهر في منهج الآية الكريمة، بما ورد فيها من مفردات مُشعرة بأهمية دراسة فضاءات الكون دراسة هادفة نافعة، لتحقيق التعرّف على ما فيه معرفة علمية صحيحة؛ فقولسه سبحانه وتعالى: (بينها، زينها، ما لها من فروع، مددناها) يُفهم منها ما تشير إليه من معانٍ تفوق معسنى الرؤية الجردة؛ فبيان السماء، وتزيينها بالكواكب، وإحكام صنعها. وكذا الأرض بامتدادها الشاسع. فهذه المعاني تتضمن دعوة قرآنية للمتدبر، ليحقق إدراكاً علمياً رصيناً، نابع عن بحوث علمية وإجراءات عملية في اكتشاف دلالات عظيم صنع الله تعالى وحسن تدبيره. يعينه على ذلك ما اخترعه من وسائل تكشف له الدقيق والعظيم من الكائنات.

وقد حققت الدراسات الفيزيائية والكونية بعضاً من ذلك، ولكنها لا تزال في قصور كبير عن بلوغ كثير من آمالها. ورغم ذلك يبقى فهم الكون وما يحتويه من مخلوقات عظيمة البناء مسن مسؤوليات العلماء المختصين، ومن مهامهم الضرورية التي ينبغي عليهم المواظبة على تحريها والتنقيب عن نجاياها وإبلاغها -بالضرورة- للعوام ولو بصورة مبسطة، لأجل امتثال تلك الدعوة العظيمة التي تضمنتها الآية الكريمة. ومن هنا تظهر ضرورة تضمين ذلك في مناهج التربية والتعليم، وربطه بدلالاته الإيمانية، والمعرفية، ليتكوّن لدى المتعلم أسس علمية ينطلق منها إلى بحوث ودراسات، يُنميها ويرتقي بها شيئاً فشيئاً.

¹ (هذا المفهوم لا يتفق وقوله تعالى: (...والسحاب المسخر بين السماء والأرض...). سورة البقرة. من الآية: ١٦٤.

² (المرجع السابق. ص: ٢٢٣.

ثانياً: إدراك الجليل والدقيق من الكون.

يظهر معنى إدراك الجليل والدقيق من الكون في قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي

مَلَكُوتِ السَّمٰوٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَن عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجْلُهُمْ

فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ: يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٥﴾^١.

هذه الآية تفسح مجالاً آخر للرؤية، لأنها تدعو للنظر في الملكوت كله: ملكوت السموات والأرض، وأيضاً ما خلق الله من شيء، أي "ما خلق فيهما من جليل ودقيق، مما ينطلق عليه اسم الشيء"^٢. وهو مجال رحب شامل، ولذلك دلالة تربوية، تتضح في الدعوة للنظر إلى إطار متكامل من المشاهد والمبصرات، ولا يخفى ما في هذا الإطار من تغذية وافرة من المدركات، ينتقي منها الإنسان ما يشاء من "أفراد الأكوان مما عزّ وهان"^٣. والجانب التربوي في ذلك يتجلى فيما تمليه هذه الحقيقة من إثبات لقدرات الإنسان التعليمية، حيث تتاح له مجالات لا تعدّ ولا تحصى من العلوم الكونية التي يتيسر له الاطلاع عليها والبحث فيها، بل والتعمق في دقائقها وفنونها.

إضافة إلى أن ملكوت السموات والأرض، ما جلّ منه وما هان من المخلوقات، مُيسر للإدراك البصري، لتحصيل العلوم النافعة، ولإستخدام ما يحتويه ذلك الملكوت من وسائل معينة على التربية والتعليم، ومعينة أيضاً على التوجيه والتركية، بما ينتظم به ملكوت السموات والأرض بأجمعه من سنن واهتداء بتسيير ورعاية من ربّ العزة جلّ وعلا.

^١ (سورة الأعراف، آية: ١٨٥).

^٢ (تفسير أبي السعود: ٢٩٩/٣).

^٣ (المرجع السابق: ٢٩٩/٣).

ثالثاً: إدراك مظاهر تسخير الكون.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوُا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ

نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ

مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾

في الآية الكريمة توجيه آخر، أضيف إليه مظهر أعظم من مظاهر المخلوقات نفسها؛ إنه مظهر التسخير، فإن المخلوقات السَّمْشَاهِدَةُ في السماء والأرض ليست للنظر والتأمل والاستمتاع والتذوق فحسب، ولكنها نُخِّلَتْ لتكون مسخَّرة للإنسان، وليحقق من خلال فهم هذا التسخير مزيداً من الإيمان بالله جلّ وعلا. وهذا التسخير ظاهر للعيان أيضاً، فالشمس -مثلاً- مُشَاهِدَةٌ حين الشروق وحين الغروب، ويُلمس نفعها بما يتأتى عنها من ضوء وإشعاع ودفء، وما يتأتى كذلك عنها من إضرار، حين تشتد درجات الحرارة وتقع في موضع، تكون أشعتها فيه مركزة على دماغ السائر دون أن يستظل عنها. وكذلك القمر؛ وما يتضمنه من منافع في بدايته وهو هلال، وفي تنقله من منزل إلى

منزل خلال الشهر إلى نهايته، قال تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ

﴿٣٩﴾^٢ وكذا غيرها من المخلوقات من نجوم وسحب وبحار وأهوار وأشجار وغيرها مما ذكره

المولى جلّ وعلا بقوله: (ما في السموات وما في الأرض). إضافة للنعم السابعة التي لا تُعدّ ولا

تحصى.

^١ (سورة لقمان، آية: ٢٠).

^٢ (سورة يس، آية: ٣٩).

قال الطبري في تفسير الآية: "ألم تروا أيها الناس أن الله سخّر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجم وسحاب وما في الأرض من دابة وشجر وماء وبحر وفلك وغير ذلك من المنافع، يجري ذلك كله لمنافعكم ومصالحكم، لغذائكم وأقواتكم وأرزاقكم وملاذكم، تتمتعون ببعض ذلك كله وتنتفعون بجميعة".¹ إن تأمل مظاهر التسخير تكشف عن سنة مستمرة في حياة البشر، وتكشف عن تكامل في تحقيق منافع يتوخاها الإنسان ويدرك ضرورتها. ولا تنفك حاجته عنها من جميع النواحي: الصحية والغذائية والعقلية والثقافية والنفسية والاجتماعية، وفي مقدمتها الناحية الدينية، إذا جعل تلك الرؤية مسخرة ومهيأة لإدراك مسارات التسخير في تلك الوفرة الوفرة من المراتب في دائرة الكون. ومن أمثلة التسخير، وتحقيق المنفعة ما تجلّى في وجوه الاستفادة من ضوء الشمس في حياة الإنسان؛ ففي حديثه عن تحويل الطاقة الشمسية إلى طاقة ميكانيكية، قال السبيعي: "يمكن الحصول على الطاقة الميكانيكية بطريقة غير مباشرة مروراً بالتحويل الكيماوي أو الكهربائي، وتوجد حالياً مختبرات لمثل هذه التحويلات على شكل سيارات أو طائرات تستخدم الطاقة الشمسية كوقود، وحدير بالذكر أن أمريكياً كان قد صمم في بداية هذا القرن نظاماً للريّ يعمل على الطاقة الشمسية. إن ماهية الطاقة الشمسية وكيفية استخدامها قد أصبحتا معروفتين، ولكن شيوع استخدامها سوف يتطلب على الأقل نصف قرن من الزمان، وعلينا ألا ننتظر ريثما يقوم الآخرون بمسئله المهمة، بل نسارع نحن المسلمين إلى استخدامها والانتفاع بها: فنحن المسلمين نقطن بلاداً أظهر ما فيها الشمس، والشمس أعظم منبع إلهي للطاقة على كوكب الأرض، وهي طاقة نظيفة بصورة مطلقة، ومسخرة وقليلة التكاليف بلا حدود".²

¹ < تفسير الطبري: ٧٧/٢١.

² < السبيعي: عدنان. سنريهم آياتنا في الأفاق. ص: ٥٣. دار القلم، دمشق، والدار الشامية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

فهذه الفائدة التي تحدث عنها الباحث تدعو إلى التفكير في فوائد مخلوقات أخرى يمكن تسخيرها والانتفاع بها. ولا شك أن تكرار التأمل والإدراك السمعي والبصري للمخلوقات، الذي يصاحبه فكراً يقظاً هادفاً نحو تحقيق غاية يولّد لدى الإنسان إمكانات الإبداع والاختراع، وإمكانات الاستفادة من جميع المستخرجات. وما نهض الغرب علمياً وتقنياً إلا بإعمال المدارك والفكر في الكائنات. يؤكد ذلك أشكال المخترعات التي قدموها للعالم؛ فيلاحظ جلياً أن كثيراً من المخترعات تشبه إلى حد كبير - في شكلها الخارجي - أشكال المخلوقات. ويمكن التمثيل على ذلك بالطائرة التي تشبه شكل الطير. وكذلك العائمات البحرية التي يتخذ مظهرها شكل بعض الأسماك البحرية. ونحو ذلك. مما يدل على أثر الإدراك البصري الفاحص في تحقيق ما يرقى بالإنسان ويقدم له خدمات أفضل.

رابعاً: مدركات محدّدة من الكون.

وجّهت آيات الكتاب العزيز حواس الإنسان نحو مخلوقات محدّدة من الكون، مستخّرة أيضاً لصالح البشر. فقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا

وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ

فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وفيها تم توجيه الرؤية لما يسير في البحر من الفلك، ولا يمنع ذلك من توجيهها نحو ما سبق ذكره في صدر الآية، وهو تسخير البحر، واحتواؤه لأرزاق كثيرة من الطعام والحلي والزينة وغير ذلك. وتسخير البحر ملحوظ في المنافع التي تتأتى عنه، وهي كثيرة إلى حد لا يحصى. وتكفي الإشارة

¹ (سورة النحل، آية: ١٤.

إلى منفعة السير والتنقل والتطهر واستخراج ما طاب من الطعام والزينة من الحلي كاللؤلؤ والمرجان، وغيره. وقد استفاد أهل السواحل من ذلك، فكانت معيشتهم قائمة على ما كانوا يستخرجونه من ذخائر البحر التي لا تنضب. أما الفلك وطريقة سيرها في البحر فهي من الأمور التي ينبغي ملاحظة عجائب تسخير البحر لها؛ فهي تسير فيه "مقبلة ومدبرة بريح واحد".¹

وقول المولى جل وعلا: (مواخر) فيه آية أخرى، فـ "المُخْرُ في كلام العرب: صوت هبوب الريح إذا اشتدَّ هبوبها، وهو في هذا الموضع صوت جري السفينة بالريح إذا عصفت وشقها الماء حينئذ بصدرها".² ومن يلحظ حجم البحر ويقارن حجم السفن فيه، فيرى حركة شق البحر هذه يعلم يقيناً ما معنى التسخير. ويوجهُ هذا المعنى توجيهاً تربوياً مهماً، فالإنسان قادر على امتلاك سبل الهيمنة على المخلوقات العظيمة. وعليه السعي والاجتهاد لتحقيق ذلك. ولذا فينبغي أن يغتنم هذا الواقع ويعمل على ترقية نفسه للتعرف على كيفية استخدامه الاستخدام الأمثل، وتسخيره بمعنى الكلمة كما يسره الله تعالى. وهو اعتبار يهب العملية التربوية والتعليمية مزيداً من القدرات التعليمية، حيث تتوافر وسائل التعليم، التي تمثل الطبيعة مصدراً غنياً لها. ويُستفاد من هذه الآية ما تضمنته من توجيه إلى إدراك مظهر عظيم من مظاهر التسخير ألا وهو البحر ومنافعه ووسائل تحصيلها.

¹ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٢١٦/٢.

² (تفسير الطبري: ٨٨/١٤.

خامساً: مميزات بعض المدركات الكونية.

تردُّ آيات أخرى، وترد فيها إشارة لما ينبغي أن ينصب الاهتمام به والانتباه إليه، كقوله

تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَوْنَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾^١.

توجه الآية الكريمة للتدقيق في نزول المطر، وما يليه من آثار. ويظهر فيها تحديد معين، وهو الألوان؛ فهو ملحوظ في وصف الثمر وما يليه من وصف للجبال. وهذا التوجيه فيه عونٌ للأبصار لتنتبه إلى هذا التمايز، فتدركه وهو في ذلك الحال من الاختلاف والتنوع، لتتدبر جماله وحكمته. ولايضاح هذا المعنى لا بد من الإشارة إلى أن إدراك الألوان لدى الإنسان يمثل قدرة خاصة تظهر في إمكان تمييز الألوان، وهي من خواص الإبصار، التي تعتمد على خصائص لونية ثلاث، هي: "اللون أو الصبغة. والإشباع، والنصوع أو اللمعان".^٢ فهذه الخصائص تساعد البصر على إدراك الألوان، والتمتع بتمايزه. ويرى قاسم حسين أن "إدراك اللون يشكل جانباً من سلوك الإنسان، وإن سلوك الإنسان يتحدد بثلاثة أبعاد، هي: البيئة، أو العالم الخارجي (بما في ذلك المجتمع) والعالم الفيزيولوجي الداخلي، والعالم السيكولوجي الداخلي الذي يتضمن متغيرات كثيرة من بينها الانفعالات...".^٣ وإن ما يتجلى في الآية الكريمة من ذكر عام لاختلاف الألوان، وما يليه من ذكر لألوان محددة: بيض، حمر، غرابيب سود.. يشير إلى مراعاة تلك الجوانب في الإنسان؛ فهي ألوان بيئية طبيعية، يرادف ذكرها، ذكر إنعام الله جل وعلا بأسبابها وإتمامها. مما يؤدي إلى إيجاد التأثير الانفعالي الإيجابي

^١ (سورة فاطر، آية: ٢٧).

^٢ (صالح: قاسم حسين. سيكولوجية إدراك اللون والشكل.. ص: ٢٩).

^٣ (المرجع السابق: ص: ٧٥).

للنفس الإنسانية تجاهها في الرؤية والتفاعل النفسي. وقد علّل الفخر الرازي سبب البدء بالاستفهام في الآية فقال: "إن إنزال الماء أقرب إلى النفع. والمنفعة فيه أظهر فإنه لا يخفى على أحد في الرؤية أن الماء منه حياة الأرض، فعظم دلالته بالاستفهام الذي للتقرير، لا يقال إلا في الشيء الظاهر جداً...".¹

وفي تلازم ذكر الثمر المختلف الألوان بعد ذكر الماء النازل من السماء دلالة تربوية؛ فالماء الواحد نتج عنه نشأة ثمار متعددة الفوائد، متنوعة الأصناف، مختلفة في ألوانها وأشكالها. إضافة إلى الظهور التام لهذه الكائنات - كما أشار الفخر الرازي في حديثه عن نزول المطر - وما يتأتى عن ذلك الظهور من اتضاح لأشكالها وألوانها وأحجامها. قال الفخر: "وقال مختلفاً كذلك في الجبال في نفسها دليل للقدرة والإرادة، لأن كون الجبال في بعض نواحي الأرض دون بعضها، والاختلاف الذي في هيئة الجبل فإن بعضها يكون أخفض وبعضها أرفع، دليل للقدرة والاختيار، ثم زاده بياناً وقال: جدد بيض، أي مع دلالتها بنفسها هي دالة باختلاف ألوانها، كما أن إخراج الثمرات في نفسها دلائل واختلاف ألوانها دلائل".²

إن ما أشار إليه الرازي من دلائل في تلك المخلوقات يضاف له العوامل التي تؤثر في إدراك الإنسان للون. فإن "صبغة اللون قابلة لأن يُطلق عليها أسماء مختلفة... والألوان تختلف من حيث نصوعها وتشبعها، وهي خصائص تؤثر في أحكامنا على اللون".³ إضافة إلى قابلية بعض الألوان للتعدد في الدرجة بحسب الزاوية والضوء المسلط عليها، وذلك يعني أن قدرات الإدراك لدى الإنسان تتسم بجموية تعينه على تحقيق بعض أهدافه التعليمية بوسائل متاحة له. وهذا يدعو للقول بإمكان توفير بيئة تعليمية مُيسّرة لقضايا التعلم، حيث يُستفاد من الألوان في عدة وجوه من العمليات التعليمية،

¹ (الرازي: التفسير الكبير: ١٨/٢٦.

² (المرجع السابق: ١٩/٢٦.

³ (صالح: سيكولوجية إدراك اللون والشكل، ص: ٧٨.

فُتستخدم كوسائل تعليمية مناسبة لموضوعات التعلم؛ كل موضوع وما يلائمه. وتُجدر الإشارة هنا إلى أن ميزة اختلاف اللون الواحد بين زاوية وأخرى استُخدمت كأداة تعليمية يُعرض من خلالها صورتان متباينتان في الشكل، قُدمت للأطفال في عدد من المواد التعليمية.

وإذا اتضح هذا أمكن القول: إن الألوان في الآية الكريمة لها دلالات تربوية، يمكن الاستفادة منها، والبحث في أسرارها. ويمكن توظيفها في بناء أساليب تعليمية تجعل الألوان وسيلة من وسائلها، وتقدم لذلك كفاءات وطرق تعليمية، يمكن اقتفاؤها في العمليات التعليمية. وقد استُخدمت بعض الألوان لدلالات معينة يفهمها الجميع، كالألوان الإشارات الضوئية المنظمة لسير السيارات. وعلى هذا المنوال يمكن أن تُنظم عمليات تعليمية أخرى، تعتمد الألوان في تشكيل رسائل معرفية يفهمها الناظر، ويهتدي بمعانيها.

سادساً: إدراك بعض تدابير الكون.

في الآية الكريمة الآتية، ورد ذكر تدبير إنزال المطر، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْجِبَالِ أَنْفَاطًا مِنْ حَلَاكِهِمْ يَوْمَ السَّيْحَةِ﴾

سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يُجْعَلُهُمْ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ حَتَاكِهِمْ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ

جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ

يَا الْأَبْصَارَ ﴿٤٣﴾

فهذه الآية وجهت النظر نحو المراحل التي تسبق نزول المطر، بدءاً بإزحاء السحب، وهو

السُّوق، فالله تعالى "يسوق سحاباً حيث يريد، ثم يؤلف بينه... ثم يجعل السحاب الذي يزجيه ويؤلف

¹ (سورة النور، آية: ٤٣).

بعضه إلى بعض ركائماً، يعني متراكماً بعضه على بعض".^١ وهذه المراحل تظهر للعيان بصورة مشاهدة فإن حركة السحب في السماء تدركها العين المجردة، وبإمكانها أن تلاحظ اجتماعها ومسيرها، وتلبّدها في مكان معين، وسقوط المطر منها. كما بإمكان الناظر أن يلاحظ حداً فاصلاً بين منطقة شاء الله تعالى لها السُّقيا، ومنطقة بجوارها لم يشأ لها ذلك. والإجزاء المذكور في الآية تسبقه مراحل تدبير أخرى، يدركها الباحث في ملكوت السموات والأرض، مما تبين له من إبداع الخلق على النحو المذكور.

وترى وجهة النظر العلمية أنّ تكوّن السحب يمر عبر دورة لها أثر في سقوط الأمطار، فالأرض "تنفرد" بين سائر الكواكب المعروفة - بتوافر الماء فيها، والماء بملاً ثلاثة أرباع سطح الأرض، وكميات الماء الهائلة التي تغمر المحيطات والبحار والأنهار والبحيرات، هي العامل الأساسي الذي تنتظم به دورة الأمطار العاملة على نمو النبات".^٢ وهذه الدورة يُدبّرُها المولى جل وعلا كما يشاء في توزيع الرزق على عباده بحكمته وتقديره.

والآية الكريمة تتضمن منهجاً تربوياً قيماً، حيث تعرض ذلك التدبير في نظام محكم، فتشير إلى إزجاء السحاب ثم جمعه ثم جعله متراكماً ثم إنزال المطر منه. وفي ذكر ذلك التدبير تتضح مظاهر التدرّج في الصُّنْع، وهي ظاهرة للعيان. ويستفاد منها في تدبير التدرج التعليمي، وهو من مباحث التربية الإسلامية، ويُقصد به "السير بالعملية التعليمية خطوة خطوة، فيكون الانتقال من الخطوة

^١ (تفسير الطبري: ١٥٣/١٨).

^٢ (السبيعي: سننهم آياتنا: ص: ٣٧).

الأولى إلى الخطوة التالية مدروساً ومناسباً لقدرات المتعلمين: العقلانية والجسمانية، والعمرية، ولا استعداداتهم الفطرية، وفي الوقت المناسب. إضافة إلى مستوى مادة التعلم كمّاً ونوعاً^١.

ويتخذ التدرج في العملية التربوية عدة صور، فمنها: التدرج في المباحث من المهم إلى الأهم. ومن البسيط إلى الأكثر تعقيداً، ومن المعلوم إلى المجهول، ومن المحسوس إلى المجرد.^٢ وهي درجات مهمة في العملية التعليمية يكتسب المتعلم بها مادة التعلم شيئاً فشيئاً بما يتلاءم وقدراته العقلية. ولا يخالف المنهج التربوي القرآني حاجة الإنسان لذلك فيعرض المدركات البصرية في الآية الكريمة، بمنطقية تُعين السُمخاطب على تعرّف تلك المراحل، وإدراك سنن الله تعالى في خلقه. فهو سبحانه وتعالى قادر على أن يقول للشيء كن فيكون. ولكن ذلك النظام الذي يسير فيه السحاب من مرحلة التكوّن إلى مرحلة سقوط المطر. يواكب حاجة الإنسان وقدراته في الاكتساب المعرفي على وجه العموم.

سابعاً: إدراك الإبداع في الكون.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِنَّ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيوْا ظِلَّاللَّهِ عَنِ الْيَمِينِ

وَالشَّمَالِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾^٣.

رأى المفسرون في الآية الكريمة سجود ظل الكائنات، ومثلوا عليها بـ "الشجر والبنيان والجبال والدواب وكل شيء"^٤. قال الطبري في قوله تعالى: (عن اليمين والشمال): "يرجع من

^١ (الخواالدة: ناصر أحمد. وعيد: يحيى إسماعيل. طرائق تدريس التربية الإسلامية وأساليبها وتطبيقاتها العملية، ص: ٧٦، ٧٧. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣م.

^٢ (المرجع السابق، ص: ٧٨- ٨٢.

^٣ (سورة النحل، آية: ٤٨.

^٤ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٢/٢٢٤.

موضع إلى موضع، فهو في أول النهار على حال ثم يتقلص ثم يعود إلى حال أخرى في آخر النهار، وكان جماعة من أهل التأويل يقولون: ...أما اليمين فأول النهار وأما الشمال فآخر النهار... عن الضحاك: يتفيؤوا ظلاله: قال سجد ظل المؤمن طوعاً وظل الكافر كرهاً^١. وفسرها الماوردي بعدة آراء فقال: "أحدها: يرجع ظلاله، لأن الفيء الرجوع، ولذلك كان اسماً للظل بعد الزوال لرجوعه. الثاني: معناه تميل ظلاله. قاله ابن عباس. الثالث: تدور ظلاله. قاله ابن قتيبة. الرابع: تتحول ظلاله. قاله مقاتل..."^٢.

وهذه الآراء -لطبيعة موضوعها- لم تذكر الصورة الجمالية والنفعية في هذا المشهد التصويري. فإن رؤية الظل في حد ذاته آية عظيمة، أشار لها الطبري بقوله: "فهو في أول النهار على حال ثم يتقلص ثم يعود إلى حال أخرى في آخر النهار"^٣. إن هذا المشهد في امتداده شيئاً فشيئاً ثم انحساره شيئاً فشيئاً، لينعدم قبل وقت الزوال بلحظات، ثم ليعود ممتداً نحو الجهة المقابلة للجهة التي انحسر منها، هو "واحد من الظواهر اليومية التي يراها الإنسان في كل بقعة من بقاع الأرض"^٤. ويرى فيه آية الله تعالى في قوله سبحانه: (ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً)^٥ أي "جعلناها علامة يستدل بها، بأحوالها على أحواله، وذلك لأن الظل يتبعها كما يتبع الدليل في الطريق من جهة أنه يزيد بها وينقص، ويمتد ويتقلص"^٦.

^١ (تفسير الطبري: ١١٤/١٤.

^٢ (الماوردي: النكت والعيون، تفسير الماوردي: ١٩٠/٣.

^٣ (تفسير الطبري: ١١٤/١٤.

^٤ (www.egyptarch.net/quranmiracles/shadowmove.htm وزير: يحيى. إعجاز

القرآن الكريم في وصف حركة الظلال. (الظل الساكن) المؤتمر العلمي الثامن للإعجاز العلمي في القرآن والسنة. تم الدخول للموقع بتاريخ: ٢٠٠٩/٢/٢٠.

^٥ (سورة الفرقان، آية: ٤٥.

^٦ (وزير: إعجاز القرآن والسنة في وصف حركة الظلال.

وهو مشهد في غاية الأهمية في تعبيره عن عدد من الحقائق، منها إبداع الخالق، ومنها انتظام الحركة وانضباطها في السير، ومنها التعبير عن البدء والنشاط والتقدم ثم التراجع والانهاء، وهي سنة الله تعالى في مخلوقاته. وهذه السنن ينبغي أن تستهدي العمليات التربوية والتعليمية بها، وتنهج لهجتها في تدبير أنظمتها ومسيرتها المستمرة.

وقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يكون الظل نافعاً في وقت يحتاجه الإنسان، ومن تلك المنفعة ما يتجلى في حقيقته، فهو "أمر متوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة، وهذا المتوسط هو أعدل من الطرفين، لأن الظلمة الخالصة يكرهاها الطبع، وينفر عنها الحس، والضوء الكامل لقوته يبهز الحس البصري، ويؤدي بالتسخين، ولذلك وُصفت الجنة به، بقوله: (وظل ممدود)¹." وإن المشهد الذي ذكرته الآية الكريمة، تشهده الأبصار فتستمتع بجماله وعجيب صنعه، وتهدأ به الأبدان وترتاح إليه النفوس.

وتتجلى في الآية الكريمة مظاهر الرحمة الربانية بالعباد؛ فإن الله سبحانه وتعالى يأمر عباده بالطاعة والخضوع، ويهبهم في الوقت نفسه ما تأنس به نفوسهم، وتتلطف به قلوبهم، وفي ذلك توجيه لكل مُربٍّ، ليجعل التربية تفاعلاً إيجابياً بينه وبين المتعلمين، وهو جانب مهم من جوانب التربية الإسلامية. فقد حافظ كبار المربين من الفقهاء والعلماء من أمة الإسلام على ذلك، ودونوه في مؤلفاتهم التربوية. ومن ذلك كتاب "أيها الولد" للغزالي، وكتاب "آداب المعلمين والمتعلمين" لمحمد بن سحنون. وكتاب "تعليم المتعلم طريق التعلم" للزرنوجي. وغيرها المؤلفات التي عُنت بهذا الجانب على وجه الخصوص. وقد ورد عن الغزالي في نُصحه المربين بالشفقة على المتعلمين، قوله: "...وأن يجريهم مجرى بنيه بأن يقصد إنقاذهم من نار الآخرة، وهو أهم من إنقاذ الوالدين ولدهما من نار

¹ (سورة الواقعة، من الآية: ٣٠).

² (وزير: إعجاز القرآن والسنة في وصف حركة الظلال).

الدنيا، ولذلك صار حق المعلم أعظم من حق الوالدين، فإن الوالد سبب الوجود في الحاضر والحياة
الغائية، والمعلم سبب الحياة الباقية".¹ وتبقى الحاجة مستمرة لهذه الصلة بين المعلم والمتعلم، لتؤدي
العملية التربوية ثمارها يانعة وضاءة.

ثامناً: إدراك مسيرة حياة بعض الأحياء.

من المظاهر التي وجهت الآيات إليها: عدداً من المراحل التي يترتب حدوثها على سقوط

المطر، ومسيرة تلك المراحل وما تنتهي إليه. يقول المولى جل وعلا: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ

مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَبًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١١﴾².

قال مقاتل بن سليمان في قوله تعالى: (فسلكه ينابيع): "جعله عيوناً وركابياً".³ وقال

السمرقندي: "أدخله في الأرض، يعني جارياً في الأرض... ويقال: جعل فيها أثماراً وعيوناً".⁴ وفي الآية

الكريمة يتجلى نظام آخر من نظم المنهج التربوي القرآني، حيث تُعرض مراحل الإنعام والخلق

والإبداع والإثماء. ومراحل تديرية أخرى تضمنتها مفردة واحدة: فمن يتعرف على كيفية حدوث

العيون وأنواعها يرى صورة قوله تعالى (فسلكه) تتجلى بحلة بديعة من التدبير؛ فعيون الماء لها

تقسيمات علمية بحسب طرق تكونها، فهناك: "واحات وعيون المناطق المنخفضة: وهي تنشأ من

¹ (الغزالي: إحياء علوم الدين؛ ٩٣/١، دار المعرفة، بيروت، دط، دت).

² (سورة الزمر، آية ٢١).

³ (تفسير مقاتل بن سليمان؛ ١٣٠/٣).

⁴ (السمرقندي: نصر بن محمد بن أحمد. تفسير السمرقندي، المسمى بحر العلوم؛ ١٧٣/٣، دار

الفكر، بيروت، دط، محمود مطرجي، دت).

تقاطع الماء الجوفي مع سطح الأرض في المناطق المنخفضة... وعيون تلامسية: وهي تنشأ من تلامس ذات مسامية ونفاذية عالية مع طبقات منفذة مثل الطفل والحجر المارلي. والعيون الصاعدة: حيث تتسرب وتنساب المياه الجوفية إلى سطح الأرض على طول الصدع... والعيون الكارستية: وهي عيون توجد في كهوف وتجاويف جيرية. وتتركز في الأماكن الكارستية¹ الناتجة عن ذوبان الصخور الجيرية². فهذه الأنواع مما تم تصنيفه علمياً لأنواع العيون، ويبقى التدبير في قوله تعالى: (فسلكه) خفي المعالم في كثير من حقائقه وأسراره.

وتذكر الآية ما يترتب على سقوط الأمطار وجريان الينابيع، حيث يخرج الزرع وينبت الثمر وترعرع العشب، ويكون يانعاً، تزهر خضرته وتبتهج، وتسرى الناظر إليها. ثم يقى على هذا النحو مدة من الزمان، بعد أن مرّ بمرحلتين: النمو، اليفاع والكمال. ثم يتراجع فيسري اللون الأصفر في الورق وهو اللون المعبر عن بدء اليبس، ثم تلي هذه المرحلة مرحلة النهاية، وهي التي سماها المولى جل وعلا: (حطاماً) فبعد اليبس يهلك النبات ويهوي كأن لم يكن. وهذه المرحلة تتفاوت فيها الزروع، فمنها ما يهلك سريعاً ومنها ما تطول مدته قليلاً، ومنها ما تطول لسنوات عديدة. ولا تختلف هذه السنّة عن سنّة حياة البشر. وكل ذلك يدركه الإنسان وينعم بمشاهدته فيمتع ناظره به، ويستلهم منه مدركات إيجابية. ففي هذه المعاني فوائد تربوية عظيمة النفع، فالإنسان الذي يُدرك هذه المسيرة، ويثق

¹ (الأماكن والعيون الكارستية تُنسب إلى منطقة في يوغوسلافيا. جاء في شرحها: "المياه المحمّلة بثاني أكسيد الكريون، تتخلل الصخور الجيرية على امتداد الفواصل والفوارق على السطح وداخل الأرض، وتذيبها، مكوّنة فيها فراغات، وممرات، وكهوف، وحفر بالوعية على السطح، مما يعطي المناطق الجيرية طابعاً تضاريسياً خاصاً، تسمى هذه التضاريس نسبة إلى منطقة جيرية في يوغوسلافيا: تضاريس الكارست". انظر: صوالحه: حكم عبد الجبار. "الجيولوجيا العامة".

ص: ١١٠. دار المسيرة، عمان، الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

² www.uae.gov.ue/uaeagricent وزارة الزراعة، بدولة الإمارات. ٢٠٠٩/٤/١٣م.

باستمراريتها كسنة من سنن الكون الثابتة، ويمتلك يقيناً راسخاً أن سنة حياته لا تختلف عن سنة هذه الأحياء، بإمكانه أن يحقق في حياته هدفاً إيمانياً صادقاً، وأهدافاً عملية يناضل من أجل بلوغها، ليتحقق له إعمار الأرض كما يريد المولى جل وعلا باستخلافه هذا الإنسان، وتكليفه بالعلم والعمل في دنياه. وذلك يتطلب أن يعلم الإنسان علماً مؤكداً أن وجوده في الحياة الدنيا ليس عبثاً وهواً، ولكنه لغايات وأهداف عليه أن يسعى جاهداً في الوصول إليها، قبل أن يبلغ من أحوال العمر، ما يشبه الأحوال التي قال عنها المولى جل وعلا: (... ثُمَّ يَهَيِّجُ فِتْرَتَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْمًا). وهذه الحقيقة تؤكد أهمية تضمين المناهج التربوية والتعليمية ما يغرس في المتعلم يقيناً بأهمية وجوده، وأهمية الأهداف المنوطة به، والغايات التي يجب أن ينصب اهتمامه بها باستمرار.

تاسعاً: مُدركات كونية باهرة.

وجّهت الآية الكريمة إلى قدرة الله تعالى في تمكين الإنسان من رؤية مظهر عظيم من المظاهر الكونية، ذلكم هو البرق الذي يظهر فجأة في السماء فيعلن عن بشائر المطر. قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾^١

إن هذا المشهد الذي يتجلى في الآية الكريمة (الخوف والطمع) حين رؤية البرق، يعزوه بعض المفسرين للأسباب التي تجعل المرء يخافه أو يطمع فيه. قال الطبري: "...خوفاً لكم إذا كنتم سافراً أن تمطروا فتأذوا به وطمعاً لكم إذا كنتم في إقامة أن تمطروا فتحبوا وتخصبوا"^٢. ومن بين الآراء التي

^١ (سورة الروم، آية: ٢٤).

^٢ (تفسير الطبري: ٣٢/٢١).

ذكرها الماوردي قوله: "خوفاً من الصواعق وطمعاً في الغيث... (وقوله): أن يكون البرق برقاً خلبساً لا بمطر وطمعاً أن يكون ممطراً".¹

إن ما يحدث في جو السماء من ظهور البرق، وما ينتاب الناظر إليه من خوف، وطمع -ولا خلاف في كون الخائف في حال والطامع في حال أخرى- فالناظر قد ينتابه الخوف والطمع في الوقت نفسه ولكن الأمل الذي يعيشه ابن آدم، يجعله مائلاً نحو الطمع في نزول المطر أكثر عما يعتره من الخوف منه، وهذا ما يوضحه الشطر الثاني من الآية الكريمة، فقوله سبحانه: (وينزل من السماء ماء) هو الذي يحدث في الغالب مع حدوث البرق، وهو ما تأمل فيه النفوس غالباً حين رؤية البرق. ولذا فإن الإدراك الملازم للبرق لدى الإنسان هو إدراك مصحوب بأمل في الخير. وذلك الأمل يتأتى جزء منه مما يتحقق بالتأمل فيه والتمتع بجمال ضوئه وانطلاقه الخاطف. ولا شك أن مسيرة البرق لها تدابير محددة، وقد كشفت عن أسبابها كثير من العلوم الكونية، وأصبح من الميسر أن تُربط هذه الأسباب بمسببها، وتُعرض بأسلوب علمي مُشوّق لتحصيلها، ولغرس المعتقد الصحيح بها. ولتحقيق مزيد من الإقبال عليها في نفوس أبناء المسلمين، ليكون لهم إقدام ونشاط في الاستزادة من مثل هذه العلوم، والكشف عن خباياها، ومن ثمّ التقدّم بما يقوي جانب القوة العلمية الإسلامية في نفوس المسلمين وغيرهم. وإن تضمن هذه الغايات ووسائلها في المحتوى التعليمي، وتفعيل التعامل معها عملياً من دواعي غرس محبة السير في هذا المجال لدى المتعلمين من أمة الإسلام.

¹ (الماوردي: النكت والعيون تفسير الماوردي: ٣٠٧/٤.

عاشراً: إدراك لتدرج الإحياء.

يظهر مفهوم التدرج في الإحياء، واختلاف مشهده من حال إلى حال في قوله تعالى:

﴿...وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ

كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥﴾

قيل في معنى قوله تعالى: (هامة): "ميتة"^١ و "يابسة، دراسة الآثار من النبات والزرع"^٢.

وقيل في معنى قوله تعالى: (اهتزت وربت): أنه "انتفاخ، إذا أخصبت وترخرفت بالنبات، كأنها بمنزلة

المختال في زيّه، وهي قبل ذلك كالدليل الكاسف البال في الأطمار الرثة"^٣.

يقابل كل حال منهما الآخر بالنفور والتميز التام، فالأول حال الموت والهوان، والثاني حال

الإضعاف بالنبات والتخايل بوفرة وافرة من الألوان والأصناف من الشجر والثمار، و "اختلاف طعوم

ما يظهر على الزرع والشجر"^٤.

وهذه الأحوال تعبر عن "استمرار العادات بظهور ذلك في أوقاتها المخصوصة"^٥. وإن كان

الأمر كذلك فإن المدارك مؤقتة بزمان لهذا وزمان لهذا، وهي تستعدّ وتشوق لاستقبال حال الجمال

والتخايل، الذي ينزل ضيفاً لفترة محددة ثم يرحل. قال أبو السعود: "والخطاب لكل أحد ممن يتبأى

^١ (سورة الحج، آية: ٥).

^٢ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٧٦/٢).

^٣ (تفسير الطبري: ١١٨/١٧).

^٤ (الزمخشري: الكشاف: ٢٠٦/٤).

^٥ (الرازي: التفسير الكبير: ١٧٩/٤).

^٦ (المرجع السابق: ١٧٩/٤).

منه الرؤية، وصيغة المضارع للدلالة على التجدد والاستمرار، وهي بصرية¹. وفي ذلك سنة يتعرفها الإنسان فيدرك ما في هذا الكون من الانضباط والإحكام. وفي رؤية ذلك التباين بين الحالين، والتجدد الذي يعتريهما باستمرار، تتحصّل للإنسان علوم تؤسس اليقين لديه بأنه مستخلف ليحقق استمرارية العمل والإنتاج، فإن ما ينتجه اليوم يبلى غداً، ويحتاج لإعادة بنائه وتأسيسه مرة ثانية، وهكذا دواليك. وهو ما ينبغي أن تحرص محتويات التربية والتعليم على غرسه في النفوس. وغرس ما يستطيع المتعلم أن يفرّق به بين ما يعترى أحوال الدنيا من الزوال والحاجة إلى التجديد باستمرار. وبين ما يبقى بناؤه ثابتاً لا يعتريه الخلل ولا الزوال، ألا وهو طاعة الله تعالى، وابتغاء رضوانه. وبعد، فهذه جملة من الآيات التي دلّت على إمكان إدراك الكون بواسطة الحواس، ويُلاحظ أنّها جعلت ذلك الإدراك من مهام الإبصار على وجه التخصيص، وسيأتي في آيات أخرى في الدراسة الحالية توجيهات تتعلق بالإدراك السمعي.

¹ (تفسير أبي السعود: ٩٥/٦.

المطلب الثالث

التمثيل للمعرفة المجردة بما يُكتسب بالحواس

تضمن الكتاب العزيز آيات وجهت المعرفة المجردة بأسلوب جعلت الحواس الإنسانية واسطة الحديث عن تلك المعرفة، لتكون تمثيلاً حياً لها، ولكي تُدرك وكأنها محسوسة لقارئ القرآن وسامعه، ذلك لأن الإنسان تدفعه نزعته الإنسانية المحبة للعلم والمعرفة إلى الكشف عن الأمور المغيبة عنه والاستدلال لها بما يمكن أن يستدل به من الشواهد والملاحظات، وهذه الحاجة وجدت تلبية لها في القرآن الكريم، في حثه على النظر والتدبر ومواصلة الكشف عن الأسرار وتحقيق المزيد من العلم والمعرفة، "فالقرآن لا يُعلم البشر تفاصيل العلوم كي لا يخاطبهم بما لا يعرفون فينكرون القرآن ويرفضون قبوله، ولكنه يأمرهم ليتوجهوا للبحث والاكتشاف ولطلب المزيد من المعرفة التي يتوصلون إليها بالأدلة الثابتة لديهم بما يهديهم إليه جهدهم ومشاهداتهم".^١

وتعددت الأساليب القرآنية في عرض هذا الأمر، فشملت ضرب الأمثال والدعوة إلى السير في الأرض والكشف عن حقائق تظهر للعيان بالملاحظة والتدبر. وكذلك بالتمثيل للغائب في صورة الحاضر، وتتبع بعض الموجودات لتحصيل علم بعض المغيبات. وبالنسبة لضرب الأمثال فإن الأمور التي تُضرب لها تصوير مثل "المعينة كالذي ينظر في المرآة فيبصر فيها وجهه ويبصر بها من خلفه لأن ذلك المثل قد عاينه ببصر الرأس، فإذا عاين هذا أدرك ذلك الذي غاب عنه بهذا فسكنت النفس وانقادت للقلب...".^٢

^١ (حسب النبي: الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث. ص: ٢٦.

^٢ (الشافعي: محمد. بصائر الجنان في علوم القرآن، ص: ٤٧. وعزاه إلى كتاب "الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي" تحقيق: علي محمد البجاوي، ٣/١، ٤. دار نهضة مصر.

وفيما يأتي تم إيراد نماذج من آيات الكتاب العزيز مما عنت به في هذا الموضوع:

أولاً: التمثيل لبدء الخلق، باستمرارية تجدد بدء المخلوقات.

يقول المولى جل وعسلا: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ

اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾ ^١.

يرى الفخر الرازي أن "الإنسان له مراتب في الإدراك؛ بعضهم يدرك شيئاً من غير تعليم وإقامة برهان له، وبعضهم لا يفهم إلا بإبانة، وبعضهم لا يفهمه أصلاً، فقال: إن كنتم لستم ممن القليل الأول فسيروا في الأرض، أي سيروا فكركم في الأرض وأجيلوا ذهنكم في الحوادث الخارجة عن أنفسكم لتعلموا بدء الخلق".^٢ ويُعَلِّل الرازي إيراد مفردة النظر في الآية الكريمة لبيان فرق المفهوم بينها وبين الرؤية، فيقول: "أما حصلت لكم الرؤية فانظروا في الأرض لتحصل لكم الرؤية"^٣. يريد بذلك أن رؤية بدء الخلق يفضي إليه النظر الموجه في الآية. وقال مقاتل بن سليمان: "...لأنهم يعلمون أن الله خلق الأشياء كلها"^٤. وهذه العبارة تضع إطاراً عاماً للمخلوقات جميعاً: ما بدأ خلقه في الأزمان السابقة، وما سيبدأ في هذا الزمان وما بعده. والبدء المقصود هنا يوضحه قول "الطبري" في تفسير الآية: "أو لم يروا كيف يستأنف الله خلق الأشياء؛ طفلاً صغيراً ثم غلاماً ثم يافعاً ثم رجلاً

^١ (سورة العنكبوت، آية: ٢٠.

^٢ (الرازي: التفسير الكبير: ٢٤/٢٥.

^٣ (المرجع السابق: ٢٤/٢٥.

^٤ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٥١٥/٢.

مجتمعاً ثم كهلاً^١ وقوله: "فانظروا كيف بدأ الله الأشياء، وكيف أنشأها وأحدثها وكما أوجدتها وأحدثها ابتداءً فلم يتعذر عليه إحداثها مبدئاً فكذلك لا يتعذر عليه إنشاؤها معيداً...".^٢

ويذكر السمعاني رأي من قال: إن بدء الخلق متمثل بإنشاء النهار وإعادته، بقوله: "ومنهم من قال: أو لم يروا كيف يبدئ الله الخلق بإنشاء النهار، ثم يعيد بإدخال الليل وإعادة النهار بعده".^٣ وهذا تمثيل قاصر على نوع واحد من المخلوقات، والمخلوقات لا عدّها ولا حصر، وكل مخلوق منها مستمر نوعه باستمرار الحياة، وهذا يفيد بأن التجدد المستمر في النوع الواحد فضلاً عن الأنواع كلها، يمثل مجالاً رحباً لتأمل كيفية تجدده وكيفية بدئه، ونشأته. جاء في البحر المحيط قوله: "إنما هو لمشاهدتهم إحياء الأرض بالنبات، وإخراج أشياء من العدم إلى الوجود".^٤

وإن التأمل في تلك البذرة التي تودعها يد الإنسان في باطن التربة، وتتعاهد بها بالسقي والرعاية، فيراها بعد مدة وقد برز منها بُرعم صغير ملامس لسطح الأرض، ثم ساق يرتفع للأعلى شيئاً فشيئاً لينمو ويتعرع ويصبح شجرة ذات فروع وأوراق وثمر. فإنه ينظر بعين فاحصة متدبرة ما كانت عليه تلك البذرة، وما آلت إليه من خلق واستواء. وهذا مثال يشبهه في بداية الخلق كثير من المخلوقات، لا يمارى الناظر إليها في معرفة بدء الخلق وعجائب تدييره. وقد درس العلماء كيفية التكاثر، ورأوا المراحل التي تمر بها هذه العملية لدى الحيوان، وشرحت في الكتب العلمية شرحاً تفصيلاً دقيقاً^٥. وهو أمر دالٌّ على إمكان رؤية بدء الخلق وتجده عبر الأزمان.

^١ (تفسير الطبري: ١٣٨/٢٠.

^٢ (المرجع السابق: ١٣٨/٢٠.

^٣ (تفسير السمعاني: ١٧٤/٤.

^٤ (تفسير البحر المحيط: ١٤٢/٧.

^٥ (انظر على سبيل المثال: يعقوب: إميل بديع. موسوعة كتوز المعرفة: ٢٤٢/١٤. دار نظير عبود،

الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.

وهكذا يتضح أن ما دلت عليه الآية الكريمة في قوله سبحانه وتعالى: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق...) مؤشر على أن الآيات القرآنية تمثل للمعارف المجردة بما يمكن أن تكتسبه الحواس من المدركات حوفاً. لتصبح المدركات تمثيلاً حياً للمغيبات من العلوم والمعارف. ومن هنا ينبغي أن يُعزّز المحتوى التعليمي بمثل هذه المنهجية، لتقدم المعرفة المجردة في صورة حيّة يلمسها المتعلم بين يديه، ليكون صورة ذهنية تعينه على استيعاب المادة وفهما وحفظها.

ثانياً: التمثيل للغائب في صورة الحاضر.

من الآيات التي دلت على التمثيل للمعرفة المجردة ما جاء منها في التمثيل للغائب بصورة

الحاضر، كما في قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحِيسُ مِنْهُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَوْ

تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ۗ﴾^١.

قال الفخر الرازي في قوله تعالى: (هل تحس) "برؤية أو إدراك أو وجدان"^٢. فالحس هنا

بمعنى ما يُحس بالمحسوسات، وخصّه بعض المفسرين بالرؤية.^٣ و"الركز" هو الصوت، وقيل: الصوت

الخفي.^٤ والملاحظ في صيغة خطاب النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الآية، أنه مُثّل له غيابهم بصورة

الحاضر الذي يُرى ويُسمع. ونفي ذلك - في الوقت نفسه - بالاستفهام الإنكاري الذي يمنع إمكان

الرؤية أو السماع. وذلك ظاهر من فحوى الخطاب، لأن قوله تعالى: (هل تحس... أو تسمع) يفهم

منه: أنك لا يمكنك أن تحس بهم أو تسمعهم. وإن رؤيتهم وسماعهم كان بالإمكان تحقيقه لو كانوا

^١ (سورة مريم، آية: ٩٨).

^٢ (الرازي: التفسير الكبير: ٢١/٢١٩).

^٣ (تفسير الطبري: ١٦/١٢٤).

^٤ (انظر تفسير مقاتل بن سليمان: ٢/٣٢٣، وتفسير السمرقندي: ٢/٢٨٨، والتفسير الكبير:

موجودين غير هالكين، ولكن هلاكهم وإبادتهم حالت دون تحقق الرؤية والسماع. وهذا يعني أنهم كان لهم وجود يمكن الإحساس به، وصوت يمكن سماعه، فلما عُدِموا عُدِمَت رؤيتهم، وعُدِم أدنى صوت لهم، وهو الخفي. فلا يسمع شيء من ذلك مطلقاً. وإن ما كان بالإمكان تحققه، وهو رؤيتهم وسماعهم، لو كان لهم وجود، دالٌّ على معرفة حقائق غائبة دلَّ عليها القرآن بهذا الأسلوب، فنفي ذلك مُشعر بأنهم كانوا موجودين ومنعمين بإرسال الرسل، ومعرفة الحق، وأن وجودهم كان فعلياً قائماً بدليل أنهم كان بالإمكان رؤيتهم وسماعهم لو لم يحلَّ بهم الهلاك.

قال الألوسي: "ونخصّ الصوت الخفي لأنه الأصل الأكثر ولأن الأثر الخفي إذا زال فزال غيره بطرق الأولى، والمعنى: أهلكناهم بالكلية واستأصلناهم بحيث لا ترى منهم أحد ولا تسمع منهم صوتاً خفياً فضلاً عن غيره".^١

ثالثاً: تتبع الآثار منهجية لتحقيق المعرفة المجردة.

دلّت الآية الكريمة الآتية على ما يمكن التعرف عليه من الأمور المجردة التي تُلمس ثمارها، ولا تُرى حقيقتها. قال سبحانه وتعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيٍ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢.

تضمنت هذه الآية ذكر أمرين مجردين عن الإدراك الحسي، أولهما: الرحمة، وثانيهما: إحياء الموتى. فإن رحمة الله تعالى عامة شاملة، ولمموسة بالمشاعر والقلب، ولكنها ليست شيئاً مجسماً بحيث يُرى بالعين، أو يُسمع، أو يُلمس باليدين. وكذلك إحياء الموتى، فالإحياء قدرة ربانية، يرى الإنسان أثرها، ولا يُدرك كنتها وكيفيةها. والآية الكريمة تدعو إلى النظر والتتبع للمخلوقات المنعمة برحمة الله

^١ (الألوسي: روح المعاني: ١٦/١٤٤).

^٢ (سورة الروم، آية: ٥٠).

تعالى. وخصّ المفسرون لفظ الرحمة في الآية بالمطر. ولكن الحديث عن الرحمة في هذا المقام، لا بد وأن يُشار فيه إلى ماهية الرحمة بعمومها. ثم تخصيصها بما ذهب إليه المفسرون، فإن آثار الرحمة المخصّصة في الآية، تمثل شواهد للأمر المجرد الثاني، وهو إحياء الموتى. ولا شك أن رحمة الله تعالى شملت جميع المخلوقات؛ يُرى ذلك في حنان الأم على وليدها، ورأفتها به، ويُرى في إطعام الطير لصغاره، ويُرى في ظلّ الشجر الذي لا يفتقر إليه السائر في كثير من مواضع الأرض، ويُرى كذلك في الأرزاق المتوالية لابن آدم، التي تكاد لا تنقطع مطلقاً، وذلك بما ذكره المولى جل وعلا في قوله: (وفي السماء رزقكم وما توعدون).¹ وهذا باب لا حدّ له ولا حصر، فهي رحمة الله تعالى، وليست رحمة سواه. ومن يرى ذلك كله بأمّ عينيه، ويسمعه بأذنيه، ويلمسه بيديه، بل ويشمّه في كل عطر ورائحة جميلة، ويستسيغه في كل طعام وشراب، فحينها لا يملك إلا أن يرى رحمة الله تعالى رؤية عين وقلب وبصيرة. وهو ما دلّ عليه التمثيل للمعرفة المجردة بما يكتسب بالحواس في هذه الآية.

وما خصّصه المفسرون هو المطر، وهو بحقّ رحمة مهداة، تتوقف عليها حياة الأحياء جميعاً. وبه تحيي "الأرض الميتة، فينبتها ويُعشّبها من بعد موتها ودثورها".² فيظهر به حسن التأثير فيها.³ وفي قوله تعالى: (آثار) لطيفة: ذلك أن المطر موزع في أنحاء الأرض بحكمة الله تعالى، فكل جزء من الأرض ينال نصيبه منه، لقوله تعالى: (ولقد صرفناه بينهم ليذكروا).⁴ وذلك يعني أن رحمة الله تعالى

¹ (سورة الذاريات، آية: ٢٢).

² (تفسير الطبري: ٥٥/٢١).

³ (تفسير البغوي: ٤٨٧/٣). بتصريف. دار المعرفة، بيروت. تحقيق: خالد عبد الرحمن العك. دط. دت.

⁴ (سورة الفرقان، آية: ٥٠).

مشاهدة في جميع أرجاء الأرض لا يعدمها مُبصر، ولا يجهلها جاهل. قال ابن عباس وابسن مسعود رضي الله عنهما: "ليس عام بأكثر مطراً من عام ولكن الله يصرفه كيف يشاء...".¹

إن الآثار التي وجهت الآية الكريمة لها دالة على رحمة الله تعالى، ودالة في الوقت نفسه على حقيقة أخرى، تلكم هي قدرة إحياء الموتى، وهو أمر يراه المبصر في إحياء الأرض الموات، حين تنزل رحمة الله تعالى، وتبدأ الحياة تدبّ في تلك الأرض، فينبت "النبات والثمار والزرّاع التي بها يكون الخصب ورخاء العيش".² وهذا مثال على إحياء جميع الكائنات، فهل سيتعذر إحياء الموتى بعد خلقهم وإعالتهم وتنشئتهم وإماتتهم! هذا لا يمكن أن تجهله المدارك أو تخالفه إلا ما كانت لسدى منكر جاحد راغب في الخصومة والجدال. فهي بحق، حقيقة ليس فيها مرأى، يراها العاقل تتمثل في كل حين أمام عينيه، ويسمعاها في كل حين بأذنيه، ويعقلها بجميع مداركه، فلا تكاد تكون حقيقة مجردة. بل واقع ملموس يعيشه ويعانيه.

إن ما ذكر أعلاه ليس إلا نماذج مختارة مما حفل القرآن الكريم به من الآيات والعبر في هذا الموضوع، فالقرآن الكريم يعالج الطبيعة البشرية بما تحتاجه من معارف تغذي العقل وتوسع النفس والروح.

¹ (ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي. تفسير القرآن العظيم: ٣/٣٢٢. دار الفكر، بيروت. ١٤٠٤هـ، دط.

² (الشوكاني: محمد بن علي بن محمد. فتح القدير، الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: ٤/٢٣١. دار الفكر، بيروت. دط. دت.

المبحث الثالث

العوامل المؤثرة في الإدراك الحسي

وفيه مطلبان:

المطلب الأول: تأثيرات العوامل الذاتية

المطلب الثاني: تأثيرات العوامل الخارجية .

المطلب الأول

تأثيرات العوامل الذاتية

أولاً: القدرات الإدراكية.

يمتلك الإنسان قدرات إدراكية محدودة، تتأثر بعدد من العوامل. وتختلف طبيعة بعض موضوعات القدرات الإدراكية في القرآن الكريم عنها في الدراسات المعاصرة؛ فالقرآن الكريم يتناول موضوع القدرات الإدراكية من ناحية لم تتعرض لها تلك الدراسات، فهو يعالج عجز الإنسان عن رؤية الله تعالى، وعجزه عن رؤية المغيبات. ويتفق في حالات أخرى مع تلك الدراسات فيذكر قضايا الخداع البصري، وتأثير الصوت المرتفع على السمع. وفيما يأتي تمت دراسة موضوعات القرآن الكريم المتعلقة بهذا الجانب.

١. العجز عن رؤية الله تعالى.

يعجز الإنسان عن رؤية المغيبات عنه، ومن باب أولى العجز عن رؤية الخالق جل وعلا في الحياة الدنيا، فقد سأها موسى عليه السلام، وسأها اليهود، وشتان ما بين النوايا، ولكن لم يره أحد منهم، وذلك عائد لقدرات البشر المحدودة، فإن ما كان فوق الطاقة البشرية ليس بمقدور الإنسان

رويته. قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ. قَالَ رَبِّ أَرِنِي لِتِلْكَ قَالَ

لَنْ تَرِنِي وَلَكِنْ أَنْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرِنِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ

لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَبَعًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ بُنْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا

أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾

جاء في قوله تعالى: (لن توأني): "عن ابن عباس قوله: فسوف ترايني وأنت بضعفك وذلتك وأن الجبل تضعضع واهد بقوته وشدته وعظمه فأنت أضعف وأذل".^٢ وقال الفخر الرازي: "المقصود تعظيم أمر الرؤية وأن أحداً لا يقوى على رؤية الله تعالى إلا إذا قواه الله تعالى بمعونه وتأييده، ألا ترى أنه لما ظهر أثر التجلي والرؤية للجبل اندك وتفرق. فهذا من هذا الوجه يدل على تعظيم أمر الرؤية".^٣

٢. العجز عن رؤية المغيبات.

إن ما قدر الله تعالى تغييره عن البشر، لا يمكنهم رؤيته مطلقاً. قال تعالى:

﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا

نُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

هذا الحال يُصَوِّرُ بلوغ الروح حلقوم المختضر، وذلك بفعل الملك الموكل بأخذ الأرواح، وهو حال تحدث فيه أفعال يعجز عن رؤيتها الحاضر، فإن نزع الملك لروح الميت تتم أمام الحاضرين، ولا يمكنهم بأي حال رؤية فعله هذا، ولذا قال المولى جل وعلا: ﴿ وَأَنْتُمْ حِينِيذٍ نَنْظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ

^١ (سورة الأعراف، آية: ١٤٣).

^٢ (تفسير ابن أبي حاتم: ١٥٥٩/٥. عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن حاتم الرازي. المكتبة العصرية، صيدا، دن. دط. تحقيق: أسعد محمد الطيب.

^٣ (الرازي: التفسير الكبير: ١٩١/٤).

^٤ (سورة الواقعة، آية: ٨٣- ٨٥).

أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ "يعني أمر الله تعالى، وهو ملك الموت أقرب إليه

منكم حين أتاه لقبض روحه (ولكن لا تبصرون) ما حضر الميت".^١ قال أبو السعود: "لا تعرفون من حاله إلا ما تشاهدونه من آثار الشدة من غير أن تقفوا على كنهها".^٢ ذلك لأن كنهه ما يحدث ليس بمقدور المدارك بلوغه، فهو فوق طاقة البشر، ولذا تأثرت هذه الحاسة بهذا الحدّ، فعجزت عن الإدراك.

٣. تأثير الخداع البصري.

ذكرت آيات الكتاب العزيز حالة خداع البصر، وهي حالة تؤثر في القدرات الإدراكية للمُبصرات، فيرى الناظر لشيء معين أن ذلك الشيء على هيئة غير حقيقته التي هو عليها، ويحدث ذلك أيضاً للسمع حينما يعترى الأصوات المسموعة شيء من التشويش، أو أن تعترى المتكلم صعوبة في النطق بحروف معينة، فيسمعها السامع على نحو غير الذي أراده المتكلم. أما الخداع البصري فذكر في موقف ملكة سبا في قوله تعالى: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾^٣.

سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ

سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾^٣.

^١ (تفسير السمرقندي: ٣/٣٧٧.

^٢ (تفسير أبي السعود: ٨/٢٠١.

^٣ (سورة النمل، آية: ٤٤.

اتضح في هذا الموقف تأثير خداع البصر على القدرات الإدراكية لدى الإنسان، وهنا برزت أهمية اللون والخلفية في الرؤية، فإن الصّرح المرّد وهو "يطلق على صحن الدار وعرضتها"¹ ووصفته الآية الكريمة بأنه "ملمّس"². وأنه "زجاج وليس بماء"³ وهو أول شيء بدأ الملكة سبأ. قال ابن عاشور: "هو أول ما بدأ لها من المدخل، فهو لا محالة ساحة معنية للنزهة فرُشّت بزجاج شفاف وأجري تحته الماء حتى يخالّه الناظر بلّعة ماء"⁴ أي "الماء المجتمع"⁵ فظنّت أنه ماء ستخوضه للوصول إلى المكّان الذي تريد فكشفت عن ساقها لئلا تبتل ثيابها. وهو سلوك نابع عما حدث لها من خداع البصر، فإن النظر إلى الزجاج الشفاف الملمس المحكّو حالت صفاته هذه دون رؤيته. ولم يبدُ شيء منه إلا ما كان تحته وهو الماء. فصدر عنها ذلك السلوك المبني على ما رآه بصرها.

وذلك دالٌّ على أن قدرات الإدراك لها حدود وإمكانات، ويمكن أن تُخدع بما يخالف الواقع. وتحدث حالة خداع البصر هذه -في بعض الأحيان- بناء على ما تتأثر به قدرات الإدراك البصري من ألوان المدركات وخلفياتها. وذلك ما تحدّثت عنه الدراسات المعاصرة أن "المثير البصري وحدة مُنظمة تتكون من صورة (شكل) وخلفية (خواف) وبذلك فإن الصورة هي مزيج لتفاعل عناصر الصورة والخلفية معاً. والصورة هي الأكثر معنى، والأكثر وضوحاً وتنظيماً والأصغر حجماً. وغالباً ما تتميز حدود الخلفية عن الصورة بسهولة ويسر. ولكن هنالك الكثير من المواقف التي تختلط على

¹ (الألويسي: التحرير والتنوير: ٢٧٥/١٩.

² (الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل: ١٤٨/٥.

³ (المرجع السابق: ١٨٤/٥.

⁴ (الألويسي: التحرير والتنوير: ٢٧٥/١٩.

⁵ (الكلبي: محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي الكلبي. التسهيل لعلوم التنزيل: ٩٧/٣. دار الكتاب العربي، لبنان، الطبعة الرابعة. ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.

الفرد حدود الصورة والخلفية أو خصائص الصورة، فتبدو الصورة على درجة من عدم الوضوح أو التداخل مع الخلفية، مما يؤدي بالتالي إلى حدوث إدراك خاطئ أو ناقص".^١

وكذا يتعدى على الإنسان إدراك حركة بعض المخلوقات في هذا الكون، فيظنها في حال،

وهي في حال أخرى لا يستطيع رؤيتها وهي عليه. قال تعالى: ﴿ وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدًا وَهِيَ

تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي لَنْ نَرَىٰ شَيْئًا إِلَّا نُهُ خَيْرٌ مِّمَّا تَفْعَلُونَ ﴾^٢

قال العلماء المتخصصون في الفيزياء الفلكية: " إن هذه الآية إشارة إلى حركة الأرض

وجريانها في الفضاء، فالسحاب كما هو معروف لا يتحرك بذاته ولكنه ينتقل محمولاً على الريح،

وكذلك الجبال يراها الرائي فيظنها جامدة في مكانها، وهي تمرّ بسرعة محمولة أيضاً، لأن الرائي

موجود في نفس القطار المتمثل في كوكب الأرض التي تجري مسرعة بالجبال كما تسرع الرياح

بالسحاب".^٣ هذا التحليل معقول لمطابقته ما عرف الإنسان عن دوران الأرض وجريانها في الكون،

وفي الوقت نفسه ينبى عن حدود قدرات الإدراك البصري، وعجز الإنسان عن فهم مقصود المسولى

جل وعلا، والله سبحانه أعلم بمقصوده.

٤. تأثير الأصوات المرتفعة على السمع.

تُحدّد قدرات السمع بمستويين معيّنين من درجات الصوت، فلا يسمع الإنسان ما قلّ عن

ذلك المستوى. وليس بإمكانه أن يتحمّل سماع ما زاد عن ذلك المستوى. ويُقاس شدّة نغمة الصوت

بوحدّة تُسمى: "الديسيبل" وتحدّد تلك النغمة بعدد من المستويات؛ فالمستوى "الذي يبدأ عنده سماع

^١ (العتوم: علم النفس المعرفي: ص: ١٠٣.

^٢ (سورة النمل، آية: ٨٨.

^٣ (حسب النبي: الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث، ص: ٧١، ٧٢.

أي نغمة، يساوي صفر ديسيبيل، ومستوى الهمس يساوي: ٣٠ ديسيبيل، والكلام العادي: ٦٠ د،
ب. والصياح: ٩٠ د، ب. وعندما تصل الشدة إلى ١٢٠ د، ب. يصبح الصوت مزعجاً أو مؤلماً^١.
ولذا تتحرك أنامل الإنسان بتلقائية لتغلق مدخل طبلة الأذن، حينما يتعرض للأصوات الصاخبة.
وتتجلى صورة الضعف هذه في قدرات السمع لدى الإنسان في التمثيل الوارد في قوله تعالى:

﴿ أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِّنَ الصَّوَاعِقِ

حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ۝١٩﴾^٢

فهذه الآية الكريمة تمثل حال الكفرة في تلقي صوت الحق وموقفهم منه، ولا تعني الظلمات والبرق والرعد في حد ذاته، ولكنها تقدم مثلاً حياً ينطبق على من يتعرض لمثل هذا الحال، فإن أصوات الصواعق تُعرف بأنها شديدة عالية، يتأثر سمع الإنسان بها. قال "الواحدي": "...من شدة صوت الرعد يستدون آذانهم بأصابعهم كيلا يموتوا بشدة ما يسمعون من الصوت، فالمطر مثل للقرآن لما فيه من حياة القلوب، والظلمات مثل لما في القرآن من ذكر الكفر والشرك، وبيان الفتن والأحوال. والرعد مثل لما خوفوا به من الوعيد وذكر النار. والبرق مثل لحجج القرآن وما فيه من البيان، وجعل الأصابع في الأذان حذر الموت، مثل لجعل المنافقين أصابعهم في آذانهم كيلا يسمعوا القرآن مخافة ميل القلب فيؤدي ذلك إلى الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم. وذلك عندهم كفر والكفر موت..."^٣

^١ (صيفي: السمع في الأطفال، ص: ١٥.

^٢ (سورة البقرة، آية: ١٩.

^٣ (تفسير الواحدي: ٩٤/١.

ويؤخذ من الآية فائدةً أخرى، تظهر في الموقف المذكور، وهو الصواعق، ووضع الأصابع في الآذان؛ فهذا الموقف يمثل حالة ضعف تعتري الإنسان حين يعاني من سماع الأصوات المرتفعة، فهو لا يطيقها. وإن صبر عليها، وتجاهل ما يتأتى عنها من مضارٍ فإنها تؤثر على فاعلية السمع فتضعفه.

وفي دراسة حول تأثير الضوضاء على السمع، قال أحمد فخري: "...ومشكلة الضوضاء صاحبها ظهور سلبيات متعددة وضارة على الإنسان، سواء من الناحية النفسية أو الصحية أو العقلية على المدى البعيد أو المدى القريب... ذكر "بيلز" ١٩٤٥ أن درجة السمع لدى القبائل البدائية في السودان الذين تتراوح أعمارهم ما بين (٧٠-٧٩) تعادل درجة السمع عند الأمريكيان الذين تتراوح أعمارهم ما بين: (٣٠-٣٩) سنة".^١ وهذا يبين تأثير الأصوات الصاخبة على القدرات السمعية لدى الإنسان، التي تؤثر بدورها على الإدراك السمعي. ومن المعروف أن الإنسان في كبره تضعف عنده حاسة السمع، فإن كان حال قدرات السمع لدى الأمريكيان من ذوي الأعمار المتروحة بين: (٣٠-٣٩)، تعدل من في عمر يضاعف ذلك، فهذا دليل واضح على تأثر السمع بما يفوق القدرات السمعية لدى الإنسان.

وبعد، فهذا ما أمكن الإطلاع عليه من آيات كتاب الله العزيز. ويضاف إليه ما تم التعرف عليه في الدراسات المعاصرة من القدرات الإدراكية للحواس، لتحقيق مزيد من الفائدة.

ثانياً: القدرات الإدراكية في الدراسات المعاصرة.

١. توصلت الدراسات المعاصرة إلى أن الإدراك الحسي محدد بذاكرة قصيرة تحتفظ الحاسة فيها بالشيء المدرك لمدة قليلة جداً، ثم إما أن تنتقل المعلومة للمراحل الإدراكية الأخرى، وإما أن تزول.

^١ (www.hayatnafs.com/mona3atalnafs/auditory-pollution-htm) فخري: أحمد.

التلوث السمعي وتأثيراته على الإنسان. تم الدخول للموقع بتاريخ: ٢٠٠٨/٥/١٦.

بفعل مجيء معلومة أخرى. وذلك يعني أن المدركات الحسية التي يرغب الإنسان في الاحتفاظ بها، عليه أن يُخطط لها تدبيراً معيناً كي تنتقل من الذاكرة الحسية القصيرة لديه إلى الذاكرة الطويلة.

٢. إن الإدراك الذي يتأتى عن الحواس يتسم بسمة الثبات، فإن الناظر إلى الشجرة عن قرب يراها على حجم وشكل ولون معين، وحين يتعد عنها تختلف بعض هذه المعالم في بصره، ولكن يبقى الحجم والشكل واللون المدرك عنده ثابتاً لا يتغير. ولذا يمكن القول إن قدرة الإبصار تتأثر بالمسافات والزوايا والضوء ونحو ذلك. أما الإدراك فإنه "لا يعكس بالضرورة المثيرات الحسية الواردة من البيئة بشكل مباشر، لأن هذه المثيرات قد مرّت بسلسلة من عمليات التحليل والترميز والتفسير قبل أن يتم إدراكها. وأكد "فيلدمان ١٩٩٦" أن الإدراك يمثل صورة شاملة ومتطورة للمثيرات التي يتعامل معها الفرد، وأن هذه الصورة الشاملة تتميز بدرجة عالية من الثبات، نظراً لأن الصورة الإدراكية لا تتغير بتغير الظروف الذاتية أو المكانية للمثير الحسي".^١

و "تشير كثير من الدراسات التي أجريت على الراشدين والأطفال أن كلا من الأطفال والراشدين يظهرون القدرة على ثبات الإدراك، ومع ذلك فإن الراشدين يكون تقديرهم لثبات المدركات أكثر دقة من الأطفال خاصة إذا كانت المسافة بينهم وبين المدركات كبيرة".^٢

٣. إن الاستجابة للمثيرات الحسية تتطلب وجود مخططات عقلية^٣ مسبقة كخبرات سابقة للمثيرات الجديدة. ويرى "بياجيه أن المخطط العقلي هو تمثيل عقلي يسمح للفرد في التعرف والاستجابة للمثيرات الحسية من خلال إضفاء قالب معين عليها، كما يرى أندرسون... أن الخطط المعرفية هي

^١ (العتوم: علم النفس المعرفي، ص: ١٠٩.

^٢ علوان: فادية. مقدمة في علم النفس الارتقائي، ص: ١٤٢. مكتبة الدار العربية للكتاب، القاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.

^٣ يراد بالمخططات العقلية: المعلومات الأولية التي اكتسبتها الحواس وأدركها الدماغ، التي تمثل إطاراً مرجعياً، للمعلومات المشابهة لها التي تستجد لدى الإنسان في تعرضه للمثيرات الجديدة.

تمثيل للمعرفة التصنيفية حول الأحداث والأشياء لتساعدنا في التعرف على المثيرات وعناصرها وطبيعتها".^١

٤. تتأثر القدرات السمعية بما يسمى بضعف السمع التوصيلي، والضعف الحسي، وبينهما اختلاف من "ناحية التأثير والعلاج، فالضعف التوصيلي يستجيب للعلاج بإزالة العائق أو إكمال النقص في الجهاز التوصيلي جراحياً، وحتى في الحالات التي يفشل علاجها فإن استعمال سماعة، يعوّض النقص في السمع ويعطي المصاب سمعاً طبيعياً. أما في حالات الضعف الحسي والعصبي فتختل عملية تحويل الموجات الصوتية إلى ذبذبات عصبية، ويقوم العصب السمعي بتوصيل تركيبات صوتية مشوهة تؤدي إلى ترجمة خاطئة في المخ، وبذلك يسمع المريض ألفاظاً غير التي أصدرها المتكلم، وتقل بالتالي القدرة على تفسير الكلام، وأغلب هذه الحالات لا تستجيب للعلاج الدوائي أو الجراحي، كما أن السماعات تفشل عادة في تأدية وظيفتها كاملة في هذا النوع".^٢

٥. تتمايز القدرات البصرية والقدرات السمعية، فإن القدرات السمعية تقوم على رموز صوتية "تعطي مدلولات ومفاهيم أكثر من الرموز الضوئية، فمن المعلوم مثلاً أن نطق الكلمة الواحدة بلهجات ونغمات متباينة تنقل للسامع مفاهيم مختلفة. ولو كتبنا الكلمة نفسها بمختلف الصور الخطية لنقلت دائماً لقارئها مفهوماً واحداً لا غير، ومن المعلوم جيداً أن الأفلام الصامتة لا توصل مسن المعلومات إلا جزءاً يسيراً مما يمكن أن تنقله الأفلام الناطقة".^٣

يتضح من خلال هذا العرض أن القدرات الإدراكية الحسية لدى الإنسان تتأثر بعدة عوامل، تعمل في بعض الحالات على تحسين المدركات المستجدة. وتعمل في حالات أخرى على ثبات معرفة

^١ (العتوم؛ علم النفس المعرفي؛ ص: ١٨٩.

^٢ (الصيفي؛ السمع في الأطفال، ص: ٣٧.

^٣ (الهلالي؛ الإعجاز العلمي للقرآن الكريم في السمع والبصر والفؤاد. مرجع سابق.

المدرّكات، وتشكيل خبرات ضرورية لذلك الثبات. وتعمل في حالات أخرى على الحدّ من الإدراك الكامل، حيث تعثره حالات تجعله إدراكاً ناقصاً أو مشوّهاً.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

ثالثاً العوامل النفسية:

يتأثر الإدراك الحسي بالعوامل النفسية المختلفة، كالخوف والاحتقار والتكبر، وغير ذلك من العوامل النفسية العديدة. والإدراك في حد ذاته لدى من يملك قدرات الإدراك، لا يختلف فيه عن الآخرين، ولكن تتأثر مداركه بتلك العوامل فتقلل من قيمة الشيء المدرك، أو تتجاهله تماماً فيصبح منزلة غير المسموع أو المبصر، فإن الذي لا يتم الانتباه له في الوقت الذي تعمل فيه وظيفة الإدراك الحسي بشكل طبيعي، فإنه يكاد يكون شيئاً غير مدرك فعلياً.

وهذا الجانب متعلق بالمفاهيم التي عاجلت قضايا العوامل النفسية في القرآن الكريم، أما المفاهيم المتعلقة بالعوامل المطروقة في العلوم المعاصرة فإن معالجتها لهذا الجانب تضمنت نواحٍ أخرى. وفيما يأتي تم إيراد عدد من العوامل النفسية المؤثرة في عملية الإدراك الحسي:

١. تأثير الخوف:

اتضح تأثير الخوف في قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ ءَامَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا

أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذِكْرُهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُنظُرُونَ إِلَيْكَ

نَظَرَ الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ ^{٢٠} ١

هذه الآية الكريمة تشير إلى تأثير الخوف في طريقة النظر، وهي كما ذكرها المفسرون: نظرة

الشر، ونظرة من "وقع في سكرات الموت" ^٢، وقيل: "تشخص أبصارهم جنباً وهلعاً" ^١. وقيل:

"يشخصون إليك بأبصارهم وينظرون نظراً شديداً من شدة العداوة كما ينظر المريض عند موته" ^٢.

^١ (سورة محمد، آية: ٢٠).

^٢ (انظر تفسير الواحدي: ١٠٠٣/٢).

والمغشي عليه هو الذي "قد صُرع"^٣، ويقال "إن الغشي: تَعَطُّلُ القسوى المحركة والأوردة الحساسة لضعف القلب بسبب وجع شديد أو برد أو جوع مفرط، وفرّقوا بينه وبين الإغماء بوجوه...".^٤ والخوف في الدراسات المعاصرة هو "شعور قوي ومزعج تجاه خطر، إما حقيقي أو خيالي".^٥ وحال المنافقين في هذه الآية الكريمة يعبر عن هذا الشعور، فإن الآيات التي تحثّ على القتال تهددهم بالموت، وهم ذوو نفوس مريضة لا تتقبل الشهادة، ولا تأمل فيها خيراً. ولذا تظهر عليهم مؤشرات ذلك الخوف، التي تتجلى في أعينهم، فتجعلها عاجزة عن رؤية من يحدثهم، لدرجة أنهم يكونون في حال شبيه المولى جل وعلا بحالة من دخل في سكرات الموت، فهو ينظر بعينه ولكنه لا يرى من حوله من الناس. وإن ما يعتري جسم الإنسان حين مداخلة الخوف، يفسّر سبب تأثير ذلك على مداركه؛ "فإن الجسم يقوم عند حدوث مشاعر الخوف والقلق بسلسلة من التغيرات الفسيولوجية الداخلية".^٦ ومن هنا يفهم التصوير القرآني لتلك الحالة التي يعانونها، أنها حالة تعثرهم فيها أحوال نفسية تؤثر على مظهرهم الخارجي وعلى قدراتهم الإدراكية فتصبح نظرهم لذلك الإنسان العظيم المبلغ عن ربه صلى الله عليه وسلم، نظرة استهانة وتقليل لشأنه، صلوات ربي وسلامه عليه.

٢. تأثير الاحتقار:

إن نظرة الاحتقار والامتهان تجعل الناظر للقوم، يراهم في حال أهون من حاله، وفي درجة أقلّ من درجته، فيتعاطف عليهم، ويستهين بأمرهم، وهذا ما وضّحته الآية الكريمة في قوله تعالى:

-
- ^١ (الكشاف: ٣٢٧/٤).
- ^٢ (تفسير السمرقندي: ٢٨٧/٣).
- ^٣ (تفسير الطبري: ٥٤/٢٦).
- ^٤ (الزيدي: محمد مرتضى الحسيني. تاج العروس من جواهر القاموس: ١٦٤/٣٩. دار الهداية. دط. دت).
- ^٥ (www.ar.wikipedia.org. لم يرد اسم المؤلف. موضوع الخوف. ٢٠٠٩/٣/١٥ م).
- ^٦ (المرجع سابق).

﴿ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ

لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمِنَ

الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾

الازدراء في الآية الكريمة، يُراد به: الاحتقار، والاستهانة^١، واعتبار من يُنظر إليهم بهذه النظرة أهم "سَفَلَة"^٢. وذكر "الألوسي" المراد بذلك بقوله: "وأصل الازدراء الإعابة... والتعبير بالمضارع للاستمرار أو للحكاية الحال، لأن الازدراء قد وقع، وإسناده إلى الأعين مجاز، للمبالغة في رأي، من حيث أنه إسناد إلى الحاسة التي لا يُتصوّر منها تعيب أحد، فكان من لا يدرك ذلك يدركه، وللتنبيه على أنهم استحقروهم بادئ الرؤية. وبما عاينوا من رثاثة حالهم وقلة مناهم دون تأمل وتدبر في معانيهم وكمالهم..."^٤.

إن الإعابة عليهم من قبل المعاندين لم تكن من قبل الأعين فعلاً، فالأعين ناظرة إليهم فقط، إلا أن قوله: بادئ الرؤية، يثير التساؤل: كيف كانت النظرة إليهم في أول الأمر؟ من المعروف أن نظرة الاحتقار، تُلاحظ معالمها في حركة العين، وهي نظرة الشزر، التي تُطْرَف العين بها بحركة ملحوظة، حين ينظر إلى من يحتقرهم الناظر. وهذه النظرة جاءت كردة فعل على ما رأوه من ضعف حالهم، وعلى ما تلقفته نفوسهم المريضة من قناعة بأن هؤلاء لا يستحقون الخير.

^١ (سورة هود، آية: ٣١).

^٢ (انظر: تفسير الطبري: ٣٠/١٢).

^٣ (تفسير مقاتل بن سليمان: ١١٦/٢).

^٤ (الألوسي: روح المعاني: ٤٢/١٢).

وذلك مرض نفسي يؤثر على مداركهم، فيجعلها قاصرة في تلقف معاني ما يظهر أمامها من المدركات المرئية فحسب. فلا تتجاوز نفوسهم تلك النظرة إلى اعتبار ما لأولئك من قيمة إنسانية وقدر عظيم عند رب العزة جل وعلا. ومن هنا فإن الازدراء في الآية الكريمة يُفهم منه فعل العين، وفعل النفوس، فالعين تنظر لهم نظرة امتهان واحتقار واستصغار، والنفوس تُعدهم في منزلة دنيئة لا قيمة لها. وذلك هو الاحتقار بعينه. فكيف ستكون الرؤية المصاحبة لهذه الحالة النفسية؟¹¹⁹

٣. تأثير الكراهية:

يتدخل عامل الكراهية في ما يُدرك بالسمع والبصر، فيُحدّ من إمكان الاستفادة منهما، فتصبح العين المبصرة كالعمياء، والأذن السامعة كالصماء، والقلب المستدلّ بما كالميت. يقول المولى

جل وعلا: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا

وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ

هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾

هذه الآية تعبر عن حقد على الإسلام، وكره الحق، وعشق الباطل. فأصبح بذلك في متاهة الكفر عاجزاً عن رؤية أو سماع ما يدلّه من دلائل الحق على الحق. وهذه الكراهية التي أضمرها هؤلاء

كشّف المولى جل وعلا عنها بقوله عنهم: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا

فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴿٢٦﴾^٢ قال الطبري: "قوله: ولهم أعين لا يبصرون بها، معناه: ولهم أعين لا

¹ (سورة الأعراف، آية: ١٧٩).

² (سورة فصلت، آية: ٢٦).

ينظرون بما إلى آيات الله وأدلته، فيتأملوه ويتفكرون فيها فيعلموا بما صحة ما تدعوهم إليه رسلهم وفساد ما هم عليه مقيمون من الشرك".^١ وقال الماوردي: "فصاروا بتارك استعمالها بمثابة من عدمها".^٢ ووصف القشيري غفلتهم واتباع هواهم بقوله: "ولهم أعين لا يبصرون بما شواهد التوحيد وعلامات اليقين، فلا ينظرون إلا من حيث الغفلة، ولا يسمعون إلا دواعي الفتنة، ولا ينخرطون إلا مع سلك ركوب الشهوة".^٣ وهذا الحال -لا شك- تقوده عوامل نفسية متمثلة في كراهية ما أنزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومعاداته. وهو كحال قوم نوح عليه السلام، الذين قال عنهم المولى سبحانه وتعالى على لسان سيدنا نوح عليه السلام: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ

جَعَلُوا أَصَابِعُهم فِي آذَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَوْا شِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا أَسْتَكْبَارًا ۗ﴾^٤

وفيها تظهر علامات الكراهية والنفور، الظاهرة في سلوك باطل يُنبئ عن عقول نحوية؛ فلم يكتفوا بوضع الأصابع في الآذان، وهو فعل يقلل من قدرة السمع، ولكنهم أضافوا ما هو أضعف عن قدرة الأصابع على التقليل، ألا وهو الثياب، فهل تحول الثياب عن السماع، أو تضيف للحيلولة دونه أي فاعلية!! إن هذا السلوك ينبئ عن كراهية تامة والكراهية تؤثر على المسموع والمشاهد، وتحول دون تحقق المدركات الصحيحة لدى الإنسان، فيحرم من خير كثير.

^١ (تفسير الطبري: ١٣١/٩.

^٢ (الماوردي: النكت والعيون، تفسير الماوردي: ٢٨١/٢.

^٣ (تفسير القشيري: ٣٦٩/١. عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك. النيسابوري الشافعي. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م. تحقيق: عبد اللطيف حسين عبد الرحمن.

^٤ (سورة نوح، آية: ٧.

وعامل الكراهية في نفس الإنسان يعزوه بعض العلماء إلى وجود حيز في الدماغ، ينشط في حالة رؤية ما يكرهه أو حالة تهيج غضبه. ذلك ما تمّ التوصل إليه عام ٢٠٠٨م. فقد "أفاد باحثون بريطانيون أنهم عثروا على "دائرة الكراهية" داخل مخ الإنسان بعد أن درسوا عدداً من المتطوعين عرضت أمامهم صور لأفراد يكرهوهم أشد الكراهية. وقد نشطت لدى المتطوعين مناطق محددة مسن المخ لدى رؤيتهم لأفراد مكروهين، حددها العلماء في إطار دائرة الكراهية هذه. وقال باحثون في جامعة "يونيفر سيتي كوليدج لندن" بقيادة البروفيسورين: سمير زكي وجون رومايا من مختبر بيولوجيا الأعصاب في الجامعة أن مناطق الكراهية تختلف بشكل واضح عن مناطق المخ الأخرى التي تنشط عادة تحت تأثير أحاسيس متنوعة مثل الخوف، التهديد، الخطر، وأضافوا أن مناطق الكراهية هذه رغم تموضعها، فإنها تتشارك مع مناطق السلوك العدواني...".^١ إن مشاركة مناطق الكراهية في الدماغ للسلوك العدواني تعبر عن سبب ردة فعل قوم نوح، فهم قوم كرهوا الحق، وكرهوا سماعه من المبلّغ، فأقدموا على ذلك السلوك حين رؤيته وسماع دعوته. وهو أمر معبر بوضوح عن حالة نفسية انعكس نشاطها على نشاط الدماغ، الذي أثر بدوره على فعلهم وسلوكهم العدواني ذلك. يقول الفخر الرازي: "والمعنى: أنهم بلغوا في التقليد إلى حيث جعلوا أصابعهم في آذانهم) لئلا يسمعوا الحجة والبيّنة، وثانيها قوله: (واستغشوا ثيابهم) أي تغطوا بها، إما لأجل أن لا يبصروا وجهه، كأنهم لم

^١ (www.dr.fadel.net/content/view/406/47 العلماء يتعرفون على دائرة الكراهية في

المخ. تم الدخول للموقع بتاريخ: ١٦/٥/٢٠٠٩م. العدد: ١٠٩٤٦.

يجوزوا أن يسمعوا كلامه، ولا أن يروا وجهه، وإما لأجل المبالغة في أن لا يسمعوا، فإنهم إذا جعلوا أصابعهم في آذانهم، ثم استغشوا ثيابهم مع ذلك، صار المانع من السماع أقوى...".^١

ويتواصل تصوير سلوكهم العدواني في ما أخبر سبحانه وتعالى عنهم بقوله: (وَأَصْرُوا واستكبروا استكباراً). وفيه بيان لحالة ردة الفعل تجاه ما كرهوه من سماع دعوة الحق، فظهر سلوكهم العدواني في هذا التصرف، حيث استكبروا استكباراً عظيماً، فاقت درجته درجة ما يُطلق عليه تكبر فحسب.

٤. تأثير الاستكبار:

وتمثل حالة التكبر عاملاً من العوامل النفسية التي تحول دون تحقق الاستفادة من الإدراك الحسي. فإن المتكبر لا يلتفت إلى ما يراه أو ما يسمعه، إن كان ذلك من جهة أو من أحد هو يتكبر ويتعالى عليه. قال تعالى: ﴿ وَإِذَا نُتِلَّى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَنُؤْتَىٰ مَسْكِيرًا كَانَتْ تَرْتِمَ عَلَيْهَا كَانٌّ فِي

أُذُنَيْهِ وَقَرَّأَ فَبِشْرَةٍ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۗ ﴿٧﴾

الوقر في الآية الكريمة هو "الثقل"^٢ وقيل عن ذلك المتكبر أنه "يتصامم"^٣. وهو -لا شك- ردة فعل للتكبر والتعالي؛ فإن استكباره على الحق جعله يدبر عنه ويعرض عن سماعه وإجابته.^٤ إن هذه الحالة تجعله وكأنه غائب عن ما يقال من الحق، لقوله تعالى: (كأن لم يسمعها) والغائب بطبيعة

^١ (التفسير الكبير: ١٢١/٣٠. لا أنفق مع ما ذهب إليه الفخر بقوله: "صار المانع من السماع أقوى" لأن الثياب لا تحول دون السمع، إلا إذا كانت طريقتهم في الاستعانة بها بطيها وتكثيفها جيداً. والله أعلم.

^٢ (سورة لقمان، آية: ٧.

^٣ (تفسير مجاهد: ٥٠٣/٢. وتفسير مقاتل بن سليمان: ١٩/٣. وتفسير الطبري: ٦٤/٢١.

^٤ (تفسير السمرقندي: ٢٠/٣.

^٥ (تفسير الطبري: ٦٤/٢١. بتصريف.

الحال، يحول غيابه عن إمكان السماع والاستفادة. ولكن القضية هنا ليست قضية غياب، إنها قضية تأثير نفسي على السلوك، وبدوره تأثير على قيمة المدرك سمعاً كان أو إبصاراً.

ويُفسّر الكبر بأنه: "حالة مرضية في النفس الإنسانية، وفي أغلب الأوقات يكون انعكاساً لحالة من الذلة يعيشها صاحبها، فيريد أن يعوض هذه الذلة بتعظيم نفسه أمام الآخرين بموجبات وهمية في كثير من الأحيان".¹ ويُذكر لهذه الحالة أسباب ودواعي منها: "الإحساس بالوجهة الاجتماعية والانتساب إلى من هم - في نظر العرف - من أهل الشرف والمكانة...".²

وتمثل الآية الكريمة هذا الحال فيمن تحدثت عنه، كما ذهب "جلّ المفسرين على أن الآيتين في النضر بن الحارث، وذلك أنه ذهب إلى فارس فاشترى كتاب كليله ودمنة وأخبار رستم وإسفنديار وأحاديث الأكاسرة فجعل يرويها ويحدث بها قريشاً، ويقول: إن محمداً يحدثكم بحديث عاد وثمود، وأنا أحدثكم بحديث رستم وإسفنديار، ويستملحون حديثه ويتركون استماع القرآن، فأنزل الله تعالى هذه الآيات وبالغ في ذمّه لتركه استماع القرآن...".³ ويظهر من فعله هذا أن الدافع لذلك هو حرصه على وجهته الاجتماعية، فإن حديثه بأخبار رستم وإسفنديار، وهو حديث قصصي تحبه النفوس، فاتّخذته وسيلة يستميل به الناس عن سماع محمد صلى الله عليه وسلم. وذلك يُفسّر رغبته في التعالي، ومساواة نفسه بالأهمية التي نالها سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وإقبال الناس عليه. مما يدلّ على استكباره على الحق، وعدم تواضعه له، كما هو حال من أسلم وجهه لله تعالى

¹ (www.almarefa.net/archive لم يرد اسم المؤلف. موضوع: هل التكبر عزة ظاهرة أو

ذلة باطنية. ٢٠/٥/٢٠٠٩م.

² (المرجع السابق).

³ (الكرماني: محمود بن حمزة بن نصر. أسرار التكرار في القرآن: ١/١٦٩. دار الاعتصام،

القاهرة. الطبعة الثانية: ١٣٩٦هـ، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.

ولرسوله صلى الله عليه وسلم. ولا يخفى أنه على خلاف ذلك، مما يُشير إلى تأثير استكباره على إدراكه السمعي والبصري لوجوه الحق.

وهناك عوامل أخرى، مثل: ما يتأتى عن النفس الإنسانية حين قصد المعارضة والمخالفة، فتكون نتيجة ذلك هي الجهل التام بما تمت معارضته ومخالفته. وقد شبه المولى جل وعلا هذه الحالة

بحال البهائم في قوله تعالى: ﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً

وِنِدَاءً صُمُّ بِكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٧١﴾ ^١. وكذلك الميل إلى تجنب الموضوعية في التعامل

مع الحقائق، كفعل بني إسرائيل ^٢ ممن وصفهم المولى سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ أَفَنظَمُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا

لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ

وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ^٣.

وبعد، فهذه نماذج وأمثلة على العوامل المؤثرة في الإدراك السمعي والبصري، وهناك نماذج

أخرى في القرآن الكريم، والحمد لله رب العالمين.

^١ (سورة البقرة، آية: ١٧١).

^٢ (انظر تفسير الطبري: ٣٦٧/١).

^٣ (سورة البقرة، آية: ٧٥).

رابعاً: الخبرات السابقة:

تؤثر الخبرات السابقة للمدركات الحسية على ما يستجدّ اكتسابه بالحواس، ويظهر ذلك جلياً في عملية الإدراك البصري. وقد ذكر علي وفائقة مراحل الإدراك البصري للشكل، ثم عقبا على المرحلة الثالثة بقولهما: "وفي هذه المرحلة يلعب السياق والخبرة السابقة للفرد عن الشكل دوراً هاماً عند مقارنة المعلومات المدخلة عن هذا الشكل عبر الجهاز البصري بالمعلومات المخزنة عنه في الذاكرة البصرية...".^١ وفي حديثها عن ثبات إدراك الحجم، ذكرت فادية علوان صلة ذلك الثبات بالخبرات السابقة فقالت: "وتشير نتائج هذه الدراسات إلى أن ثبات إدراك الحجم يمكن أن يكون فطرياً لدى الإنسان، ومع ذلك فإن تراكم خبرات الفرد مع الأشياء والمنبهات تساعد على تدعيم هذه الخاصية".^٢ ويراد بتأثير الخبرات والسياق في المفهوم الوارد أعلاه: الخبرة الإدراكية التي تهب الإنسان معرفة مسلّمة بأن الدائرة مستديرة، وأن المربع له أربع زوايا، -وذلك على سبيل المثال- فإن اختفت معالم زاوية معينة فإن العين قادرة على استيعاب ما خفي منها، وإدراك الشكل الكلي لها. ويقارب هذا المعنى بعض ما ورد في آيات الكتاب العزيز، وفيما يأتي تم إيضاح ذلك.

١. ثبات معاني الدلائل المدركة. تجلّى تأثير الخبرات السابقة في تحديد الشكل المدرك، وموقعه، وبناء الحكم عليه في سورة يوسف، في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا قَمِيصَهُ قَدَّ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ

كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾

^١ (علي وفائقة. الإدراك الحسي السمعي والبصري. ص: ٦٥.

^٢ (علوان: مقدمة في علم النفس الارتقائي، ص ١٤٢.

^٣ (سورة يوسف، آية: ٢٨.

ففي الآية ذُكِرَ حَدَثٌ، تؤثر رؤية موقعه في الحكم عليه، وعلى فاعله، وهو حكم مبني على موضعه، فإن كان موضع تمزيق القميص من الأمام، فإن الخبرة السابقة لدى الرائي ستحكم بحكم معين، وإن كان التمزيق من الدبر، فإن رؤية هذا الموضوع ستتأثر أيضاً بالخبرة السابقة لديه، وسيكون الحكم مختلفاً. وهذا بعض ما اتضح في قول أبي السعود. حيث قال: "لأن الظاهر أن صورة الحال معلومة له على ما هي عليه، إما مشاهدة أو إخباراً، فهو متيقن بعدم مقدم الشرطية الأولى وبوجود مقدم الشرطية الثانية...".¹ وقوله هذا يشير به إلى ما تمّ تحصيله عند الناظر مسبقاً، فالصورة التي رآها، وهي تمزيق القميص، رأى ما يشبهها قبل ذلك، أو سمع بمثلها. والحكم عليها واضح بالنسبة له بحسب ما تقتضيه حالة التمزيق. وهو حكم مبني على ما علمه مسبقاً مشاهدة أو إخباراً، كما قال.

٢. استكمال ما خفي من المدركات البصرية.

تجلى تأثير الخبرات السابقة في استكمال ما خفي من المدركات البصرية، في الحكم السذي

أصدره قوم عاد على رؤية العارض في السماء، وذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا

مُتَسْقِلًا أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ

الِيم ﴿٢٤﴾ ٢.

قال الطبري: "والعرب تسمى السحاب الذي يرى في بعض أقطار السماء عشيّاً، ثم يصبح

من الغد قد استوى وحبا إلى بعضه بعض: عارضاً"^٣. وقال الماوردي: "والعارض هو الماء الذي لا

¹ (تفسير أبي السعود: ٢٦٩/٤).

² (سورة الأحقاف، آية: ٢٤).

³ (تفسير الطبري: ٢٥/٢٦).

يلت¹. وهذا المفهوم يشير إلى أن رؤية السحاب في موضع ما، دالٌ لبعضهم على إدراك شيء معين، وقيل: "كان لعاد واد إذا جاء المطر أو الغيم من ناحيته كان غيثاً".² فرأى قوم عاد ذلك الذي خبرته مداركهم سابقاً، فحكموا عليه بأنه غيث ممطر لهم، و حكموا بالكذب على سيدنا هود عليه السلام. ذلك لأن خبرة الإدراك البصري لديهم كانت متأثرة بما اعتادت عليه من تلاحق نزول المطر بعد مجيء العارض، فحكموا بأن المطر قادم إليهم لا محالة، فكان ذلك غرور بما تأثرت به أبصارهم من الخبرات السابقة.

وحول هذا المفهوم قيل: "تعدّ الخبرة السابقة من أهم العوامل التي تحدد الإدراك الحسي مسن حيث دقّة هذا الإدراك أو درجته أو حدّته، من حيث صحة الإدراك أو خطئه، إذ أن الخبرات السابقة عن المثيرات المختلفة التي مرت عليه أو شاهدها في حياته تصبح المرجع الحقيقي الذي يفسر ويحلل نوع المثير الحسي الذي أدركه الفرد".³

هذا، ويمكن القول أيضاً إن حكم قوم عاد بنزول المطر، يقارب⁴ ما تمّ تفسيره حول المدركات الحسية أهما قدرة على تكميل الفراغات الناقصة في المشهد البصري، ذلك لأن وجود العارض في العادة، يليه سقوط المطر، وهو ما اعتادت عليه المدارك، وهنا أكملت رؤيتهم للعارض ما بقي منه من أمر معتاد، وهو المطر، الذي يُعد مُدركاً ناقصاً عما رأوه، فكمّلت خبراتهم السابقة بما اعتادت عليه رؤيتهم لما يتأتى بوجود العارض، فحكموا بأنه نازل حتماً.

¹ (الماوردي: النكت والعيون تفسير الماوردي: ٢٨٣/٥).

² (النحاس: معاني القرآن الكريم: ٤٥٣/٦. جامعة أم القرى، مكة المكرمة. الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ، تحقيق: محمد علي الصابوني).

³ (رشيد: الإدراك، والإدراك الحسي الفائق، ص: ٢٩).

⁴ (يُرَاد بالمقاربة هنا: أن ما رآه قوم هود لا يتفق اتقافاً كاملاً مع مفهوم إكمال الفراغات الناقصة في المشهد البصري، ولكنه يقاربه إلى حد ما، فإن إكمال الفراغات الناقصة يُشار إليه فيما يتعلّق بالجسم الواحد).

جاء حول هذا الموضوع: "إن جهازنا البصري يقوم تلقائياً بملء الفراغات غير المكتملة في الأشياء، وهذه العملية تقوم بما مراكز معالجة المعلومات البصرية في القشرة المخية، أما عن رأي العلماء في قدرة جهازنا البصري على ملء فراغات الأشياء غير المكتملة فيرى فريق منهم أن ذلك يرجع لأن الجهاز البصري لدى الإنسان متطور ولديه قدرة فائقة على تعويض المعلومات الناقصة في المشهد البصري، أما الفريق الآخر فإنهم يرون أن هذه العملية ترجع لخبرة الفرد السابقة عن الشيء غير المكتمل وأن المعلومات المخزنة عن هذا الشيء في الذاكرة البصرية تساعد الجهاز البصري على القيام بملء هذه الفراغات".¹

ويفترق هذا المعنى عما ذكر أعلاه في كون الأخير يُراد به ما يقوم البصر بإكماله مما نقص من الأجسام المرئية إن خفي جزء منها أو حُذف. أما بالنسبة لما ذكر حول نزول المطر بأنه يتأتى بعد رؤية العارض فذلك لا يعد إكمالاً للجسم المدرك، بقدر ما يعدّ إكمالاً معرفياً تابع عن خبرة سابقة.

٣. تأثير الخبرات السابقة في الأحكام المستقبلية.

ورد في سورة النور حثٌ من المولى جل وعلا للمؤمنين للاستفادة من الخبرات السابقة في

الحكم على المدركات الحسية المستجدة، فقال سبحانه: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ

وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾

فإن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها، خيرة نساء العالمين، وهي التي اختارها رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجاً له - وكفى بهذا فخراً - وهي التي علم المسلمون فيها كل خير، فهي ابنة الصديق رضي الله تعالى عنهما. وهذه أمور تغرس في المدارك بدون شك نزاهتها وفضلها وسموّ

¹ (علي وفائقة: الإدراك الحسي السمعي والبصري، ص: ٤٥.

² (سورة النور، آية: ١٢.

قدرها. وتلك النزاهة - لا شك - يعلمها المسلمون في أنفسهم ولا يقبلون غيرها. وهي أمر مسلم به لديهم جميعاً. وكفى هذه الأمور أن تكون بحيرة سابقة قادرة على الحكم على ما يُسمع من الأخبار عنها. هذا ما جاء في الآية الكريمة في قوله تعالى: (لولا إذ سمعتموه) فموقف الرد على هذا الإفك كان مطلوباً من البداية من حين سماع ذلك الخبر الكاذب، لقوله تعالى: (إذ).

قال الزمخشري: "لولا إذ سمعتموه ظننتم بأنفسكم خيراً وقتلتم. وعدّل عن الخطاب إلى الغيبة، وعن الضمير إلى الظاهر. قلت: ليبالغ في التوبيخ بطريقة الالتفات، وليصرح بلفظ الإيمان. دلالة على أن الاشتراك فيه مقتضى أن لا يصدّق مومن على أخيه، ولا مؤمنة على أختها قول غائب ولا طاعن، وفيه تنبيه على أن حق المؤمن إذا سمع قالة في أخيه أن يبي الأمر فيها على الظن لا على الشك. وأن يقول: بملء فيه بناء على ظنه بالمؤمن الخير: (هذا إفك مبين)".¹

ومن هنا فإن الأحكام في مثل هذه الأمور ينبغي أن تصدر عن خبرة سابقة لا عن هوى نفسي. فإن ما يعلمه المسلمون عن أنفسهم هو النزاهة وعدم قبول الإقدام على مثل ذلك الفعل، ومن باب أولى أن يُعلم هذا عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها وأرضاها. ولذا دلت الآية الكريمة على قاعدة مهمة جداً هي "أن درجة الإيمان والعفاف لا يزيلها الخير المحتمل وإن شاع".² وهذا يؤكد على أهمية تحكيم الخبرة السابقة في ما يُسمع من الأخبار فإن لها أثراً واضحاً في الإدراك السمعي، وتبتيه، لئلا تصبح المدركات السمعية معرفة مسلم بها في الدماغ، وهي في حقيقتها أمر باطل.

¹ (الزمخشري: الكشاف: ٢٢٢/٣).

² (الشوكانى: فتح القدير: ١٣/٤).

المطلب الثاني

تأثيرات العوامل الخارجية

أولاً: تأثير أساليب تنمية فاعلية المدركات الحسية.

يُقصد بـ أساليب تنمية فاعلية المدركات الحسية: الأساليب التي يمكن أن تُحدّد كمنهجية لتنمية القدرة على الإدراك السليم، والقدرة على الإدراك الذي يمكن أن يحقق إمكانية أكبر للحواس، لتحصيل المحسوس بصورة أدقّ. ويتدخل "الانتباه" في هذه القضية، لأن الحواس هنا يُراد منها فعلاً مقصوداً، بحيث تتم تنمية المدرك الحسي بجهود حسي يعزّزه جهد ذهني. ذلك الجهد هو الانتباه. فقد كشفت بعض الدراسات المعاصرة عن تأثير الانتباه في "طبيعة الخبرة الإدراكية، إذ تبين -على سبيل المثال- أن الانتباه يحسّن القدرة على تبيين التفاصيل المكانية، ويعزز احتمالات كسب الإشارات الضعيفة، كما تبين أن الانتباه الموجّه مكانياً يعزز سرعة نقل المعلومات من خلال المسارات الإدراكية"¹. وفيما يأتي تم إيراد عدد من آيات الكتاب العزيز، مما تضمّن توجيهات داعية إلى الإدراك المقرون بالانتباه.

¹ (أبو المكارم: أسس الإدراك البصري للحركة، ص: ١٢٠.

١. تأثير الاعتناء بإدراك مظاهر الزينة.

تضمّنت بعض آيات القرآن الكريم مفردات مُشعرة بطلب توجيه الانتباه والحس نحو ما تذكره من عجائب صنع الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا

وَزَيْنَّاها لِلنَّظِيرِينَ

البروج في الآية الكريمة يراد بها "المنازل التي تنزلها الشمس والقمر والكواكب السيّارة"^١ وقوله تعالى: (وَزَيْنَّاها لِلنَّظِيرِينَ) أي "وزينا السماء بالكواكب لمن نظر إليها وأبصرها"^٢. والزينة المذكورة هي "الزينة التي تدرك بالبصر التي يعرفها الخاصة والعامة، والزينة المعقولة التي يختص بمعرفتها الخاصة"^٣. وقيل: "وخصّ بالناظرين، لأنها من المحسوسات التي لا تدرك إلا بنظر العين، ويجوز أن يكون من نظر القلب لما فيها من الزينة المعنوية"^٤. وما يعيننا من مفهوم هذه الآية هو الرؤية البصرية، فإن قوله تعالى: (وَزَيْنَّاها لِلنَّظِيرِينَ) فيه إفادة الدعوة للنظر إليها وتدبر جمالها، وكذلك تدبّر ما تنطوي عليه منازل الكواكب من فوائد علمية يسترشد بها العارفون بسدالات الكواكب من حيث الاهتداء بها في الطرق، ومن حيث معرفة أوقات الخصب والجذب، فسـ "العرب تعدّ المعرفة بمواقع النجوم وأبوابها من أجلّ العلوم، ويستدلّون بها على الطرقات، والأوقات والخصب والجذب..."^٥. وقد كان العرب "يجدون الخير في (الثريا) وهي عنقود مفتوح في كوكبة (الثور) ففي

^١ (سورة الحجر، آية: ١٦.

^٢ (الحنبلي: الباب في علوم الكتاب: ٤٣٨/١١.

^٣ (تفسير الطبري: ١٣/١٤.

^٤ (الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ٢١٩/١.

^٥ (الأندلسي: تفسير البحر المحيط: ٤٣٧/٥.

^٦ (الحنبلي: الباب في علوم الكتاب: ٤٣٨/١١.

نورها عند غيابها في الفجر، سقوط الأمطار. وقد سمّوها الثريا، وهي تصغير كلمة (ثروي) التي تدلّ على الغنى والثروة. وكان هناك نجم متألّق يتبعها دائماً أو يدبرها. ولأنه يدبرها في الإشراق ويسدبرها في غروبها أيضاً سمّته العرب: الدبران، وهو في الواقع نير الثور، ويقع إلى الشرق منها بحوالي ١٥ درجة. ولا يزال اسم هذا النجم في الفلك الحديث (Aldebaran)^١.

وبغضّ النظر عن مدى صحّة العلوم التي استفادها العرب من ملاحظاتهم البصرية للنجوم، إلا أن مجرد النظر إليها وتدبّر جمالها وبديع صنعها، فذلك مما يُدرك به قدرة الخالق جل وعلا، ويحقق مزيداً من فاعلية الإدراك الحسي. وذلك يؤكد على أهمية تنمية الإدراك السليم لمفاهيم تلك المواقع وفوائدها وكيفية الاسترشاد بها، وهو أمر يتطلب التعرف على ما استجدّ من علوم كونية تنمي القدرة على توجيه الانتباه حين النظر إليها، وتعزيز ذلك بتعلم كيفية الاستفادة منها. وهذا يتضح أن القرآن الكريم يحثّ الناظرين على تنمية مداركهم وتفعيلها لتحقيق أكبر قدر ممكن من الاستفادة منها.

٢. تأثير الاعتناء بانتقاء المدركات.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَآتِ مِنْ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ

مُخْضِرَةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾^٢.

ذكر أبو السعود الاستفهام الوارد في الآية، فقال: "استفهام تقرير كما يفصح عنه الرفع في

قوله تعالى: (فتصبح الأرض مخضرة) بالعطف على ما أنزل، وإيثار صيغة الاستقبال للإشعار بتجدد

أثر الإنزال واستمراره أو لاستحضار صورة الاخضرار"^١.

^١ (بدر: عبد الرحيم: رصد السماء. ص: ١٥٧.

^٢ (سورة الحج، آية: ٦٣.

ويُفهم من هذا أن الله تعالى يقرر حصول رؤية نزول المطر واخضرار الأرض، وهو تقرير مؤيد بصيغة الاستقبال في قوله تعالى: (فتصبح) لفاعلية ذلك في استحضار صورة الاخضرار كما قال أبو السعود. وهو دالٌ على تخصيص ميزة معينة لنزول المطر، تلكم هي حالة اخضرار الأرض، وهذا التمييز مُشعر بأهمية إدراك الخضرة وجمالها وما يتأتى عنها من مدركات ذهنية أخرى، كزيادة السيقين بالله تعالى وبقدرته وجميل صنعه. ولذا فإن تنشيط الوعي، واستصحاب الانتباه لهذه الخضرة وجمالها ومنافعها يلزم استحضاره مع معاينتها وتدبر حالها. وذلك يجعل لها ثباتاً ذهنياً للشكل الجسمالي والنفسي الذي تحويه. وذلك الثبات يهب بدوره، الشيء المدرك -وهو في هذا المقام: الخضرة- قراراً ذهنياً يمثل فيما بعد خبرة يقينية فاعلة في توطيد وإحكام المعتقد الإيماني بالله تعالى وبقدرته العظيمة، وبإنعامة الجزيل. وحول هذا المعنى ذكر الباحثون في مجال الإدراك الحسي أن "هناك عوامل أخرى تؤثر على ثبات الشكل، مثل مدة رؤيته، ومدى تركيز الانتباه عليه، لأن الرؤية الخاطفة السريعة للشكل، وعدم تركيز الانتباه عليه تجعل إدراكنا للشكل مشوشاً وغير دقيق، أما الرؤية الكافية التي تسمح للجهاز البصري بتجميع المعلومات المختلفة عن الشكل ومكوناته، والتي يصاحبها انتباه مركز، فينتج عنها إدراك صحيح للشكل ومكوناته، كما أنها تساعد الجهاز البصري على تصحيح الثبات الإدراكي لهذا الشكل"^٢.^٣ وهذه المعلومة تتفق إلى حد ما، مع ما ذهب إليه أبو السعود في شرح الآية. وإن التوجيه في قوله تعالى: (مخضرة) يشير إلى نوعية الانتباه المطلوب. فمن أنواع الانتباه:

^١ (تفسير أبي السعود: ١١٧/٦).

^٢ (عزاه إلى ESTEIN&Lovits, 1985).

^٣ (علي وفائقة: الإدراك الحسي السمعي والبصري، ص: ٩٦).

"الانتباه الموجه (Signal attention) ويتمثل في محاولة الفرد التعرف على حدوث مثير حسي ما في البيئة المحيطة به كأن يبحث الفرد عن أصوات غريبة خلال سكون الليل"^١. أو نحو ذلك.

وفي الآية الكريمة يُلاحظ التنويه إلى لون الخنصرة وتخصيصها، وفي ذلك إشارة لأهمية التركيز عليها وإطالة النظر إليها مع استحضار قيمة جمالها ومنافعها الجمالية والصحية.

٣. تأثير الاعتناء بإدراك مظاهر إحكام الصنع.

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزِبْ عَنْهُنَّ بِمَقْدِرٍ عَلَيَّ أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢

تضمنت الآية الكريمة التأكيد بحرف (أَنَّ) على أنه سبحانه وتعالى خلق السموات والأرض

ولم يعزب بخلقهن، أي "لم يعجز عن اختراعهن وإحداثهن"^٣ و "لم يتعب ولم ينصب بخلقهن"^٤.

والمراد بالآية: "لم ير هؤلاء الضلال ما نصبنا في هذه السورة من أعلام الدلائل وواضح

الرسائل في المقاصد والوسائل... على ما احتوت عليه مما يعجز الوصف من العبر. والأرض على ما

اشتملت عليه من الآيات المدركة بالعيان والخبر..."^٥. وأنه سبحانه وتعالى لو تعسب في خلقهن أو

"حصل له شيء من ذلك لأدى إلى نقصان فيهما أو في أحدهما..."^٦. وفي هذا المفهوم للآية إشارتان،

أولهما: أن الخلق المحكم ظاهر للعيان، وينبغي أن تتأمله الأبصار والمدارك جيداً، وتفحص ما فيه من

^١ (العتوم: علم النفس المعرفي، ص: ٧٥.

^٢ (سورة الأحقاف، آية: ٢٣.

^٣ (تفسير الطبري: ٣٥/٢٦.

^٤ (تفسير السمعاني: ١٦٤/٥.

^٥ (البقاعي: أبراهيم بن عمر. نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١١٤/٧. دار الكتب العلمية،

بيروت. ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م. تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي.

^٦ (المرجع السابق.

كمال وجمال وإبداع، وتفحص أيضاً هل هناك من خلل في الصنع؟ وهذه الحاجة يقتضيها الاستفهام الإنكاري في الآية.

والثاني: التأكيد الوارد في قوله تعالى: (ولم يعي) فإن الإعياء تظهر سلبياته حين يتم فحص المصنوع واختباره جيداً. ولذا فإن نفي الإعياء في الخلق، باعث على تأكيد دافعية تدبر مخلوقات السموات والأرض بالبصر بما يملك الإنسان من حواس ومدارك. فإن توجيه الحواس والانتباه نحو المثيرات التي تستخدم عملية الإدراك، هي عملية في بالغ الأهمية. ذلك "لأن عملية الانتباه هي عملية مستمرة لاستمرار نجاح وفعالية عملية الإدراك، لذلك لا بد من توجيه الانتباه من خلال حركة الرأس والعينين والأذنين والأطراف إلى مصادر المثيرات البيئية لضمان استمرار عملية الإدراك بفعالية عالية".¹ وهو ما تلمح إليه الآية الكريمة، في لفت النظر إلى مخلوقات السموات والأرض، لتحقيق من خلاله تنمية فاعلية إدراك صورة الخلق، ولتتجلى عنه معرفة الحق في عظمة قدرة الله تعالى ووحدانيته. وهي منهجية تُثلى في التعامل مع المادة التعليمية، حيث يتطلب التّعلم أن يُوجّه المتعلم اهتمامه التام بمادة التعلم، ويفحص جزئياتها، جزءاً جزءاً، ثم يربط بينها لتكون لديه صورة متكاملة، تحقق له إدراكاً متكاملًا لتلك المادة.

¹ العتوم: علم النفس المعرفي، ص: ٧٥.

ثانياً: تأثير أساليب ممارسة التصدي للمدركات الحسية:

يقترّب مفهوم تأثير أساليب ممارسات التصدي للمدركات الحسية، من مفهوم تأثير أساليب تنمية فاعلية المدركات الحسية، في كون الاثنان يشتركان في الجهد المطلوب بذله لتحقيق العملية الإدراكية. ويفترقان في الوقت نفسه في كون ممارسات التصدي للمدركات الحسية يتطلب مزيداً من الجهد المقصود، بحيث تصبح عملية التصدي وسيلة منظمة لتحقيق هدف إدراكي معيّن.

وقد توصلت بعض الدراسات التجريبية إلى أنه "كلما طالت مدة الملاحظة ارتفعت حساسية جهاز الإبصار لدى المشارك".^١ وذلك يؤدي إلى "فعالية التعلم الإدراكي أو التدريب الإدراكي في تحسين الأداء الإدراكي عموماً، وإدراك الحركة على وجه الخصوص".^٢ وفيما يأتي تمت دراسة التوجيهات القرآنية التي تجلّى فيها مفهوم أساليب التصدي.

١. تنبّع وتنظيم المدركات.

يوجّه القرآن الكريم هذه الحاجة لدى الإنسان بالدعوة إلى التأمل الفاحص، وإعادة مراراً

ليتحقق الإدراك الأمثل، كما في قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ

الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾^٣.

وقد تمت الاستفادة مما دلّت عليه هذه الآية في مبحث سابق في كونها توجّه الأنظار نحو الحسوس، ليتوصّل الإنسان من خلالها إلى إدراك المعرفة المجردة. وأفادت في هذا الموضوع في توجيه الأبصار نحو تنظيم عملية التصدي لإدراك بدء الخلق. يتمثل ذلك في الدعوة إلى الإكثار من النظر في

^١ (أبو المكارم: أسس الإدراك البصري للحركة، ص: ٤٢.

^٢ (المرجع السابق.

^٣ (سورة العنكبوت، آية: ٢٠.

تحدد الخلق؛ فهو سنة مستمرة في حياة المخلوقات جميعها، ويتسنى للإنسان انتقاء ما شاء منها لإدراك أساليب بدء الخلق لكل منها. دلّ على ذلك قوله تعالى: (سَيُرَوُّ فِي الْأَرْضِ) فالسير في الأرض الشاسعة الأرجاء يسهّل عملية البحث عن أصناف لا تعدّ ولا تحصى من المخلوقات وطبيعة نشأتها وحياتها وتكاثرها. وسيرى المتتبع لذلك اختلاف طبيعة بدء الخلق في عدد من المخلوقات؛ فالإنسان يبدأ خلقه بقذف النطفة في الرحم وحدوث عملية تخصيب البويضة. والنبت يبدأ خلقه بغرس البذرة في التراب وبدء نموّها. والتمر يبدأ خلقه بانتقال حبوب اللقاح بين جنسي الشجر بواسطة السريح، ومنها ما يحتاج إلى غرس حبوب اللقاح في وسط أغصانه، كما يحدث في تلقيح النخل. وهناك أنواع لا تعدّ ولا تحصى في مسيرة بدء الخلق وتجدده. وهو مجال رحب للراغب في التصدي لهذا النوع من العلوم، وغيرها.

ومن هنا فإن المتعلم يتاح له الاستفادة من هذا المنهج في تحصيل المدركات الحسية بأسلوب منظم ومقصود يُنظّم بواسطته إدراك موضوع التعلم. وبالإمكان أن تُنظّم المناهج التربوية على هذا النحو، بحيث تُقدم مادة التعلم في شكل تسلسل منطقي يأخذ بيد السدارس للتوصّل إلى المعلومة الرئيسية بجهد ذاتي. ولهذا الأسلوب أهميته في العمليات التعليمية.

وفي قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ

كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ١.

يُلحظ مقارنة ما تشير إليه هذه الآية، لما أشارت إليه الآية السابقة؛ فإن الناظر في الآثار يستدلّ بها على الأحداث والوقائع. والملاحظ في قوله تعالى: (سنن) أن الدعوة إلى النظر ليست

¹ (سورة آل عمران: آية: ١٣٧).

مُوجَّهَةً إلى الاقتصار على إِبصار أثر واحد فحسب، ولكنها مُوجَّهَةٌ لتحقيق مزيد من المبركات البصرية، أي مزيد من الآثار الدالة على تعدّد الوقائع. وهو أمر يقتضي تتبع تلك الآثار ومعاينة ما يمكن معاينته منها. وقد قيل إن السنن تعني: "الأعلام والآثار. وحقيقة المعنى: أنها طرائق الله في الكفار: بقتلهم وسيبهم وتخريب ديارهم ونحوه".^١ وهذا المعنى يمثّل تلازماً بين طرائق الله تعالى في عقاب الكفار، وبين الأعلام والآثار التي تتخلف عن تلك الطرائق.

قال الطبري في تفسير الآية: "أي قد مضت مني وقائع نقمة في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي: عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين، فسيروا في الأرض تروا مثلات قد مضت فيهم".^٢ أما قضية إِبصار هذه المشاهد والآثار فإنها تتأكد في رأي من ذهب إلى: أنكم: "إذا سرتم في أسفاركم عرفتم أخبار المهالكين بتكذيبهم".^٣ والحكمة في ذلك أن الإنسان إذا "تأمل أحوال الكفار وإهلاكهم صار ذلك داعياً إلى الإيمان، لأن النظر إلى آثار المتقدمين له أثر في النفس".^٤ وحكي عن ابن عباس قوله: "وطلب السير في الأرض، وإن كانت أحوال من تقدّم تُدرك بالأنخبار دون السير، لأن الأنخبار إنما تكون بمن سار وعاین. وعنه يُنقل: فطلب منه الوجه الأكمل إذ للمشاهدة أثر أقوى من أئسر السماع... وقال الجمهور: النظر هنا من نظر العين".^٥

ويُعلّل ابن عاشور ضرورة النظر في الآثار بقوله: "...وأريد النظر في آثارهم ليحصل منه تحقق ما بلغ من آخرهم، أو السؤال عن أسباب هلاكهم، وكيف كانوا أولي قوة، وكيف طغوا على

^١ (النحاس: معاني القرآن: ٤٨٠/١.

^٢ (تفسير الطبري: ١٠٠/٤.

^٣ (الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد. زاد المسير في علم التفسير: ٤٦٤/١. المكتب الإسلامي، بيروت.

^٤ (الخازن: لِبَاب التَأْوِيل فِي مَعَانِي التَنْزِيل: ٤٢٤/١.

^٥ (الأندلسي: تفسير البحر المحيط: ٦٦/٣.

المستضعفين، فاستأصلهم الله. أو لتطمئن نفوس المؤمنين بمشاهدة المخبر عنهم مشاهدة عيسان، فإن للعيان بديع معني، لأن بلغتهم أخبار المكذبين، ومن المكذبين: عاد وثمود وأصحاب الأيكة وأصحاب الرّس، وكلهم في بلاد العرب يستطيعون مشاهدة آثارهم، وقد شهدها كثير منهم في أسفارهم. وفي الآية دلالة على أهمية علم التاريخ، لأن فيه فائدة السير في الأرض، وهي معرفة أخبار الأوائل...^١ إن جميع الآراء المذكورة في تفسير الآية الكريمة دالة على أهمية التصدي لتلك المدركات ومعاينة أحوالها، ومحاولة تنشيط العمليات الإدراكية الفاعلة في تحصيل المعارف المترتبة على ذلك التصدي، ذلك لأن الإنسان عندما ينتبه إلى "موقع مكاني معيّن، يكون هناك تعزيز أو تنشيط في العمليات العصبية في مناطق اللحاء البصري المتصلة بهذه الأماكن"^٢ كما أنه بإمكان "الناس اختيار منبهات يُعنون بها، إما في المجال البصري، أو السمعي، وعلى أساس خصائص طبيعية، وعلى الأخص على أساس الموقع، وبالرغم من أنّ الاختيار يعتمد على ملامح بسيطة يمكن أن تحدث بشكل مبكر وسريع في النظام المرئي، فليست كل الأشياء التي ينظر إليها الإنسان يمكن تحديدها في ضوء الملامح البسيطة..."^٣ وهذا يعني أن الآثار المذكورة في الآية الكريمة يمكن تحقيق معابقتها بأسلوب أمثل إذا ما تكرّرت تلك المعاينة، وقُصدت لأجل تحقيق إدراك صفتها وحقيقة أمرها. والتعرّف إلى شدة وقسّ الدمار فيمّ تبقى من مشاهد الخراب فيها. وذلك يقتضي الاهتمام، فإن أمر الاهتمام بالمشاهدات ضروري في توجيه الانتباه إليها، ولذا فإن التصدي للمدركات يعنى في أحد معانيه: الاهتمام بالمدركات. ويرى الباحثون أن "الانتباه للمثيرات يعتمد هو الآخر على عامل مهم هو اهتمام الفرد

^١ (الألويسي: التحرير والتنوير: ٩٧/٤.

^٢ (أندرسون: علم النفس المعرفي، وتطبيقات، ص: ١٢٤.

^٣ (المرجع السابق، ص: ١٢٤، ١٢٥.

بهذا المثير، فالمثير الذي يجلب اهتمام الفرد يجعل الانتباه له شديداً ومركزاً، وبالتالي حدوث عملية الإحساس بهذا المثير".^١

٢. تحقيق الوعي بالمدرجات.

قال تعالى: ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذِكْرًا وَنَعِيهَا أُذُنًا وَعِيَةً﴾^٢.

يُستفاد من هذه الآية أهمية التصدي للمدرجات السمعية المراد تحصيلها وتحقيق الإلمام بها في عملية التعلم. فإن الأذن الواعية قادرة على تلقي المسموع مع الاهتمام والانتباه الذي يبذله المتعلم لتحقيق الإدراك الأمثل كما مرّ معنا سابقاً.

وقد فسّر الطبري قوله تعالى: (أذن واعية) بأنها "حافظة عقلت عن الله ما سمعت".^٣ ووصفه هذا بأنها حافظة، وأنها عاقلة، لا شك يريد به المدرجات التالية للعملية الحسية التي تقوم بها الأذن، فإن الأذن ليس لها حافظة، سوى ما أثبتته التجارب بأنها ذات ذاكرة قصيرة بقدر نصف الثانية. وهي كذلك ليست عاقلة، فهي آلة تنقل المدرجات السمعية لمناطق أخرى في الجهاز العصبي، ثم تنتقل تلك المدرجات بدورها إلى الدماغ لتبقى في الذاكرة الطويلة التي تشكل البنى المعرفية لدى الإنسان. أما ابن عباس رضي الله تعالى عنه فقال: "أذن سامعة".^٤ فوصفها بما تمتلكه من قدرة السمع وتوجيهه نحو المسموع. وهذا المفهوم متضمن إشارة مهمة، وهي أن مفردة "سامعة" جاءت على وزن فاعلة، وهي بهذا المعنى، مترصدة للمسموع، متصدية له، معنية به. ووُصفت الأذن في الآية الكريمة أيضاً بأنها

^١ (رشيد: الإدراك والإدراك الحسي الفائق، ص: ٢٠).

^٢ (سورة الحاقة، آية: ١٢).

^٣ (تفسير الطبري: ٥٥/٢٩).

^٤ (المرجع السابق).

"أذن المؤمن، سمع التذكرة فوعاها بقلبه".^١ لأن الإيعاء يعني "حفظ الأمتعة في الوعاء".^٢ وقيل في قوله تعالى: (وتعيها أذن واعية): "عبارة عن الرجل الفهم المنور القلب الذي يسمع القول فيتلقاه بفهم وتدبر".^٣ وهذه المعاني كلها تفيد أن الأذن الواعية هي تلك الأذن التي تتصدى لما تسمع. يرادفها في ذلك اهتمام وانتباه يعمل على تحقيق الوعي بالمسموع وفهمه.

ومن خلال بعض التجارب التي أجريت على عدد من المفحوصين حول مدى قدرة الفرد في تتبع المسموع وفهمه، اتضح أن الإرادة الشخصية هي التي تحدد ما يجب الإنسان أن يسمعه، وإن لم يكن للمسموع دلالة معنوية محددة، بمعنى أنه قد يعترى المسموع تهميش أو غسره، ورغم ذلك يستطيع السامع المهتم به أن يدرك ما سمعه. قال جون أندرسون: "يقوم بعض المفحوصين بتحويل الأذن على عكس التعليمات، ويستمر في تتبع الرسالة ذات المعنى، والبعض الآخر يستمر في تتبع الأذن التي يتم فيها التهميش، وهكذا يبدو أن الناس تستخدم أحياناً الملامح الحسية في اختيار الرسالة التي سيتم تتبعها، وأحياناً أخرى يختارون مضمون الدلالة اللفظية".^٤ وفي ذلك دلالة على أن التصدي للمدركات الحسية له أثر في تحصيلها بدرجة أكبر.

٣. تحقيق قصد السماع.

قال تعالى: ﴿وَأَنَا أَخْبَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾ (١٣).

^١ (ابن أبي زمنين: ٢٧/٥.

^٢ (النكت والعيون تفسير الماوردي: ٨٠/٦.

^٣ (ابن عطية الأندلسي: عبد الحق بن غالب. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٣٥٨/٥. دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.

^٤ (أندرسون: علم النفس المعرفي وتطبيقاته، ص: ١١٥.

^٥ (سورة طه، آية: ١٣.

وفيها توجيه نحو تحقيق التصدي للمسموع؛ فإنه سبحانه وتعالى لما أراد لسيدنا موسى عليه السلام أن يُوجّه سمعه لقول الحق تبارك وتعالى، أشعره بالقول أولاً: (وأنا اخترتك) ثم أمره بتوجيه السمع بقوله: (فاستمع لما يوحي) "فكانه قال: لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له، واجعل كل عقلك وخطرك مصروفاً إليه".¹ وحول هذا المعنى قال القرطبي: "حسن الاستماع كما يجب قد مدح الله عليه، فقال: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

وَأُولَئِكَ هُمُ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾...² فمدح المنصت لاستماع كلامه مع حضور العقل، وأمر

عباده بذلك أديباً لهم، فقال: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾".³ وقال هاهنا: (فاستمع لما يوحي) لأن بذلك ينال الفهم عن الله تعالى. روي عن

وهب بن منبه أنه قال: من أدب الاستماع سكون الجوارح وغيض البصر والإصغاء بالسمع وحضور العقل والعزم على العمل، وذلك هو الاستماع كما يجب الله تعالى، وهو أن يكفّ العبد جوارحه ولا يشغلها فيشتغل قلبه عما يسمع، ويغض طرفه فلا يلهو قلبه بما يرى ويحصر عقله فلا يحدث نفسه بشيء سوى ما يستمع إليه ويعزم على أن يفهم فيعمل بما يفهم".⁴

يُلاحظ فيما ذكره القرطبي توضيحا لما تتطلبه عملية السمع المتقن، ولكيفية تحقيق قدرات أكبر للسمع، وهي عوامل مؤثرة، ولها أهمية بالغة في عملية التعلم عموماً، وتعلّم اللغات على وجه الخصوص. كما يُلاحظ فيما ذكره وهب بن منبه أن الاستماع مهارة تتطلب إجراءات معينة يتحقق

¹ (التفسير الكبير: ١٧/٢٢.

² (سورة الزمر، آية ١٨.

³ (سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.

⁴ (تفسير القرطبي: ١٧٦/١١.

من خلالها تعلم أكبر، وفهم أفضل. ومن هذه الإجراءات أن يكون السامع قاصداً توجيه سمعه وانتباهه لما يسمع. حريصاً على ذلك. وسيأتي في مبحث لاحق أهمية تحقيق مهارة الاستماع وإجراءاتها.

٤. تحقيق استمرارية قصد السماع في عملية التلقي.

يتجلى مفهوم التصدي للمدرجات الحسية بصورة واضحة في تحقيق استمرارية قصد

السماع، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴿٢٠١﴾

فآية الكريمة تحث على توجيه السامع إلى آيات الكتاب العزيز حين تتم تلاوتها بصوت مسموع. ويتضمن مفهوم الآية كذلك توجيهاً نحو تحقيق هذا الأمر كلما تمت التلاوة، وكلما انطلق قارئ القرآن بتلاوته. وهو مفهوم متصل تمام الاتصال بمعنى التصدي للمدرجات السمعية. وإذا كان الأمر كذلك فإن هذا المعنى يقودنا إلى القول بأهمية تطبيق كيفية هذا التصدي - أي بالمعنى الوارد في الآية الكريمة - تجاه ما ينبغي الوعي به من المدرجات السمعية الأخرى، أي من العلوم والمعارف التي يحتاج المتعلم إلى اكتسابها. وعملية الاكتساب تقتضي محاولة تحقيق الاستيعاب الأمثل. ويُعبرُف الاستيعاب بأنه: "القدرة على التركيز على النقاط الرئيسية في حديث الطرف الآخر وفهم ما يقوله والقدرة على الاهتمام بالنقاط الرئيسية دون الغرق في التفاصيل وأخذ بعض الملحوظات من الرسالة التي يود توصيلها لك الطرف الآخر.. وهي عملية فهم المعاني والأفكار. وتتأثر هذه المرحلة بالخبرات والمستوى الثقافي والحالة النفسية للمستقبل وكذلك المعلومات الأخرى المساعدة والتي تصل للمخ من

¹ (سورة الأعراف، آية: ٢٠٤).

حاسة البصر والتي تنقل الإشارات غير اللفظية المصاحبة للرسالة".^١ ويؤخذ من هذا الأسلوب منهجية في تحقيق إدراك أفضل، فإن اتباع مثل هذه المنهجية وما شابهها يقدم للمتعلم قدرات إدراكية أكبر.

ويضاف لذلك ما ينبغي تجنبه من معوقات السمع، مثل:

١. وجود الصخب والضوضاء.

٢. المقاطعات من الآخرين.

٣. عدم توافر مناخ هادئ للمناقشة والاستماع.^٢

وتتضح أهمية استمرارية التصدي للمدركات السمعية في قوله تعالى: ﴿وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ

مِنْهَا مَقْعُدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمِعْ آلَانَ يَجِدْ لَهُ شُهَابًا رَّصَدًا ۗ﴾^٣

هذه الآية الكريمة تحكي ممارسات الجن في استراق السمع من السماء، فكانوا يستمعون

لكلام الملائكة "ما يقولون فيما بينهم من الكوائن".^٤ وكانوا قد جعلوا لأنفسهم مقاعد للسمع. وهذا

يفيد بأن استماعهم كان متواصلًا، وترصدتهم لما يُقال بين الملائكة متكرراً. ويتأكد ذلك بقولهم:

﴿وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَهَا مِلْئًا حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَابًا ۗ﴾^٥ واللمس في الآية

الكريمة بمعنى: "طلبنا بلوغ السماء واستماع كلام أهلها".^٦ وهذا الطلب يفيد الرغبة المستمرة في

استراق السمع. إضافة إلى أن تلك المقاعد هي مواضع معهودة لديهم لتحقيق السماع. جاء تفسير

^١ عبد الجواد: محمد أحمد. هل تسمعني، كيف تتصت بفاعلية وتفهم ما وراء الكلمات. ص: ٢١

^٢ (المرجع السابق. ص: ٦٥.

^٣ (سورة الجن، آية: ٩.

^٤ (تفسير السمرقندي: ٤٨١/٣.

^٥ (سورة الجن، آية: ٨.

^٦ (الزمخشري: الكشاف: ٦٢٦/٤.

ذلك بمعنى: "مواضع تقعد في مثلها لاستماع الأخبار من السماء. وللسمع متعلق يتقعد، أي لأجل السمع، أو بمضمهر هو صفة لمقاعد، أي مقاعد كائنة للسمع. والمقاعد جمع مقعد: اسم مكان، وذلك أن مردة الجن كانوا يفعلون ذلك ليسمعوا من الملائكة أخبار السماء فيلقونها إلى الكهنة فحرسها الله سبحانه ببعثة رسوله صلى الله عليه وسلم بالشهب المحرقة".¹ وهذه الحالة من المواظبة على الترصده لما يُقال من الكلام، وتحقيق سماعه، تبرز صورة التصدي، وقصده، لتحقيق غايات معرفية ينتفع بها الكهنة في ادعاء معرفة الغيب وأحوال المستقبل.

ومن هنا يتضح أن التصدي للمدرجات السمعية والمواظبة على تنظيم التحصيل عن طريقها، يُعدّ سبيلاً من السبل التعلّمية التي تساعد المتعلم على تحصيل المادة، فإن المدرجات السمعية لها خصوصية في تحقيق الإدراك، إذا تم الاعتماد عليها منفردة تارة، والاعتماد عليها وعلى الإدراك البصري تارة أخرى. وبإمكان المتعلم أن يهب نفسه فرصة يُسمع فيها نفسه ما تم تحصيله أولاً بالقراءة، ثم يعيده عن ظهر قلب، بصوت مرتفع، ليتحقق الحاسة السمع القيام بوظيفتها منفردة. فمن المعروف أن انفراد إحدى الحواس بالإدراك يهبها قدرة مضاعفة عما تمتلكه من قدرة إدراكية حين مشاركة الحواس الأخرى لها. وهذا يشبه ما ذكر في موضع سابق عن عملية التعويض التي تقوم بها الأذن في حالة فقد البصر.²

¹ (الشوكاني: فتح القدير: ٣٠٥/٥.

² (انظر ص: ٧٦.

ثالثاً: تأثير أنواع وأحجام وألوان وطبيعة المدركات الحسية:

قبل الحديث عن تأثير أنواع وأحجام وطبيعة المدركات السمعية والبصرية، يجدر إيراد ما جاء حول نظرية ابن الهيثم في الإبصار، فقد: "استطرد ابن الهيثم في نظريته على أساس المعاني التي لا يتم الإبصار إلا بها، وهي: أن يكون الجسم المرئي مضيئاً بذاته، أو بإشراق ضوء من غيره عليه، وأن يكون بين الجسم المرئي والعين بُعد ماء، وأن يكون الوسط الفاصل بينهما مُشَفَّافاً، وأن تكون المرئيات ذات حجم وكثافة يسمحان للعين بإبصارها، وأن تكون العين خالية من عيوب الإبصار".^١ إن المعاني التي تحدث ابن الهيثم عنها تضمنت بياناً لتأثير الضوء واللون والحجم والمسافة في الإدراك البصري. وفي بعض مواضع من آيات الكتاب العزيز وُجِدَت مؤشرات لهذه المعاني، تم إيرادها فيما يأتي.

١. تأثير النوع والحجم والطبيعة:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ

﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾.

تضمنت هذه الآية ذكر مخلوقات أربعة تتباين في الشكل والحجم واللون والطبيعة. فشتان ما بين حجم الإبل وحجم الجبل، وكذا شتان ما بين حجم الأرض وحجم السماء. وكذا ما بينها جميعاً، فكل واحدٍ منها في حجم مستقل، وبينه وبين الآخر بونٌ كبير في الحجم واللون والطبيعة وغير ذلك. إن طبيعة كل واحدٍ منها تختلف عن الآخر؛ فالإبل خلقها الله تعالى، وذللها ومكَّنّها من القدرة

^١ (http://213.230.15.195/sosnew/section/full_story.cfm) الجمعية السعودية

لطب العيون. تم الدخول للموقع بتاريخ: ٢٠/٣/٢٠٠٩م.

^٢ (سورة الفاشية، آية: ١٧ - ٢٠.

على حمل الأحمال وهي باركة، ثم النهوض بها قياماً^١ وسخرها لمنافع شتى. "وقيل: لأنها في عظمة تلين للحمل الثقيل، وتنقاد للقائد الضعيف حتى أن الصبي الصغير يأخذ بزمامها فيذهب بها حيث يشاء...".^٢ أما السماء ففي خلقٍ مختلف، وصفاء وأتساع يستوعب المسخرات من المخلوقات الأخرى - كالنجوم والشمس والقمر والسحب- لتكون خلفية تهب الجمال، وتهب رحابة شاسعة للنظر والتأمل والتدبر، وغير ذلك من المنافع. وأما الجبال التي جعلها الحق تبارك وتعالى في طبيعة تُلهم الإحساس بالشدة والصلابة والصمود، فهي مخلوقة لمنافع شتى.

جاء في تفسير قوله تعالى: (وإلى الجبال كيف نصبت) "...كيف أقيمت منتصبة، لا تسقط فتنبسط في الأرض، ولكنها جعلها بقدرته منتصبة جامدة لا تسرح مكافها، ولا تسزول عن موضعها... عن قتادة:... تصاعد إلى الجبل الصيخود عامة يوماً، فإذا أفضت إلى أعلاه أفضيت إلى عيون متفجرة وثمار متهدلة، ثم لم تحرثه الأيدي، ولم تعمله، نعمة من الله وبلغة الأجل".^٣ وأما الأرض فهي "مهاد للمتقلب عليها".^٤ ومعيشة لا بد منها، وماوى لا عيش بدونه.

فهذه طبائع تختلف في أشكالها وألوانها وصفاتها وأحجامها. ومع ذلك كله فإن تلك المخلوقات جميعها تمثل مشاهد مألوفة لمن نزلت عليهم آيات الكتاب العزيز "فالقوم كانوا أصحاب البوادي لا يرون شيئاً إلا السماء والأرض والجبال والجمال... فأمرهم بالنظر في هذه الأشياء...".^٥

^١ (انظر تفسير الطبري: ١٦٥/٣٠. بتصريف.

^٢ (الثعلبي: أحمد بن محمد بن ابراهيم النيسابوري. الكشف والبيان. تفسير الثعلبي: ١٨٩/١٠. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م. تحقيق: أبو محمد بن عاشور.

^٣ (تفسير الطبري: ١٦٥/٣٠.

^٤ (الزمخشري الكشاف: ٧٤٧/٤.

^٥ (تفسير القشيري: ٤١٧/٣.

قال الزمخشري في تعليل مناسبة ذكر هذه الأربعة معاً: "فإن قلت: كيف حسُن ذكر الإبل مع السماء والجبال والأرض، ولا مناسبة؟ قلت: قد انتظم هذه الأشياء في نظر العرب، في أوديتهم وبواديهم، فانتظمها الذكر على حسب ما انتظمها نظرهم".¹ وذكر الزركشي اختلاف طبائع تلك المخلوقات المذكورة في الآية الكريمة من خلال ذكر الفوائد التي ينالها الإنسان عموماً، والعسري خصوصاً آنذاك من هذه الكائنات، فقال: "فإنه يقال: ما وجه الجمع بين الإبل والسماء والجبال والأرض في هذه الآية؟ والجواب أنه جمع بينها على مجرى الإلف والعادة بالنسبة إلى أهل الوبر، فإن كان انتفاعهم في معاشهم من الإبل فتكون عنايتهم مصروفة إليهما، ولا يحصل إلا بأن ترعى وتشرب، وذلك بنزول المطر، وهو سبب تقلب وجوههم في السماء، ثم لا بد لهم من مأوى يؤويهم وحصن يتحصنون به، ولا شيء في ذلك كالجبال، ثم لا غنى لهم لتعذر طول مكثهم في منزل عن التنقل من أرض إلى سواها. فإذا نظر البدوي في خياله وجد صورة هذه الأشياء حاضرة فيه على الترتيب المذكور".²

وإن كانت تلكم هي مناسبة ذكر هذه الأربعة معاً في الآية الكريمة، فإن المناسبة التربوية في ذكرها تضيف لذلك مفهوماً جديداً يتضح في معالم تلك المخلوقات، ويبين المقاصد التربوية في جمعها على ذلك النحو المتباين. وفيما يأتي تمّ إيضاح ذلك.

تظهر الإبل في ألوان مختلفة: الأسود والبني الغامق والفاتح. والأورق³ كما ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهي مع ذلك يختلف لونها عن لون السماء والأرض والجبال. وتظهر السماء

¹ (الزمخشري: الكشاف، ٧٤٧/٤).

² (الزركشي: محمد بن بهادر بن عبد الله البرهان في علوم القرآن: ٤٥/١. دار المعرفة، بيروت. دط. ١٣٩١هـ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم).

³ (قال ابن منظور: الأورق من الإبل: الذي في لونه بياض إلى سواد. انظر مادة: (ورق). لسان العرب: ٣٧٦/١٠. دار صادر، بيروت).

في لون الزُّرقة التي تحصل للأَنْظار بسبب عوامل متعلقة بالغلاف الجوي المحيط بالأرض. وتظهر الجبال في ألوان مختلفة كذلك. قال تعالى: ﴿... وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ

أَلْوَانُهَا وَعَرَوْنَهُمْ سَوْدٌ ۝٢٧﴾^١. والأمر نفسه بالنسبة للأرض بما تحتويه من مناطق متعددة الأشكال والألوان والطبائع. وهذه المخلوقات، لكل واحد منها أبعاد مخصصة ذات أثر في الإدراك البصري لها، وهو أمر له أهميته في قضية الإدراك، فقد "تمّ التّوصّل إلى أنه في تناول مثير ما يجب ألا نضع في الاعتبار الأبعاد المختلفة للمثير فقط، بل ننظر بعين الاعتبار كذلك إلى خصائص كل بعد من أبعاده حتى يكون التحليل والتناول شاملاً وعميقاً..."^٢. وبهذا المعنى يتضح للناظر إليها، التباين في الخلق والشكل واللون والطبيعة. وهو تباين يهب المدركات الحسية معاني تربوية توجّهه النفس الإنسانية نحو مقاصد ربانية فيها تهذيب للنفس والعقل والقلب والسلوك، وفيها تربية للمدارك وتنمية للحس الذوقي والفني. وفي الوقت نفسه يُلاحظ أن إيراد هذه المخلوقات على النحو المذكور في الآية، مرتباً ترتيباً تربوياً يُفصح عن أهميتها في ترتيب وتنظيم المادة التعليمية. ذلك لأن المادة التعليمية حينما تُقدّم للمتعلم، ينبغي أن تتخذ صوراً وأشكالاً تساعد على فهمها واستيعابها. ويظهر في الآية الكريمة عدداً من تلك الصور، يمكن إيرادها فيما يأتي:

١. تنظيم المحتوى في صورة تدرج منطقي وتسلسل ذهني، تساعد على استيعابها وفهمها، فالنفس الإنسانية بحاجة إلى أن تألف المعرفة شيئاً فشيئاً. والتسلسل المنطقي الوارد في الآية يظهر فيما تُخبر الآية عنه من مخلوقات متفاوتة في أمور عدة، ورُغم هذا التفاوت فإن خالقها ومدبرها واحدٌ لم يُعجزه خلق الصغير الحجم منها، وخلق العظيم، فكلاهما مخلوقات له سبحانه

^١ (سورة فاطر، من الآية: ٢٧).

^٢ (الشرقاوي: الإدراك في نماذج تكوين وتناول المعلومات ١ - ٤، ص: ١٥).

وتعالى. والتسلسل المنطقي يظهر في كيفية عرض تلك المخلوقات، فالإبل ذُكر بعدها السماء، وبينهما فارق عظيم في الحجم. وذلك الفارق يحرك المشاعر، لما تحكم به الفطرة عند سماعه، فخالق الإبل وخالق السماء واحد، ومع ذلك ارتبط بعضهما ببعض في جملتين، عطف إحداهما على الأخرى، يضاف لذلك أن ورودها بدء فيه بذكر الأصغر ثم الأكبر، وفيه لفظة جميلة، حيث البدء بما كانت منفعتها أقرب للإنسان. أما التعقيب بعرض الجبال ثم الأرض، ففيه أيضاً تسلسل منطقي، للصلة الوثيقة بين هذين المخلوقين، فالأرض لا تستغني عن وجود الجبال، لتثبيتها ولمنافع أخرى تؤديها. وهذا التلازم الذي يظهر فيه ذكر الجبال أولاً وهي بمنزلة النافع، ثم ذكر الأرض، وهي بمنزلة المنتفع. كل ذلك متضمن لمحة تربوية، فالناظر لتلك المخلوقات، السامع لذكرها على ذلك النحو، يستلهم في ذلك صلوات إيمانية، واعتبارات نفعية، وقيمة نفسية ومعرفية.

٢. التنوع في شكل وحجم المادة، فالسامع لهذه الآية، حينما تنتقل به من حجم معين، وهو (الإبل) إلى حجم غير معين وهو (السماء)، ومن شكل الانتصاب، وهي (الجبال) إلى شكل الانبساط، وهي (الأرض). فهذا التنوع له أثر في تحقيق التلقي على وجه أفضل. فالتنوع في مادة التعلم يتطلب إضفاء نوع من شدة الإثارة فيها، فإن "المثيرات الشديدة القوة من حيث الألوان أو الروائح أو الصوت أو الضوء أو الحركة، تعمل على جذب الانتباه للمثير بسرعة عالية. فالناس يستجيبون بسرعة أعلى إلى المثيرات الشديدة القوة والمفاجئة والمتحركة والمتغيرة أكثر من المثيرات المنخفضة القوة والمهذبة والمتوقعة والثابتة...".^١

^١ (العتوم: علم النفس المعرفي، ص: ٧٧.

ولا يعني ذلك خلوّ تلك المخلوقات من مثل هذه الإثارة، فإن إثارتها ليست في شدة حركتها أو تغيرها أو ثباتها أو هدوئها، ولكن الإثارة تكمن في سرعة لفت الأنظار من مخلوق إلى غيره، مما هو متباين في الشكل والحجم والنوع والمنافع. بمعنى جمعها معاً في آية واحدة، وهي على هذا النحو من الاختلاف. والله تعالى أعلم.

٣٠. التنوع في طبيعة المادة، فقد اختلفت طبائع المخلوقات المذكورة، وتنوّعت، فذاك حيوان، وتلك سماء، وبعدها جبال، ثم أرض. ليتحقق للسامع لها والناظر إليها، إدراك ذلك التنوع، بحسب ما تقتضيه طبيعة كل واحد منها.

وهذه القضايا تدعو للإفادة مما توصلت إليه الدراسات المعاصرة حول موضوع المعالجات الإدراكية البصرية، وهي معالجات متعددة الطرق، ويمكن أن تؤثر على النواحي النفسية والسلوكية للإنسان. اتضح مؤشرات ذلك فيما تم إيرادها من تفصيل حول تلك الطرق فيما يأتي.

توصلت الدراسات المعاصرة إلى أن الجهاز البصري لدى الإنسان يستخدم "عدة طرق لعلاج مكونات الشكل وإدراكه"^١. وقد تم إيراد ثلاث طرق^٢ منها، لصلتها بالموضوع:

١. طريقة تحليل الشكل إلى مكوناته الأساسية: هذه الطريقة يتم من خلالها إدراك مكونات الشكل الجزئية، التي تُشكل مجموعها فيما بعد صورة متكاملة للشكل المدرك، فتتطبع في الدماغ صورة ثابتة لهذا الشكل. وذلك يفيد بأن إدراك الأشكال على صورها الواقعية وثبات هذا الإدراك يؤثر في النفس بما يهبه للناظر من ثقة في إحكام الصنع أو عدمه، ولا يخفى ما لهذه الثقة من تأثيرات أخرى.

^١ (علي وفائقة: الإدراك الحسي السمعي والبصري، ص: ٨٩.

^٢ (المرجع السابق. تم التصرف فيها إلا بعض العبارات التي لزم تركها على النحو التعبيري الواردة فيه لضرورة ذلك، وتم تمييزها بمعقوفتين. انظر: ص: ٨٩ - ٩٤.

٢. طريقة المعالجة وفقاً للبيانات مقابل المفاهيم: وهو ما تتلقاه "المستقبلات الضوئية للمعلومات الأساسية عن هذا الشكل، مثل الملامح المميزة له، واتجاه الخطوط إن وجدت واختلاف الإضاءة والألوان، ودرجة النصوص، والعلاقة المختلفة بين مكونات الشكل" فهذه تمثل بيانات مهمة تحدث في شبكية العين ثم تنتقل للقشرة المخية لتتفاعل مع "الخبرات السابقة والاستراتيجيات التنظيمية العامة وتوقعات الفرد المبنية على معرفته بالبيئة المحيطة وبالأحداث السابقة وبالسياق الذي يوجد فيه هذا الشكل...". وهذا التفاعل يمثل مرجعية يحكم الإنسان من خلالها على ما يدركه في المجال البصري، فيستطيع التعرف على قيمة الشيء المدرك، ومدى نفعه. وكذا يستطيع الحكم على أهميته، وهو أمر مطلوب لتحقيق إدراك أفضل؛ ذلك لأن الجهاز البصري يعمل بدرجة أفضل حين يتم الانتباه للشيء المدرك، فحينها يتم "تجميع وتكامل الملامح هذا الشكل وإدراكه بناء على توقعات الفرد وخبراته السابقة". ومن الضرورة بمكان أن تتحقق الطريقتان المذكورتان لتكامل الإدراك، فإن تحقق إحدهما دون الأخرى يعني "أن الفرد لم يتمكن من الاستفادة من خبراته الهائلة بالمنبهات البصرية لتعزيز عملياته الإدراكية، خاصة في المواقف التي تكون فيها هذه الخبرات ضرورية للتمييز بين المعلومات التي تستقبلها الشبكية المرتبطة وغير المرتبطة بالشكل المدرك".

٣. طريقة المعالجة الجزئية مقابل المعالجة الكلية: إن الملامح الجزئية في الشكل المدرك تمثل أجزاءً منفصلة عن بعضها بعضاً، ولكن بتجميع موضوعاتها، أي باعتبار كونها مجموعة من الملامح المترابطة التي تكون ملامحاً كلية، يمكن أن يكون ذلك الاعتبار "هيئة عامة للشكل، تعطي له معنى إدراكي".

إن طرق المعالجات المذكورة، وذلك الإدراك المتنوع في طبيعته لا يعني انفراد أحد المدركات المذكورة في الآية الكريمة، بطريقة دون غيرها من الطرق، فإن الطرق جميعها تعالج الإدراك البصري في جميع أحواله. وذلك يعني أن الآية الكريمة تدعو للنظر إلى تلك المخلوقات، وتتضمن في دعوتها وفيما تدعو للنظر إليه، مراعاة جوانب عدة لدى الإنسان من حيث قدراته الإدراكية البصرية، وما تتصف به تلك القدرات من سمات يتمتع الإنسان بها حين تتم المعالجات الإدراكية لديه تجاه شيء ما.

٢. تأثير اللون.

قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَدْعُ لِنَارِكَ يُبَيِّن لَنَا مَا لَوْهَاهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا

بَقْرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْهَاهَا تَسْرُّ النَّظِيرِينَ ﴿٦٩﴾ ^١. وقال سبحانه: ﴿ وَرَزَقَ يَدَهُ فَإِذَا

هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ ^٢.

قال الطبري في معنى قوله تعالى: (صفراء فاقع لوهها تسر الناظرين): "أي صافٍ

لوهها... تعجب هذه البقرة في حسن خلقها ومنظرها وهيبتها الناظر إليها".^٣ وقال ابن عباس: "شديدة

الصفرة، تكاد من صفرتها تبيض".^٤ وقال الثعلبي: "لأن العين تُسرُّ وتولع بالنظر إلى الشيء الحسن".^٥

وفي قوله هذا إلماح إلى تأثير اللون في النفس. وأشار لذلك "الملاوردي" أيضاً فقال: "فيه وجهان:

^١ (سورة البقرة، آية: ٦٩).

^٢ (سورة الشعراء، آية: ٣٣).

^٣ (تفسير الطبري: ٢٣٨/١).

^٤ (المرجع السابق).

^٥ (تفسير الثعلبي: ٢١٧/١).

أحدهما: تعجب الناظرين بصفرتها، فتعجب بالسرور، وهو ما يتأثر به القلب، والفرح ما فرحت به العين... الثاني: حسن سميتها، وُصفت بذلك ليكون ذلك زيادة على شرط في صفتها...¹ وذكر الفخر الرازي المراد بالسرور، فقال: "وأما السرور فإنه حالة نفسانية تعرض عند حصول اعتقاد أو علم أو ظن بحصول شيء لذيذ أو نافع".² هذا مجمل ما ورد حول اللون المذكور في الآية الكريمة، والتأثير الناتج عنه في نفس الناظر.

أما قوله تعالى: (بيضاء للناظرين) فورد فيه أنه "يتعجب ويتحير منها الناظرون، ويقال: إن البياض من غير برص، لأن الناس يكرهون النظر إلى الأبرص، فأخبر أن ذلك بياض ينظرون إليه".³ وقال البيضاوي: "أي بياضاً خارجاً عن العادة، تجتمع عليه النظارة، أو بياضاً للنظار، لا أنها كانت بيضاء في جبلتها".⁴ وقال ابن عاشور: "بياضها مما يقصده الناظرون لأعجوبته... وهذا يفيد أن بياضها كان واضحاً بيناً مخالفاً لون جلده بصورة بعيدة عن لون البرص".⁵

إن الآراء المذكورة في تفسير الآيتين الكريميتين تكاد تجتمع حول تأثير اللون على البصر، من حيث إمكان رؤيته بوضوح. وكذلك حول تأثير اللون على النفس من حيث ما يعتريها من سرور أو عجب أو نحو ذلك مما يثيره اللون. وهذا بدوره يؤثر في مدى تقبل اللون، ومدى إقبال النظر عليه رغبة أو نفوراً. وذلك يدعو إلى القول: إن ألوان المدركات تُعدّ عاملاً من العوامل المؤثرة في الإدراك البصري، وبالتالي تُعدّ وسيلة من الوسائل التعليمية المهمة.

¹ (الماوردي: النكت والعيون تفسير الماوردي: ١٤٠/١).

² (الرازي: التفسير الكبير: ١١١/٣).

³ (تفسير السمرقندي: ٥٥٢/١).

⁴ (تفسير البيضاوي: ٤٦/٣. دار الفكر، بيروت. دة. دة).

⁵ (الألوسي: التحرير والتنوير: ١٢٤/١٩).

يؤيد هذا زيادة اهتمام الباحثين بدراسة إدراك الألوان؛ فإن ذلك يرجع " لما أشار إليه بعض العلماء بأن الجهاز البصري لدى الإنسان يقوم بمعالجة معلومات الألوان بشكل أفضل من معالجته للمعلومات البصرية الأخرى، كما يذكر هؤلاء العلماء أيضاً أن الألوان تساعد الجهاز البصري في التعرف على المنبهات البصرية وتحديد ملامحها وشكلها وموقعها...".^١ ومن ذلك أن اختلاف مضمون اللون عن خلفيته أو إطاره، بمعنى أن يكون المضمون بلون، والخلفية أو الإطار بلون آخر، وزيادة كثافة أحدهما دون الآخر. فإن ذلك الاختلاف يهب كلا منهما صفة جمالية أو غيرها من الصفات، يكون لها أثر في العملية الإدراكية، وذلك ما يشار له في الدراسات المعاصرة بتأثير البيئة المحيطة، ويسمى بـ "الحث البصري". ففي عرض للون الأسود والرمادي قال "علي وفائقة": "إن كثافة الخلفية واللون ربما يؤثران على لون وكثافة العناصر فيها بالنسبة لمعظم الناس: اللون الرمادي المحاط بالأسود يبدو إلى حد ما أكثر إشراقاً وبريقاً. هذا التأثير يسمى بالحث البصري".^٢

ولو عدنا لفهم الآيتين الكرمتين سنجد أن أحدهما تتضمن إشارة إلى حجم تأثير اللون في الإدراك البصري. لا سيما إذا اتضحت مناسبة الآية، فهي واردة لتلبية إلحاح وسؤالات متعددة لسبي إسرائيل. فكان المولى جل وعلا أراد أن يبين لهم اللون والصفة بشكل قاطع لا شك فيه ولا تردد. بل ولا يختلف فيه إدراك بصري لأحدهم عن الآخر. لتتفق كلمتهم على كون البقرة التي بتلك الصيغة هي المعينة للذبح، ليس سواها مطلقاً. فيكون أمراً لا زماً لا مفرّ لهم منه، ولا عذر لهم فيه. أما قوله تعالى: (فإذا هي بيضاء للناظرين) فيُلاحظ - كما جاء في تفسير ابن عاشور: "أن بياضها كان واضحاً

^١ (علي وفائقة: الإدراك الحسي السمعي والبصري، ص: ١٠٧.

^٢ (Vb.adma1.com/t43932.html . الإدراك الحسي، ما هو وما عوامله. تمّ الدخول للموقع بتاريخ: ٢٥/٥/٢٠٠٩م.

بيئاً مخالفاً لون جلده بصورة بعيدة عن لون البرص"^١ - يُلاحظ أن هذا الاختلاف بين البياض النفسي الباهر العجيب المونس للنظر لقوله تعالى: (لِلنَّاطِرِينَ) لا العكس. وبين السمرة التي كانت تمثل صفة لبشرة سيدنا موسى عليه السلام. هذا الاختلاف البديع المحكم الذي يهب الناظر إليه إدراكاً يقينياً أن اللون الأول له معنى، واللون الآخر له معنى آخر، فالسمرة هي اللون الحقيقي، والبياض هو اللون الحامل لوجه الإعجاز. وفيه إثارة للنفس وتربية، فهبا ثقة بأن ذلك صنع خارق، فهو إذن صنع رباني وليس بشري. وفيه تأثير على درجة الإدراك البصري. ويمكن أن يُستفاد من كيفية ذلك التأثير في تقديم المادة التعليمية المؤثرة في المتلقي.

ويُفترض لتحقيق ذلك أن تُستحدث وسائل تعليمية بألوان متنوعة، وذات فاعلية تُقدّم فيها

المادة العلمية بأساليب مننظمة.

^١ (الألوسي: التحرير والتنوير: ١٢٤/١٩).

الفصل الثاني

الآليات الإدراكية للحواس في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: تحقيق الإطار المعرفي للمدركات الحسية.

المبحث الثاني: تكرار السلوك الإدراكي.

المبحث الثالث: التركيز على النماذج الفعالة في سلوك المتعلم.

المبحث الأول

تحقيق الإطار المعرفي للمدركات الحسية

يرى علماء النفس أن الإطار المعرفي للمدركات لا يقتصر على أثر الشيء المدرك، أو آثار عدة أشياء مدركة، ولكنه نوع من أنواع تنظيم المدركات، يكتسبه الإنسان بعد تحصيل وفرة منسها، فينعكس ذلك على سلوكه، ولذا فإن الأطر المعرفية تمثل مرجعاً لتحقيق توافق الإنسان مع بيئته ومجالات حياته.

وهذه هي إحدى الغايات التي يدعو القرآن الكريم إليها من خلال توجيه السمع والبصر للإكثار من تحصيل الخبرات الإدراكية، ذات التأثير الإيجابي، وتوظيف السمع والبصر في الاستفادة من المدركات، سواء كانت الدعوة للإفادة من المدركات الكلية، مثل الكون والعالم الشاسعة الأرجساء. أم المدركات الجزئية، مثل الشجر، والثمر، ونحو ذلك أو المدركات الدالة على معلومات معينة.

ويضاف لتلك الغاية -وهي تحقيق توافق الإنسان مع بيئته ومجالات حياته- غايات أخرى تتمثل فيما تضمّنته آيات الكتاب العزيز من توجيه الناظرين إلى المخلوقات لتحقيق الإيمان اليقيني بالله، ولتوجيه إرادة الإنسان للامثال والتزام الطاعة والعبادة. فذلك سلوك تؤسسه الآيات الكريمة في نفوس العباد بما تحثّ عليه من تكرار اكتساب المدركات، وفحص سننها.

ومن المناسب والمفيد أن يتم البدء أولاً بذكر مفهوم الإطار، كما يفسره علماء النفس، لتتضح معالمه بصورة أوضح.

ذكر مصطفى سوييف مفهوم الإطار، فقال: "تشير مجموعة من الدراسات التحريية خارج

ميدان الفن ودخله إلى أن مفهوم "الإطار" يعتبر واحداً من الأسس الدينامية¹ الهامة لتفسير جانب

¹ (مفردة "دينامي": مفهوم يعني الطاقة والفاعلية والتدافع والحركة والتغير المستمر، ويدرس أحد العلوم النفسية، وهو علم النفس الدينامي: التفاعل المستمر بين الفرد والواقع سواء أكان داخلياً أم خارجياً". انظر: طه: فرج عبد القادر، وهنديل: شاكر عطية. وعبد الفتاح: مصطفى كامل. موسوعة علم النفس والتحليل النفسي، دار سعاد الصباح، الكويت، الطبعة الأولى: ١٩٩٣م. ص:

معين من السلوك الإدراكي والتعبيري. هذا الجانب هو ما ينطوي عليه هذا السلوك من تنظيم، وبالتالي ما يكتسبه من معنى في أذهاننا. فاستجابتي لأحد المنبهات البصرية وإدراكي إياه على أنه قلم يتضمن عملية تصنيف لهذا الشيء تحت صنف معين يشبه أحد المثل الأفلاطونية، غير أن هذا المثال أحمله في نفسي وأستخدمه كمحكّ أعرف به إذا ما كان الشيء الذي أراه قلماً أم ليس بقلم. ونظراً لأن هذا المحك له من المرونة ما يسمح لي أن أدخل تحته مفردات كثيرة تختلف فيما أعتبره صفات سطحية، وتتفق في صفة واحدة نجدها باعتبارها أساس التصنيف وهي في هذه الحالة وظيفة هذا الشيء. لذلك لا أستطيع أن أتصور هذا المحكّ على أنه مجرد أثر لخبرة واحدة ماضية، هي خبرة إدراك قلم مشابه، ولا مجرد تراكم لآثار خبرات متتالية، ولكنه في الواقع "تنظيم" لهذه الآثار، ووظيفته الرئيسية بالنسبة لنا أن يساعدنا في تنظيم التنبيهات الواردة علينا، بإكسابه دلالات معينة يترتب عليها مباشرة أن نسلك نحو كل منها السلوك الملائم. بعبارة أخرى إن الوظيفة الأساسية للأطر التي نحملها في نفوسنا هي تيسير السبل أمامنا لحسن التوافق مع مقتضيات المجالات التي نحيا فيها".¹

إن هذا المفهوم يكشف لنا عن بعض الغايات المتضمنة في آيات الكتاب العزيز، مما يمكن أن يُلمس في مفهوم الآية الكريمة. فإن بعض الآيات تضمنت دعوة للسمع والبصر لمدرجات يتحقق من خلالها التوافق مع ما تدعو إليه أمور الدين من قول وعمل ومهامّ محكومة بظلال الإسلام. وآيات تضمنت الدعوة لتحقيق مدرجات تعبّر عن سنن ثابتة في حياة البشر، ل يتم فهم حقيقة تلك السنن، وليتخذ البشر من ذلك الفهم مواقف سلوكية منضبطة تجاه تلك السنن، كما يريد الإسلام. وآيات أخرى تضمنت بيان تأثير السمع على السلوك، وما يترتب على ذلك من سلبيات سلوكية، إذا كان المسموع من مصدر هادف للتخريب. وغير هذا مما له تأثير على السمع والبصر. وكذا آيات تضمنت

¹ (سوييف: مصطفى، دراسات نفسية في الإبداع والتلقي، ص: ١٦٥، ١٦٦. الدار المصرية اللبنانية، القاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

دعوة لتتبع المدرجات الدالة على الإنعام والإفضال، لتوجيه سلوك الإنسان نحو العرفان لله تعالى بنعمه
السابعة، وما يتضمنه ذلك السلوك من حسن صلة العبد بربه، وتوطيد طاعته.

وفيما يأتي تم إيراد أربعة أمثلة منها. وتم تقسيم موضوعاتها بحسب مضامينها:

أولاً: الدعوة إلى التقوى قدر الاستطاعة:

لا شك أن تقوى الله عز وجل وطاعته، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، سلوك رفيع،
يَصَعُّ ويرتقي باستمراره اقتفاء منهج الحق، وسماع كلام الله تعالى ورسوله، والعمل به. ثم يؤدي ثماره
في مسيرة حياة الإنسان. لأن المسلم مميّز عن غيره بسلوك موجه من إطار عام هو إطار التربية الربانية
والنبوية، التي لا تزال تتردد على سمعه وبصره، وكأبسط مثال على ذلك: ما يسمعه خمس مرات كل
يوم من أذان وإقامة، وما يراه من فعله وفعل غيره من صلاة وذكر وتسيب ونحو ذلك.

يُفسّر ذلك الحثّ الوارد بالسمع والطاعة، والحثّ على الإكثار من ذكر الله تعالى، والصلاة

على رسوله صلى الله عليه وسلم. كما في قوله تعالى: ﴿... وَالذِّكْرِينَ اللَّهُ كَثِيرًا

وَالذِّكْرِاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ

وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾^٢

فهذا الذكر إن كان سرّياً فهو مسموع بالقلب وإن كان جهرياً فهو مسموع بالأذن. وكثرة

سماعه تنتظم في سلوك الأدب مع الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، وسلوك الاتباع والطاعة.

إضافة إلى أن الذكر الوارد في الآية الكريمة، الذي يحث المولى جلّ وعلا بالإكثار منه. وكذا الصلاة

على النبي صلى الله عليه وسلم، التي أمر المسلم بتكرارها والاستمرار عليها في كل حين. فذلك إدراك

^١ (سورة الأحزاب ، من الآية: ٣٥.

^٢ (سورة الأحزاب، آية: ٥٦.

متحقق باللفظ، والسمع الذاتي، وإسماع الآخرين، وهو متكرر ومستمر، وذلك يعني أنه ذو أثر في تكوين إطار عام، يتأثر به المسلم فيخضع لأوامر الله تعالى الأخرى ويتبع منهجه.

ومن الآيات التي ربطت بين السمع، وبين التوجيه لتحقيق تقوى الله تعالى وطاعته، قوله

تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا لِّأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ

يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ١.

إن الناظر في هذه الآية الكريمة يرى أن الأمر الوارد أولاً هو التقوى، وهو أمر ناتج عن سمع، وطاعة، واتباع لمنهج الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم. ويُلاحظ أن الأمر بالسمع والطاعة والإنفاق في الآية الكريمة، ورد بعد الأمر بتحقيق النتيجة، التي هي التقوى. وفي ذلك لفتة، تتضح بعض معالمها في التفسير النفسي لمفهوم الإطار.

وقبل الحديث عن ذلك يحسن إيراد ما ذهب إليه المفسرون في تفسير هذه الآية.

قال الطبري: "فبما استطعت يا ابن آدم عليها بايع رسول الله صلى الله عليه وسلم على

السمع والطاعة فيما استطعتم".^٢ وفسر السمرقندي اشتراط الاستطاعة في الآية الكريمة بقوله: "يعني

على قدر ما أطقتم (واسمعوا) يعني اسمعوا ما تؤمرون به من المواعظ".^٣ وقال مقاتل في قوله تعالى:

(واسمعوا): "كتاب الله إذا نزل عليكم".^٤ وقال ابن العربي في أحد تفسيري السماع: "أصغوا إلى ما

^١ (سورة التغابن، آية: ١٦).

^٢ (تفسير الطبري: ١٢٧/٢٨).

^٣ (تفسير السمرقندي: ٤٣٦/٣).

^٤ (الماوردي: النكت والعيون تفسير الماوردي: ٢٦/٦).

ينزل عليكم من كتاب الله وهو الأصل في السماع".¹ وربط ابن عاشور بين الأمر بالتقوى وما بعده من المأمورات بقوله: "وحذف متعلق (اتقوا) لقصد تعميم ما يتعلق بالتقوى مسن جميع الأحوال المذكورة وغيرها، وبذلك يكون هذا الكلام كالتذييل، لأن مضمونه أعمّ من مضمون ما قبله".²

ويتضمن هذا المفهوم إشارة لما تم التنويه إليه في بداية الكلام عن الآية الكريمة، ألا وهو قضية إيراد التقوى التي تتأتى في قلب المسلم كنتيجة للسمع والطاعة والإنفاق وغير ذلك مما يتبع به منهج الإسلام. ويؤكد ابن عاشور بقوله: "والأمر بالسمع أمر يتلقّى³ الشريعة والإقبال على سماع مواظب النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك وسيلة التقوى".⁴

وهذه الحقيقة يستفيد منها منظرّوا التخصصات العلمية الأخرى؛ ففي علم النفس يشرح الباحثون كيفيات اكتساب الفنون المختلفة، فيرون -على سبيل المثال- أن ما يتعلّق "بالنشاط الفني لا بد من أطر نوعيّة لتنظيم هذا النشاط، بمعنى أنه لا بد لمن يتصدى لتذوق الشعر من إطار يكتسبه من كثرة التعرض لخبرات يتلقّى فيها الشعر، ولا بد لمن يتصدى لتذوق الموسيقى من إطار يكتسبه من كثرة التعرض لسماع الموسيقى⁵، وكذلك الحال بالنسبة للتصوير والنحت وسائر الفنون جميعاً...".⁶

¹ (ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله. أحكام القرآن: ٤/٢٦٨. دار الفكر، لبنان. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دط. دت.

² (الألويسي: التحرير والتوير: ٢٨/٢٨٧.

³ (ورد إملاء الكلمة على هذا النحو في كتاب التحرير والتوير. ويظهر أنه خطأ مطبعي. فالأصوب أن يقال: "والأمر بالسمع، أمر يتلقى الشريعة والإقبال...".

⁴ (المرجع السابق: ٢٨/٢٨٨.

⁵ (إيراد الكلام هنا عن التعرض للموسيقى، جاء كجزء من الفقرة التي تم التذليل بها على مفهوم تكوين الإطار. وليس لاعتبار جواز سماعه. وهو ما تذهب إليه الباحثة.

⁶ (سوييف: دراسات في الإبداع والتلقي، ص: ١٦٧.

وفيما تضمّنته الآية الكريمة، وما تضمّنه شرح ابن عاشور لفئة إلى أن سماع علوم الدين من مواظب وآيات تتلى وأحاديث تروى، كل ذلك يشكّل مدركات شرعية تغذي أذهان المسلمين، وتُشكّل لديهم إطاراً معرفياً ينتظم به سلوكهم، ويمتلك من خلاله قدرات للتعامل الأمثل تجاه ما يستجدّ لديهم من مدركات جديدة ومعارف وعلوم ومواقف في الحياة.

وهذا يُفسّر سبب ثبات المسلم الموقن بالحق أمام تيارات الفكر الوضعية المخالفة لمنهج الإسلام، ويُفسّر كذلك سبب ثباته وحسن سلوكه تجاه العوائق والعقبات التي ترتطم بأحوال معيشتها بين حين وآخر.

ثانياً: الدعوة إلى تجنب المؤثرات السلبية:

قال تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا لَكُمْ

يَبْغُونَكُمْ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾^١

هذه الآية الكريمة تصف حال المنافقين تجاه المؤمنين، فإنهم قومٌ قد حقدوا على المسلمين وأحبوا خلافهم.

والمولى جلّ وعلا يُنبئ المؤمنين بما كان سيكون منهم لو أُذن لهم بالخروج معهم.^٢ فليذكر سبحانه وتعالى أنهم لو خرجوا فيهم لجعلوهم في حال الخبال، وهو حال يجعل المرء يعدل فيه عن صواب الرأي، ويحيد عنه.^٣ وقيل هو الفساد والشر والجبن.^٤ وقيل هو الاضطراب.^١ وقال الفخر:

^١ (سورة التوبة، آية: ٤٧).

^٢ (انظر تفسير الطبري: ١٠/١٤٤).

^٣ (انظر: الجصاص: أحمد بن علي الرازي، أحكام القرآن: ٤/٣٢٠، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٠٥هـ، تحقيق: محمد الصادق قمحاوي).

^٤ (انظر تفسير السمرقندي: ٢/٦٣).

"والخيال هو الإفساد الذي يوجب اختلاف الرأي، وهو من أعظم الأمور التي يجب الاحتراز عنها في الحروب، لأن عند حصول الاختلاف في الرأي يحصل الانهزام والانكسار على أسهل الوجوه".^١

وأهم لو خرجوا مع المسلمين لفتنواهم، وأوقعوا بينهم الخلاف والخلل، ذلك لأن مسن المسلمين من يعيرهم السمع ويقبل قولهم ويطيعه،^٢ ويعده قولاً صحيحاً. وذلك لأسباب تتعلق باعتبارات معينة، ولعل بعضها يؤثر في عدد من المسلمين فيجعلهم يقبلون كل ما يسمعون منه. ذكر الفخر الرازي تلك الاعتبارات فقال: "لا يمتنع فيمن قُرب عهده بالإسلام أن يؤثر قول المنافقين فيهم، ولا يمتنع كون بعض الناس محبوبين على الجبن والفسل وضعف القلب، فيؤثر قولهم فيهم، ولا يمتنع أن يكون بعض المسلمين من أقارب رؤساء المنافقين فينظرون إليهم بعين الإجلال والتعظيم. فلهذا السبب يؤثر قول هؤلاء الأكابر من المنافقين فيهم...".^٣ إن هذه الأسباب جميعاً لها أثر في تلقي المسموع بعين الاعتبار، وذلك يفيد أنه أمر يتم إدراكه بمصاحبة الانتباه والفهم. الذي يترتب عليه قبول القول كمعرفة مسلم بها. يؤكد ذلك المبالغة الواردة في لفظ: (سماعون). وفيه إشارة إلى كثرة السماع أيضاً.

وإن كان تحقق الإطار المعرفي ينشأ عن التأثير بعدد من المدركات، فإن كثرة سماع أولئك المنافقون، وقبول قولهم، لا شك أن له تأثيراً في السلوك، الذي ينتظم بفعل ذلك الإطار. وذلك الانتظام ليس انتظاماً إيجابياً - بالطبع - لأنه ناشئ عن مدركات سلبية بجانب للصواب. ولذا فإن السلوك النابع عنه، الذي سيكون مرجعاً للتعامل مع المدركات الجديدة فيما بعد، لن يتسنى عنه

^١ انظر: الماوردي: النكت والعيون تفسير الماوردي: ٢/٣٦٨.

^٢ الرازي: التفسير الكبير: ١٦/٦٦.

^٣ انظر: الزمخشري. الكشاف: ٢/٢٦٤.

^٤ الرازي: التفسير الكبير: ١٦/٦٦.

توافقاً مع الواقع بقدر ما يأتي بمخالفة ذلك الواقع ومناهضته. ومن هنا فإن الإطار المعرفي الذي ينبغي أن يتحقق لدى الإنسان هو الإطار الناشئ عن مدركات سليمة صحيحة إيجابية، يقصدها الإنسان ويتتبع خطاها. ويتجنب -في الوقت نفسه- ما هو بخلاف ذلك من الكذب والاستهتار والخلاف من القول والعمل. وذلك يُعلّل لنا الحكمة من الأمر باجتناب المحرمات والباطل من القول والعمل، من سمع ومشاهدة وسلوك. ويُعلّل لنا أيضاً الحكمة من الأمر باقتناء الحق وأهله.

ثالثاً: الدعوة إلى فهم حقيقة الحياة الدنيا:

قال تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ

فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ

الغُرُورِ ﴿٢٠﴾

تتحلى مظاهر تحقيق الإطار المعرفي في الآية الكريمة على وجه الخصوص في قوله تعالى: (فتراه

مصفرّاً ثم يكون حطاماً). والمعنى كما قال السمرقندي: "هالكاً، فشبه الدنيا بذلك لأنه لا يبقى ما

فيها كما لا يبقى هذا النبات".^٢ وقال الواحدي: "هشيماً متفتتاً، كذلك الإنسان يهزم ثم يموت

ويبلى".^٣

^١ (سورة الحديد، آية: ٢٠).

^٢ (تفسير السمرقندي: ٣/٢٨٧).

^٣ (تفسير الواحدي: ٢/١٠٧٠).

إن سنة الحياة تسير على هذا النحو لا تحيد عنه أبداً، وصدر الآية الكريمة متضمن إفادة بحقيقة الحياة، فهي: لعب وهو وزينة وتكاثر وتفاحر بالأموال والأولاد. وهذه الأحوال مظاهر تشببه في حقيقتها ما يعتري النبات من نشأة، واخضرار، وجمال، ولون بهي، وزهو به. وهذا الحال ليس دائماً، فهو إلى أجل محدود، يتغير بعده ليصبح مصفراً كالحب، ثم يبس ويهلك. وكذا حياة الإنسان، لا تختلف سننها عن سنن النبات. ويَهَبُ ذكر الصفرة والحطام في الآية الكريمة انطباعاً عن استمرارية النحو الذي تزول إليه المخلوقات جميعاً. ولذا كانت رؤيته في كل موسم تنشأ الخضرة فيه ثم تيبس وتصير إلى ذلك الحال، رؤية تُدرِكُ بها حقيقة مستمرة تُكوِّنُ لدى الإنسان إطاراً مسن الخبرات الإدراكية التي توجه سلوكه تجاه سنن الحياة الدنيا، فتجعله حذراً منها، عارفاً بكيفية التعامل معها، أخذاً وعطاءً. وفي ذلك يتجلى تنظيم مدركات تلك السنة، وانتظام سلوك محدد تجاه أحوالها المختلفة. ويعني ذلك من كان يقظاً حكيماً عارفاً غاية وجوده في الحياة الدنيا.

وفي تعبير "البقاعي" مفردات مشعرة بحقيقة واقع حياة الإنسان، لا يختلف فيها اثنان، فهو يشير إلى مشاهمة حال الإنسان بوصف النبات، فيقول: "ومطابقة ذلك لما بعده أن الإنسان ينشأ في حجر وليه فيشب ويقوى ويكسب المال والولد، ثم تغشاه الناس فيكون بينهم أمور معجبة وأحوال ملهية مطربة، فإذا تمّ شبابه وأطفأ مجيئه وذهابه، وأشكاله وأترابه، أخذ في الانحطاط، ولا يزال حتى يشيب ويسقم ويضعف ويهرم، وتصيبه النوائب والقوارع والمصائب في ماله وجسمه وأولاده وأصحابه، ثم في آخر ذلك يموت".¹ ولا يخفى أن ما ذكره البقاعي، هو حال مماثل للصورة التي وردت في قوله تعالى: ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَأُهُ، ثُمَّ يَهْبِجُ فَقَرْنَهُ مُمْصِراً ثُمَّ يَكُونُ

¹ (البقاعي: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ٤٥٢/٧).

حُطَمًا ١. والكفار في الآية الكريمة هم "الزُّرَّاع، وإنما قيل للزُّرَّاع: كافر، لأنه إذا ألقى البسدر في

الأرض كفره، أي غطاه". ٢.

رابعاً: الدعوة إلى استشعار نعم الله تعالى السابعة:

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ

﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبٌ أَفَلَا

يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ ٣.

تُذَكَّرُ الآية الكريمة بعدد من نعم الله تعالى؛ فتذكرُ الإنعامَ بالبهائم، وقدرة الإنسان على امتلاكها، وتذليلها له، وما يفيد ذلك التذليل من إمكان الإطعام منها، والركوب عليها، وما يتحقق منه من منافع ومشارب. قال الطبري في قوله تعالى: ﴿مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا...﴾: "مِمَّا خَلَقْنَا مِنْ الْخَلْقِ أَنْعَامًا، وَهِيَ الْمَوَاشِي الَّتِي خَلَقَهَا اللَّهُ لِبَنِي آدَمَ، فَسَخَّرَهَا لَهُمْ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ، فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ. يَقُولُ: فَهُمْ لَهَا مَصْرُفُونَ كَيْفَ شَاءُوا بِالْقَهْرِ مِنْهُمْ لَهَا وَالضَّبِطُ". ٤ وقال البغوي: "لم يخلق الأنعام وحشية نافرة من بني آدم لا يقدر على ضبطها بل هي مسخرة لهم". ٥ وقال السعدي: "أمر تعالى العباد بالنظر إلى ما سخَّر لهم من الأنعام، وذلكها، وجعلهم مالكين لها، مطاوعة لهم في كل أمر

١ (سورة الحديد، الآية: ٢٠).

٢ (غريب القرآن: ٣٩٦/١. لأبي بكر محمد بن عزيز السجستاني، المتوفى سنة ٣٣٠هـ، دار فتيبة. ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م. تحقيق: محمد أديب عبد الواحد جمران.

٣ (سورة يس، الآيات: ٧١ - ٧٣).

٤ (تفسير الطبري: ٢٨/٢٣).

٥ (تفسير البغوي: ٢٠/٤).

يريدونه منها، وأنه جعل لهم فيها منافع كثيرة من حملهم، وحمل أثقالهم، ومحاملهم وأمتعتهم، من محلّ إلى محلّ، ومن أكلهم منها، وفيها دفء، ومن أوبارها وأصوافها وأشعارها، وأثاثاً ومتاعاً إلى حين، وفيها زينة وجمال، وغير ذلك من المنافع المشاهدة منها".¹ وأشار الفخر إلى ما هو مشاهد من ذلك أيضاً فقال: "إن قلنا بأن المراد جمع مشرب وهو الآنية، فإن من الجلود ما يتخذ أواني للشرب والأدوات من القرب وغيرها. وإن قلنا: إن المراد المشروب وهو الألبان والأسمان، فهي مختصة بالإناث ولكن بسبب الذكور، فإن ذلك متوقف على الحمل، وهو بالذكور والإناث".² وأشار الشوكاني إلى عظمة الخالق سبحانه في تذليلها وتسخيرها فقال: "أي جعلناها لهم مسخرة، لا تمتنع مما يريدون منها من منافعهم حتى الذبح".³

وما ذكره المفسرون هو مجموعة من النعم، تجلت في:

١. تملك الإنسان للبهائم.
٢. تسخيرها وتذليلها، وما يتأتى عن ذلك التسخير والتذليل من إحكام السيطرة عليها، والتصرف فيها على النحو الذي يشاؤه الإنسان.
٣. انتفاعه بمنافع كثيرة منها. وما يتأتى عن تلك المنافع من قدرات معيشية كريمة للإنسان، وأحوال صحيحة يتمتع بها ويتنفع.
٤. تخصيص المشرب منها. وفي ذلك لفته ذكرها البقاعي بقوله: "وخصّ المشرب من عموم المنافع لعموم نفعه، فقال جامعاً له لاختلاف طعوم ألبان الأنواع الثلاثة، وكأنه عبر بمنتهى الجموع لاختلاف طعوم أفراد النوع الواحد لمن تأمل. ومشارب: أي من الألبان، أخرجها

¹ (تفسير السعدي: ٦٩٩/١.

² (الرازي: التفسير الكبير: ٩٣/٢٦.

³ (الشوكاني: فتح القدير: ٢٨٢/٤.

مميّزة عن الفرث والدم خالصة لذيدة".¹ إن ذلك كله مما يقدر الإنسان على إدراكه بما يمتلكه من سمع وبصر، وحس. وهي نعمٌ متعددة، متنوّعة. وتمثّل في الوقت نفسه حال نعيم كثيرة غيرها من المخلوقات الأخرى.

ويُستفاد من ذلك بِمُحمّله أن الآية الكريمة تُقدّم به إطاراً كلياً لمدرجات حول أنواع المسخّرات، وتنوّعها، وسننها، ووجوه الانتفاع بها. وما يترتب على ذلك من يقين يتكوّن لدى الإنسان بأنه قادر عليها، مُيسّر له تسخيرها، والتمتع بمنافعها. وفي هذا الإطار تنظيم الخبرات الإنسان، يعينه على التعامل على التعامل مع تلك المسخّرات بما يتفق وما سُخّرت له. والله تعالى أعلى وأعلم.

والحمد لله رب العالمين.

¹ (نظم الدرر: ٦/٢٨٢).

المبحث الثاني

تكرار السلوك الإدراكي

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

يُقصد بتكرار السلوك الإدراكي، القيام بعملية فحص المدركات واستقرارها، وذلك من خلال إعادة العملية الإدراكية، بمعاودة فحص وتحصيل المدركات الحسية. وهو ما يسميه ابن الهيثم: الإدراك بالقياس والتمييز، وهو النوع الثاني من أنواع الإدراك بالبصر عنده. ففي وصف نظريته جاء القول بأن الإدراك بالقياس والتمييز "يحتاج إلى أعمال نظر وتفقد، واستقراء جميع المعاني أو أكثرها. فمثلاً إذا لحظ الإنسان الكاتب كلمة غريبة لم ترد عليه من قبل أو كانت غير مقترنة بالذهن، فإنه لا يدرکها إلا بعد أن يستقرئ حروفها ويميز نقاطها وحركاتها، في حين أنها لو كانت مألوفة وتكررت عليه كثيراً أدركها في الحال بالمعرفة من غير حاجة إلى كثير استقراء أو تحقق" ¹ وينطبق هذا المعنى على ما يُدرك بالسمع أيضاً.

وتردُ في آيات الكتاب العزيز مفاهيم تشير إلى أهمية تكرار السلوك الإدراكي لتحقيق غايات إيمانية، وتشير في الوقت نفسه إلى أهمية عملية التكرار وفائدة إجراؤه لتحقيق اليقين بما تم إدراكه أولاً. وحول هذا المعنى تم إيراد نموذجين فقط من آيات القرآن الكريم، للصلة المباشرة بين مضمونها ومفهوم تكرار السلوك الإدراكي.

أولاً: اختبار المُدركات:

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوتٍ ۗ

فَأَنزَجَ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ﴿٣﴾ ثُمَّ أَنزَجَ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ

حَسِيرٌ ﴿٤﴾

¹ (بك: مصطفى نظيف: العلوم الطبيعية عند العرب والمسلمين، ص: ٢٤٣.

² (سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤.

افتتحت الآية الكريمة بذكر خلق السموات السبع، وأنها "طبقة فوق طبق، بعضها فوق بعض".^١ وهي بهذا الخلق العظيم لا يعترها خلل أو عيب أو فروج، أو اختلاف.^٢ وهي حقيقة كونية لا يمارى فيها أحد. والتفاوت في الآية الكريمة، يعني "عدم التناسب، كأن بعض الشيء يفوت بعضه، ولا يلائمه...".^٣ وأما قوله تعالى: (فارجع البصر... الآية) فتعليه عند الفخر أن "الحسن دل أن هذه السموات السبع أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان، وكل فاعل كان فعله محكماً متقناً فإنه لا بد وأن يكون عالماً، فدلّ هذه الدلالة على كونه تعالى عالماً بالمعلومات".^٤ وعلل الأمر بالتكرار أيضاً بقوله: "كأنه قال بعده: ولعلك لا تحكم بمقتضى ذلك بالبصر الواحد، ولا تعتمد عليه بسبب أنه يقع الغلط في النظرة الواحدة، ولكن ارجع البصر وارده النظرة مرة أخرى، حتى تتيقن أنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت البتة... أمر بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل التصفّح والتتبّع".^٥ ووضح القرطبي المراد بالأمر بالإبصار الأول، والأمر بتكرار الإبصار ثانية، فقال في الأولى: "أردد طرفك إلى السماء، ويُقال: قلب البصر في السماء. ويُقال: اجهد بالنظر إلى السماء. والمعنى متقارب".^٦ وقال في الثانية: "كرّتين: في موضع المصدر، لأن معناه رجعتين أي مرة بعد أخرى، وإنما أمر بالنظر مرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى، فأخبر الله تعالى أنه وإن نظر في السماء مرتين لا يرى فيها عيباً بل يتحير بالنظر إليها، فذلك قوله تعالى:

^١ (تفسير الطبري: ٢/٢٩.

^٢ (انظر تفسير مقاتل بن سليمان: ٣/٣٨١. وتفسير الصنعاني: ٣/٣٠٤.

^٣ (الرازي: التفسير الكبير: ٥١/٣٠.

^٤ (المرجع السابق: ٥١/٣٠.

^٥ (المرجع السابق: ٥١/٣٠.

^٦ (تفسير القرطبي: ٢٠٨/١٨.

(ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير) أي خاشعاً صاغراً متباعداً عن أن يرى شيئاً من ذلك".^١
وهو حسير بمعنى: "كالاً منقطعاً لا يرى فيها عيباً ولا فطوراً".^٢ وهذه الرؤية التي يبحث المولى جلّ
وعلا، على تكرارها تبدو في بادئ الأمر أن المراد بها هي ما تعارف الناس عليه من مفهوم السماء،
ولكن أضاف علماء الفيزياء إلى هذا المفهوم مفاهيم أخرى.

فقد ناقش داود السعدي في كتابه: (أسرار الكون في القرآن) مفهوم السماوات، وموضوع
الرؤية، وتوصل إلى أن رؤيتها ممكنة، واستشهد بعدد من الآيات الكريمة، ثم قال: "إن الاحتمالات
في معنى السماوات السبع، على سبيل الافتراض العلمي البحت، والمقصود بذلك أخذ جميع
الاحتمالات التي يمكن أن توجد، ثم استبعاد أو تضمين كل منها بحسب ما يقوم من أدلة قوية تنقُضها
أو ترجّحها وابتداءً من الأرض وانتهاءً بالأبعد فالأبعد، تنحصر في واحدة مما يأتي:

١. طبقات الغلاف الجوي المحيط بالأرض.
٢. الكواكب السيارة حول الشمس.
٣. الغلاف الجوي للكواكب السيارة.
٤. النجوم.
٥. المجرّات.
٦. الفضاء أو "الفراغ" المحيط بنا في الكون.
٧. أو أنها وصفٌ للنوع، أي سبعة أنواع من الأجرام حولنا...

^١ (المرجع السابق: ٢٠٨/١٨).

^٢ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٨١/٣).

ولم تقع على أية احتمالات أخرى افتراضية في تفسير معنى السماوات السبع، مما قد يكون مرئياً بالنسبة إلينا، غير ما ذكرناه^١.

والحاجة لإيراد قوله هذا، أن الرؤية التي يُطلب من الإنسان تكرارها في تأمل السماء لا تقتصر على صفحة السماء الزرقاء - كما تدركها الأبصار - ولكن يُطلب أيضاً تكرار إبصار جميع الموجودات مما تراه العين في أرجاء تلك السماء. وهو ما افترض كونه المراد بمكونات السماوات السبع. يقول زغلول النجار في حديثه عن الآية التي يقول المولى جل وعلا: ﴿ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى

السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴾^٢. "والاستشهاد بالسماء وبينائها وبسلامتها من كل عيب ونقص وخلل منطلق من حقيقة أن السماء هي إحدى صفحات الكون المفتوحة أمام كل ذي بصر وبصيرة، الناطقة بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، والصارخة في كل غافل عن الحق، وكل منكر للخلق..."^٣.

إن هذا التصوير فيه بيان وتعليل لضرورة إرجاع البصر، كما جاء في الآية. ذلك لأن السماء، كما قال "النجار": "إحدى صفحات الكون المفتوحة" وذلك يعني أن قضية تكرار السلوك الإدراكي التي أمر الإنسان بها، تجد لها مجالاً رحباً في مساحة السماء الشاسعة، فتصبح عملية تكرار النظر إليها فرصة لتعلم المزيد، وفرصة للتدرب على فحص المشاهدات، وتدبرها، ولتكون طريقاً للإيمان واليقين. وتؤكد دراسات علم النفس المعاصر أهمية تكرار السلوك الإدراكي من حيث بيان أهمية تطبيقه في اكتساب تفصيلات الأشياء المدركة. ومن ذلك حديث مصطفى سوييف عن موضوع

^١ (السعدي: داود سليمان: أسرار الكون في القرآن. ص: ٣٥).

^٢ (سورة ق، آية: ٦).

^٣ (النجار: زغلول راغب محم. موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن. (السماء). ص: ٣٥٥).

إطار الخبرة الذي يتأتى بإبصار شيء معين للمرة الأولى، ومغايرته في المرة الثانية، فقال: "إن إطار الخبرة الذي نخرج به هذه المرة يكون أكثر ثراء من الإطار الذي خرجنا به في المرة الأولى للتذوق، إذ تبرز بعض الأجزاء التي لم تبرز في المرة الأولى وكأننا نكتشف وجودها في هذه المرة فحسب ونتعجب كيف لم نرها من قبل وكيف لم ندرك قيمتها. والإدراك هنا لا يختلف في شيء عن الإدراك كما نمارسه في مواقف الحياة العادية. وقد قلنا من قبل أنه يبدأ إدراكاً إجمالياً تفوتنا فيه تفاصيل كثيرة، ولكن إذا عدنا إدراك الموضوع بعد قليل فإننا لا نلبث أن ندرك وجود أجزاء لم نكن ندرك لها وجوداً... وربما كان من أوضح المحكات العملية لصدق هذا الوصف أن الأحكام التي تصدرها على عمل ازدادت ألفتنا به يغلب عليها أن تكون أحكامنا مفصلة في مقابل الأحكام التي تصدرها على عمل لم ينل منا إلا لمح البصر".¹

ويلاحظ أن الآية الكريمة حثت على تدقيق البصر ابتداءً، أي من المرة الأولى، ثم إعادة التدقيق مرة ثانية. فلا يكون في المرة الأولى بمعنى إبصار بلمح البصر، ولكنه بمعنى أقوى من ذلك. ويؤخذ من هذا أن توجيه البصر لإدراك الأجسام من حولنا يتطلب تركيزاً يحقق قوة في الملاحظة، ويحقق القدرة على الكشف عن تفاصيل تلك الأجسام. ولكي تتأكد معطيات ذلك الإدراك، فلا بد من إعادته وتكراره. وهذا نوع من الآليات التي تشير إليها الآية الكريمة، وهي آلية يمكن اقتناؤها في عملية التعلم الذاتي على وجه الخصوص. ولا يمنع ذلك من تحقيق هذه الآلية أيضاً في تعليم الغير، وتتضح أهمية ذلك في تعليم النطق للأطفال. - ولا يقتصر الأمر عليهم، فالكبار أحياناً يتطلب تعليمهم بالتكرار

¹ (سوييف؛ مصطفى؛ دراسات نفسية في الإبداع والتلقي، ص: ١٦٢، ١٦٣).

أيضاً-. أما الأطفال فقد ثبت في دراسات علم النفس أن "الطفل الطبيعي يحتاج للتعرض المستمر للأصوات والكلام عشرين ساعة يومياً لمدة عشرين شهراً قبل أن ينطق عشر كلمات".¹

ومن هنا فإن التكرار مهم في غرس المفاهيم العلمية والأدبية واللغوية. ومودى ذلك أن قضية تكرار السلوك الإدراكي لها أهميتها في العملية التربوية والتعليمية. وهي لهذه الضرورة اكتسبت مكانتها في المنهج التربوي القرآني.

ثانياً: تحريّ المدرّكات.

يتضمن مفهوم التحري، مفهوماً آخر تتطلبه عملية التحري في بعض الأحيان، فالتحري والبحث عن الأشياء يقتضي إعادة النظر والتدقيق بالبصر في المواضيع التي يتم البحث فيها.

ويقترّب هذا المعنى من فعل سيدنا سليمان عليه السلام، وذلك حينما تفقد الطير. كما جاء

في قوله تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَأَ أَرَى الْهَدَىٰ أَمْ كَانَ مِنِ

الغَابِطِينَ ﴿٢٠﴾. ² وليس حتمياً أن يكون التفقد شاملاً لعملية التكرار، إلا أن ما ألححت إليه

بعض التفاسير دعا إلى إيراد الآية في مقام ذكر التكرار. ففيها شيء من الإشارة لهذا الموضوع.

ذكر الواحدي أن مفردة تفقد في الآية الكريمة تعني "طلبها وبحث عنها".³ وقال الألوسي:

"أي أراد معرفة الموجود منها من غيره، وأصل التفقد معرفة الفقد، والظاهر أنه عليه السلام تفقد كل

الطير، وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمر الملك والاهتمام بالرعايا، لا سيما الضعفاء منها. قيل:

¹ (الصيفي: السمع في الأطفال، ص: ١٠٩).

² (سورة النمل، آية: ٢٠).

³ (الواحدي: علي بن أحمد: الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: ٨٠١/٢).

كان يأتيه من كل صنف واحد فلم ير الهدهد...¹ وقال ابن عاشور: "بصيغة التّفعل تدل على تكلف، والتكلف: الطلب. واشتقاق تفقد من فقد، يقتضي أن تفقد: بمعنى طلب الفقد. ولكنهم توسعوا فيه فأطلقوه على طلب معرفة سبب الفقد، أي معرفة ما أحدثه الفقد في شيء. فالتفقد: البحث عن الفقد ليعرف بذلك أن الشيء لم ينقص... والمعنى تفقد الطير في جملة ما تفقده، فقال لمن يلون أمر الطير: مالي لا أرى الهدهد..."²

وقال مُعللاً سبب عدم الرؤية: "ما: الاستفهامية. والتقدير: ما الأمر الذي كان لي. وجملة: لا أرى الهدهد، في موضع الحال من ياء المتكلم المحرور باللام، فالاستفهام عما حصل له في هذه الحال، أي عن المانع لرؤية الهدهد. والكلام مُوجّه إلى خفرائه، يعني: أكان انتفاء رؤيتي الهدهد من عدم إحاطة نظري أم من اختفاء الهدهد؟ فالاستفهام حقيقي، وهو كناية عن عدم ظهور الهدهد"³.

يُلاحظ فيما ذكره الآلوسي حول عناية الملك بأمور الرعية. وما ذكره ابن عاشور حول صيغة التّفعل، وما أشار إليه من إطلاق لفظ التّفقد على طلب معرفة سبب الفقد. ثم إشارته إلى ما عبّر به عن حال سيدنا سليمان عليه السلام، فكأن حاله يقول: "أكان انتفاء رؤيتي الهدهد من عدم إحاطة نظري أم من اختفاء الهدهد". فذلك كله يُوحى بوجود عملية قلب النظر، وتكرار البحث في فعل سيدنا سليمان عليه السلام. وهو فعل متضمن أسلوب التكرار، فالباحث عن شيء يبحث في الغالب - في موضع الشيء المفقود على وجه الخصوص، مرة بعد مرة. وفي هذا السلوك تكرار إدراكي. والله تعالى أعلى وأعلم.

¹ (الآلوسي: روح المعاني: ١٨٢/١٩.

² (ابن عاشور: التحرير والتنوير: ٢٤٥/١٩.

³ (المرجع السابق: ٢٤٦/١٩.

وعلى الرغم من أن الآية لم تتضمن مفهوم الدعوة إلى عملية التكرار، واقتصر مفهومها على الإخبار بما كان من موقف سيدنا سليمان عليه السلام. إلا أن فعل البحث نفسه، الذي قام به عليه السلام، هو في حد ذاته موقف عملي يمكن اقتفاء منهجيته في البحث والتنقيب عما يرغب الباحث في تحصيله من العلوم والمعارف.

© Arabic Digital Library - Yarmouk University

المبحث الثالث

التركيز على النماذج الفعالة في سلوك المتعلم

استخدمت الباحثة مصطلح "النماذج الفعّالة في سلوك المتعلم" لتحقيق استقلالية النظرية إلى مفهومه؛ فإن التعلم بالنموذج له مفهوم محدد في الدراسات التربوية والنفسية المعاصرة. ولا يختلف مفهوم المصطلح المستخدم في هذه الدراسة عن مفهومه في تلك الدراسات، إلا أنه يفترق عنه - يسيراً- في عنصر مهم -قصدت الباحثة إبرازه- ألا وهو أهمية إبراز النموذج في صورة لها فاعلية مقصودة، يتأتى عنها تأثير هادف. ذلك لأن التعلم بالنموذجة؟؟ في الدراسات المعاصرة يشتمل على مفهوم الملاحظة والمحاكاة. ويمكن أن يتحقق هذا المفهوم في نموذج يخلو من فاعلية ذات مستوى عالٍ من التأثير. وقد تضمنت آيات القرآن الكريم ذكر وقائع لها تأثير واضح في الإدراك الحسي، مما يحدونا إلى تمييز مفهوم التعلم بالنموذج في القرآن الكريم عن مفهومه في الدراسات المعاصرة. ففسى ذلك مؤشر على أهمية تفعيل النموذج التعليمي أثناء عرضه للمتعلم. ويمكن التقدم بعرض سريع لتلك النماذج قبل شرحها. حيث تمثلت تلك النماذج في: الغرق، الإحياء، الإماتة، أسلوب تكريم الميت (بالدفن)، تجويد الموقف التعليمي.

ويحسن البدء أولاً بذكر مفهوم التعلم بالنموذج في الدراسات المعاصرة. حيث عرّف الاستعلم بالنموذج بأنه "عملية الاعتماد على النماذج في نقل فكرة أو خبرة إلى فرد أو مجموعة أفراد، وهي إحدى فتيات وطرق إكساب الأفراد أنماط السلوك الصحيح، وهي أيضاً فنية علاجية لتعديل أنماط السلوك الخاطي وغير المرغوب لدى الأفراد".¹ ويظهر في بداية هذا التعريف أنه ركّز على بيان تأثير النموذج أكثر عن بيان مفهوم النموذج نفسه، إلا أن المفردات اللاحقة منه، اتضح منها أن النموذج موقف أو مواقف، تؤثر طبيعتها في المتلقي، فينتقل عنها إليه: فكرة أو خبرة أو فهم أو نحو ذلك.

¹ (<http://ar.wikibooks.org/wiki> أساليب وأنواع التعلم. تم السدخول للموقع بتاريخ:

ويؤكد ذلك ما أشار إليه باندورا في نظريته: التعلم الاجتماعي من تأثير النماذج في سلوك المتعلم، فهو يرى أن النماذج يتحقق عنها "تعلّم سلوكيات جديدة"¹ مثال ذلك أن "التمثيلات الصورية والرمزية المتوفرة عبر الصحافة والكتب والسينما والتلفزيون والأساطير والحكاية الشعبية، تشكل مصادر مهمة للنماذج. وتقوم بوظيفة النموذج الحي، حيث يقوم المتعلم بتقليدها بعد ملاحظتها والتأثر بها".²

وأتضح فيما يأتي عرض الآيات الكريمة لمظاهر تأثير النماذج الفعالة في السلوك، التي تشير بدورها إلى أن التركيز على مثل هذه النماذج له أهميته في تلقي ما تحويه تلك النماذج من أفكار ومعلومات وتوجيهات معرفية وسلوكية. وقد تمّ تقسيم موضوعات الآيات بحسب مضامينها.

أولاً: نموذج العقاب.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ

نَنْظُرُونَ﴾³

فُسِّرَ قوله تعالى: (وأنتم تنظرون) بقولين: أحدهما: "مشاهدون"⁴ والثاني: "تعتبرون".⁵ وقيل: "أحدهما: أنه من نظر العين، معناه: وأنتم ترونهم يغرقون. والثاني: بمعنى العلم".⁶ وهما قولان متكاملان في المعنى، ذلك لأن الرؤية البصرية، يتأتى عنها العلم والاعتبار. أما الأخذ بدلالة المعنى

¹ (www.ensb.dz/1mg/doc/-2-2.doc . سيكولوجية التعلم. تم الدخول للموقع بتاريخ:

٢٥/٤/٢٠٠٩م.

² (المرجع السابق، ص: ٢٥.

³ (سورة البقرة، آية: ٥٠.

⁴ (الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ٤٩٨/١.

⁵ (المرجع السابق: ٤٩٨/١.

⁶ (ابن الجوزي: زاد المسير: ٧٨/١.

الثاني فقط فلا يقوى، لظاهر الآية الكريمة التي ربطت بين موقف نجاة المؤمنين وموقف إغراق فرعون بحرف العطف. والله أعلم. وجاء في لباب التأويل: "وكان إغراق آل فرعون بمرأى من بني إسرائيل، فذلك قوله: (وأنتم تنظرون) يعني إلى هلاكهم، وقيل: إلى مصارعهم. وقيل: إن البحر قذفهم حتى نظروا إليهم...".¹

إن هذا المشهد يمثل نموذجاً فعالاً، له أثر في تعزيز قضايا إيمانية، ونفسية، ويحقق بالتالي معرفة يقينية راسخة. ذلك لأن إغراق فرعون وجنوده وإهلاكهم على مرأى من الناظرين، يمثل معجزة باهرة تزيل عن قلب الناظرين إليها جميع الشكوك والشبهات² التي قد تعتر بهم. وذلك ما يُسمى في علم النفس التربوي: "الكفّ والتحرير". ويوضح "باندورا" ذلك بأن "ملاحظة النموذج يؤدي إلى كفّ السلوك أو تحريره أو تعلّم سلوكيات جديدة".³ ويُقصد بكفّ السلوك، ما يتحقق بتأثير النموذج من ردع عن الخطأ. أما تحرير السلوك فهو أن يكون الشخص المعرض لمشاهدة النموذج مقيداً نفسه عن بعض السلوكيات، فتتحرر تلك السلوكيات بالنموذج فيقبل على فعلها. وهذه النتائج تتحقق بشكل أسرع في حين التعرّض لنموذج فعال مؤثر. ويُلاحظ ذلك في موقف الغرق؛ فإن الله سبحانه وتعالى "في لحظة واحدة جعل العزيز ذليلاً، والذليل عزيزاً. وذلك يوجب انقطاع القلب عن علائق الدنيا، والإقبال بالكلية على خدمة الخالق والتوكل عليه في كل الأمور".⁴ وانقطاع القلب عن علائق الدنيا لتحقيق الإقبال على الله تعالى. يمثل مرحلة عظيمة من مراحل التربية الربانية للعباد، لمن حرص عليها.

¹ (الخازن: لباب التأويل في معاني التنزيل: ٥٩/١.

² (الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب: ٦٥/٢. بتصرف.

³ (مصطفى: فهمي: سيكولوجية التعلم، ص: ٢٨.

⁴ (الحنبلي: اللباب في علوم الكتاب: ٦٥/٢.

وإن النموذج التربوي الذي تصل مرتبته في التأثير إلى هذا الحد، هو نموذج يقتضي الاهتمام بالتعرف على درجة فاعليته، وتأسيس نماذج مهتدية بحجم تأثيره في عملية التعليم والتعلم. ثم إن التنويه الوارد في قوله تعالى: (وأنتم تنظرون) فيه مؤشر إلى أن التركيز في النظر إلى النموذج التربوي له دلالة مهمة، تتضح فيما يمكن أن يتحقق عن ذلك التركيز. وقد تحقق في هذا الموقف اليقين بصدق نبوة سيدنا موسى عليه السلام. ذلك لأن المشاعر التي راودت بني إسرائيل حين التقى الجمعان، كانت قاصرة عن درجة اليقين بالله تعالى، فقد قالوا حينئذ: ﴿... إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾^١ فقال موسى عليه السلام: ﴿... كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾^٢. أي للنجاة وقد وعدني ذلك ولا خلف لوعده"^٣.
ثانياً: نموذج التوعية.

قال تعالى: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ

¹ (سورة الشعراء، الآية: ٦١).

² (سورة الشعراء، الآية: ٦٢).

³ (تفسير الطبري: ١/٢٧٥).

نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوها لِحَمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

يظهر في الآية الكريمة عدد من المواقف، أولها: موقف التساؤل، ثم موقف التمهيد لتقديم النموذج التربوي، وهو الإمامة، ثم موقف التمهيد الثاني لتقديم النموذج التربوي التالي، وهو المناقشة وتوجيه الاهتمام، ثم مواقف النماذج، المتمثلة في توجيه النظر إلى عدد منها، وهي السواردة في قوله تعالى: (فانظر إلى طعامك وشرابك لم يستسهه) (وانظر إلى حمارك...) (وانظر إلى العظام...).

أما قوله تعالى: (لم يستسهه) فهو بمعنى: "لم يأت عليه السنون فيتغير على لغة من قال: أسهت عندكم أسنه، إذا أقام سنة... وقال آخرون: معنى ذلك لم ينتن".^١ وقوله تعالى: (كيف نشزها). قال ابن أبي حاتم: "نشخصها عضواً عضواً". وقال الثعلبي: "إنشاز الشيء: رفعه ونقله وإزعاجه، فقال: أنشزته فنشز، أي: رفعته فارتفع. ومنه نشز المرأة على زوجها ونشز الغلام. أي ارتفع. فمعنى الآية: كيف نرفعها من الأرض فنردّها إلى أماكنها من الجسد، ونركّب بعضها على بعض".^٢

إن هذه المعاني تعبّر عن أحداث ذات تأثير معرفي كبير؛ فإن استمرارية بقاء الطعام على حال واحد لفترة بلغت مائة سنة، ليس أمراً معتاداً، وليس مما يمكن أن يحدث أصلاً. وكذلك ارتفاع عظام الحمار والتنامؤها، وعودته للحياة ثانية. فهذه أمور تثير العجب، وتلقي في الروح علوماً يقينية لا ترد بعدها. أشار لذلك الفخر الرازي بقوله: "...فرأى الحمار صار رميماً وعظاماً نخرة، فعظّم تعجبه من قدرة الله تعالى، فإن الطعام والشراب يُسرّع التغيير فيهما. والحمار ربّما بقي دهنراً طويلاً، وزماناً

^١ (سورة البقرة، آية: ٢٥٩).

^٢ (تفسير الطبري: ٣/٣٧، ٣٩).

^٣ (تفسير الثعلبي: ٢/٢٤٨).

عظيماً، فرأى ما لا يبقى باقياً، وهو الطعام والشراب، وما يبقى غير باقٍ وهو العظام، فعظم تعجبه من قدرة الله تعالى، وتمكن من وقوع هذه الحجة في عقله وفي قلبه".^١ وتحسن الإشارة في هذا المقام إلى أن الله سبحانه وتعالى، لم يُعلمه حقيقة القدرة والإعجاز بقوله جلّ وعلا: (بل لبثت مائة عام) فحسب، بل أضاف لذلك علماً حيوياً مؤكداً في تطبيق ظاهر للعيان، حيث كرّر سبحانه وتعالى الأمر بالنظر إلى تلك النماذج التربوية ثلاث مرات؛ فمرة للنظر في حال الطعام. ومرة للنظر في حال عظام الحمار وهي متناثرة لا حياة فيها ولا اتصال، ومرة للنظر إلى عملية جمع شتات تلك العظام، وكسوها باللحم وإعادة الحياة إلى ذلك الجسد المكوّن منها. وفي ذلك مؤشر واضح إلى أن الأمر بالنظر إلى تلك النماذج الحيّة، له ضرورة تربوية وتعليمية في بناء المعلومة وتحقيق إدراكها على نحو مؤثر في العقل والسلوك.

ثالثاً: نموذج التجربة:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ

تَنْظُرُونَ ﴿١٤٣﴾ ٢.

الخطاب في الآية الكريمة مُوجّه لصحابة سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين "لم يشهدوا بدرأً وكانوا يتمنون أن يحضروا مشهداً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصيبوا كرامة الشهادة ما نال شهداء بدر. وهم الذين ألقوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخروج إلى المشركين، وكان رأيه في الإقامة بالمدينة...".^٣

^١ (الرازي: التفسير الكبير: ٣١/٧).

^٢ (سورة آل عمران، آية: ١٤٣).

^٣ (الزمخشري: الكشاف: ٤٤٨/١).

وكان ما تمثوه شديداً على النفس، صعباً في مقاساته، ولكنهم لم يشهدوه حينئذ، ولم يعرفوا حقيقته.¹ فأراد الله تعالى أن يوجههم ليتعرفوا على معنى مرادهم بصورة حيّة تتجلى أمام أنظارهم، من خلال تجربة يخوضونها، ويرون أحداثها رؤية عيان، تُعرفهم بواقع ما أرادوه، معرفة نائمة عن تطبيق ذاتي. ولما وقع ذلك الحدث، ذكرهم المولى جلّ وعلا بالموقف ذاته، ليتذكروا مشهده وصورته التي اكتسبها بمشاهدته. قال الطبري في قوله تعالى: (فقد رأيتموه وأنتم تنظرون): "قد رأيتموه بمراى منكم ومنظر، أي بقرب منكم".² وقال الزمخشري: "أي رأيتموه معانين مشاهدين له حين قتل بين أيديكم من قتل من إخوانكم وأقاربكم وشارفتم أن تُقتلوا".³ وقال ابن الأنباري: "يقال: إن معنى رأيتموه: قابلتموه وأنتم تنظرون بعيونكم، ولهذا العلة ذكر النظر بعد الرؤية حين اختلف معناها، لأن الأول بمعنى المقابلة والمواجهة. والثاني بمعنى رؤية العين".⁴

ذهب هؤلاء المفسرون إلى أن الرؤية المذكورة في الآية رؤية عيان، وتأولوا الموت المشهود عياناً بأنه موت بعضهم بمراى من الآخرين. وفي هذا الموقف عدد من النماذج التي تظهر فيها صورة الموت؛ فهو يتجلى في استشهاد عدد من الصحابة. وفي وقوعه نموذج حيّ مؤثر. والموقف متضمن خيرة تعليمية فعالة، لها أثر كبير في وعي حقيقة قدر هذا الموقف، وتعرفه عن تجربة.

ويُستلهم منه ما ينبغي أن يكون عليه النموذج التعليمي والتربوي من إحكام وفاعلية، بحيث

يؤثر بدرجة كبيرة.

¹ (المرجع السابق: ٤٤٨/١، بتصريف.

² (تفسير الطبري: ١٠٨/٤.

³ (الزمخشري: الكشاف: ٤٤٨/١.

⁴ (الأندلسي: تفسير البحر المحيط: ٧٤/٣.

رابعاً: نموذج حلّ المشكلات:

قال تعالى: ﴿ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُؤَارِي سَوْءَةَ

أَخِيهِ قَالَ يُوَيْلَتَىٰ أَعْجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِي سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ

مِنَ النَّادِمِينَ ﴿٣١﴾ ١.

روى مقاتل بن سليمان رواية قتل قابيل أخاه هابيل، ومما جاء فيها: "...فلما كان في الليلة الثالثة، بعث الله غرابين يقتلان، فقتل أحدهما صاحبه وهو ينظر، ثم حفر بمنقاره في الأرض، فلما فرغ منه أخذ بمنقاره رجل الغراب الميت حتى قذفه في الحفرة، ثم سوى الحفرة بالأرض".^٢ وقال الجصاص: "وقيل في معنى "سوءة أخيه" وجهان: أحدهما جيفة أخيه، لأنه لو تركه حتى يتنن لقيل: جيفة وسوءة. والثاني: عورة أخيه، وجائز أن يريد الأمرين جميعاً لاحتمالهما. وأصل السوءة: التكره، ومنه ساء يسوؤه سوء، إذا أتاه بما يتكره".^٣ وقال الرازي: "يا ويلتى: كلمة تحسّر وتلهّف... اعتراف على نفسه باستحقاق العذاب، وهي كلمة تستعمل عند وقوع الداهية العظيمة، ولفظها لفظ النداء، وكان الويل غير حاضر له، فناداه ليحضره، أي أيها الويل احضر، فهذا أو ان حضورك...".^٤

إن المواقف التي تناولها المفسرون بالذكر: إحساس قابيل بحجم المشكلة، وعجزه عن إيجاد حل لها، ومحاولاته التعرف على أي مخرج للإشكال الواقع، دعاؤه على نفسه بالويل. كل ذلك يتطلب

^١ (سورة المائدة، آية: ٣١).

^٢ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٩٥/١).

^٣ (الجصاص: أحكام القرآن: ٤٩/٤).

^٤ (الرازي: التفسير الكبير: ١٦٥/١١).

وجود نموذج محدد، يتعرف منه كيفية الخلاص من ذلك الحال. وهنا تبرز أهمية وجود المشكلة قبل تقديم نموذج الحل.

وقد كان فعل الغراب: الحفر، ثم طرح الميت، ثم حثي التراب. موقفاً حيويًا في تقديم الغوث، ونقل المعرفة اللازمة في ذلك الحين الذي اشتدت فيه أزمة المشكلة، لدرجة أن قابيل دعى بالويل على نفسه، معترفاً بقصور معرفته، وجهله العميق. وكشف هذا الموقف أيضاً عن حالة اهتمام وتركيز فيما حدث أمامه من إجراء وجد له أهمية بالغة تقتضي الانتباه والتعلم. وهذا الاعتراف يُشكّل معرفة أخرى تجلّت له بتأثير ذلك النموذج في فهمه، حيث استوعب حجم ذلك الجهل. وهو مشكلة تقتضي إيجاد حلّ لها. ويُعدّ أسلوب حلّ المشكلات نوعاً من أنواع أساليب التعلم. وهو أسلوب يعتمد التعلم الذاتي من خلال إفساح المجال للمتعلم ليتوصّل إلى إيجاد حلّ للمشكلة.

وتُعرف المشكلة بأنها: "حالة من التباين أو الاختلاف بين واقع حالي أو مستقبلي، وهدف نسعى إلى تحقيقه. وعادة ما يكون هناك عقبات بين الواقع والمستهدف، كما أن العقبات قد تكون معلومة أو مجهولة".¹ ويمكن الاستفادة من مفهومها في تأسيس مشكلات مقصودة، تطرح بين يدي الدارسين، ويُترك المجال لهم لمحاولة إيجاد حلول لها، ثم بعد محاولات الصواب والخطأ في تقديم تلك الحلول. يُقدّم لهم النموذج الأمثل المتكامل في حلّ المشكلة. وأن يُراعى الإحكام والفاعلية في تصميمه. ليكون مثلاً يُحتذى في إيجاد حلول لمشكلات أخرى.

¹ (www.kenanaonline.com/page/4220-39k الغنّام: إبراهيم. مهارات حل المشكلات

واتخاذ القرارات. تمّ الدخول للموقع بتاريخ: ١٧/٥/٢٠٠٩م.

خامساً: نموذج المحتوى التعليمي المحكم:

قال تعالى: ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ

قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ ^١.

تتحلى في الآية الكريمة وسيلة تربوية مهمة، تظهر في صرف الجن لاستماع القرآن وهو يتلى على لسان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، لا على لسان غيره. وهو نموذج فعال في تلقي المادة التعليمية.

إن تقديم المحتوى التعليمي بصورة محكمة، يؤثر في المتلقي، فيجذب اهتمامه وانتباهه ويحقق له فهماً أكبر. وفي الآية الكريمة تتجلى مظاهر الأحكام في المادة المسموعة، فهو كتاب الله تعالى، يتلوه رسول الله صلى الله عليه وسلم. وكفى بهذا الوصف إحكاماً. وإن صرف الجن لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان بتدبير من رب العالمين، لتتلقى هدايته صلى الله عليه وسلم على النحو الذي أراده المولى جلّ وعلا. وذلك ما تجلّى في موقفهم حينما بلغ مسامعهم، فما كان منهم إلا أن طلبوا من بعضهم بعضاً حسن الإنصات. جاء ذلك في قوله تعالى: (أنصتوا) أي: "اسكتوا مستمعين".^٢ وفيه دلالة على التأثير السريع بالمسموع. وفيه دلالة أخرى، وهي أن نموذج الأحكام في المادة المسموعة كان له أثر فاعل في تحريك مشاعرهم، وإيدان معتقدتهم بأنه الحق. وقد كشف موقفهم التالي عن صدق ذلك؛ فقد تولوا إلى قومهم وقالوا: ﴿...إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴿١﴾﴾ ^٣. أي "عجبا في

^١ (سورة الأحقاف، آية: ٢٩).

^٢ (الرازي: التفسير الكبير: ٢٨/٢٨).

^٣ (سورة الجن، من الآية: ١).

نظمه وتأليفه وصحة معناه".^١ أشار الفخر الرازي لذلك، بعد إيراد قول المولى جل وعلا: ﴿وَإِذْ

صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِبِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ

وَلَوْ إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٢٩﴾ . حيث قال: "ينذروهم، وذلك لا يكون إلا بعد إيمانهم، لأنهم

لا يدعون غيرهم إلى استماع القرآن والتصديق به إلا وقد آمنوا، فعنده"^٢ ﴿قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا

سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ

مُسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ .^٣ ومن هنا تتضح أهمية عرض النموذج التعليمي بصورة ذات فاعلية، تجذب المتعلم

ووجه مداركه للتركيز على مادة التعلم، ليتحقق له تحصيلاً أمثل. وذلك أمر يتعلق بالاحتوى التعليمي،

الذي يُراعي علماء المناهج في اختياره عدداً من الأسس التي تتفق وحاجات المتعلم، وتحقق - في

الوقت نفسه - غايات وأهداف التعلم. ويضاف لذلك أيضاً الأساليب التربوية، فهي مما يؤخذ بعين

الاعتبار في تصميم المناهج. وبالنسبة للأسس فهناك مجموعة من الأسس المنهجية، منها الأساس

العقدي، والأسس الفلسفية والثقافية للمنهج، والأسس المعرفية، والنفسية.^٤ وأما الأساليب التربوية،

فهي - بالإضافة إلى المحتوى - تُعدّ عنصراً من عناصر المنهاج، الذي يشكل نمطاً منظماً من برنامج

^١ (تفسير السمعاني: ٦٤/٦ .

^٢ (الرازي: التفسير الكبير: ٢٨/٢٨ .

^٣ (سورة الأحقاف، آية: ٣٠ .

^٤ (انظر: عبد الحلیم: أحمد المهدي، وآخرون: المنهج المدرسي المعاصر. ص: ٣١ وما بعدها.

تربوي مدرسي، يتضمن إجراءات أساسية، تتمثل في المحتوى التعليمي، وكيفية تدريسه، والوقت الملائم للتدريس.^١

هذا وإن جهود علماء المنهاج تسعى جاهدة في تقديم النموذج التربوي الذي يساعد على تبليغ مادة التعلم، وتحقيق غاياتها التربوية والتعليمية بأفضل الطرق. وتعترف بعض تلك الجهود بما قدمه الفكر الإسلامي في خدمة التخطيط المنهجي. فتقول: "ولقد أعطى الفكر الإسلامي للتخطيط كتدبير وأسلوب مكانة كبيرة، فيقول سبحانه^٢: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَّا

قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾".^٣

^١ (إبراهيم: مجدي عزيز: منطلقات المنهج التربوي في مجتمع المعرفة، ص: ١٠٨. بتصرف.

^٢ (فرج: عبد اللطيف حسين: تخطيط المناهج وصياغتها، ص: ١٣.

^٣ (سورة الحشر: ١٨.

الفصل الثالث

أساليب القرآن الكريم في توجيه الإدراك

الحسي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: توجيه العمليات الإدراكية بما يتفق وقدرات

الإنسان وحاجاته.

المبحث الثاني: تحقيق استثارة البيئة.

المبحث الثالث: توجيه النشاط الإيجابي للإدراك الحسي في

انتقاء المدركات وتفاذي التعرض السلبي.

المبحث الأول

توجيه العمليات الإدراكية بما يتفق وقدرات

الإنسان وحاجاته

حفلت آيات الكتاب العزيز بتوجيهات تربوية حول تنمية قدرات الإنسان في التحصيل المعرفي وتلبية حاجاته. وجاءت أساليبها مُنوعة في الطرح، منها ما مخاطب العقل، والفكر، والسنفس، والجوارح والحس. وعُنت الدراسة الحالية بما مخاطب الإدراك السمعي والبصري منها، فتجلت عناية المولى جلّ وعلا بما يتأتى عنها من فوائد يجني ثمرتها الإنسان فكرياً وعقلياً ونفسياً وجسدياً. وفيما يأتي تمت دراسة نماذج من آيات الكتاب العزيز مما تجلّى فيها توجيهات للمدارك الحسية بحسب ما يتفق وقدرة الإنسان وحاجته.

أولاً: تلبية حاجة الإنسان للمعتقد السليم والحياة الكريمة.

قال تعالى: ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ

قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ^١ .

الإنسان جزء من هذا الكون، وهو جزء لا يكاد يكون شيئاً في حجمه مقارنة بما حوله من الكائنات الكونية الضخمة. ورغم ذلك يحتلّ هذا الإنسان أكبر منزلة بينها جميعاً، في صفات تفوق العذ. وهو بهذه الصفات، يمتلك سيادة عليها، ولكنه - في الوقت نفسه - يفتقر إليها، ويحتاج لتسخيرها له. والمولى جلّ وعلا، جعل لهذا الإنسان صلة وطيدة بما حوله من الكائنات، وعرفه إياها، وجعله في الوقت نفسه قادراً على أن يحقق مزيداً من معرفتها وتسخيرها. فالآية الكريمة تشير إلى حاجة الإنسان إلى تحقيق مزيد من المعرفة، من خلال إدراك ما في السموات والأرض، فقله تعالى: (ماذا) يطرح سؤالاً يأخذ بيده إلى تحري قدراته، وتلبية حاجاته ضمن كل ما في السموات والأرض.

¹ (سورة يونس، آية: ١٠١).

ولأجل هذه الصلة وضرورتها، وإمكان الإنسان إدراك معانيها ومعاني كثير مما تحويه السموات والأرض، فإن الله تعالى أحال تحصيلها إلى جهد الإنسان وفهمه. فهي من الضروب التي يمكن إدراكها بذاته. وفي حديثه حول هذا الموضوع قال الزبيدي: "...وَضَرَبَ مَعْقُولٌ يُمْكِنُ لِلنَّاسِ إِدْرَاكَهُ مِنْ غَيْرِ نَبِيٍّ كَمَعْرِفَةِ اللَّهِ وَمَعْرِفَةِ خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَلَا يَلْزَمُ صَاحِبَ الشَّرْعِ أَنْ يَبَيِّنَهُ، إِلَّا تَرَى أَنَّهُ أَحَالَ مَعْرِفَتَهُ عَلَى الْعُقُولِ فِي نَحْوِ قَوْلِهِ: (قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)".¹

وإستُخدم في الآية الكريمة فعل الإدراك البصري، لقوله تعالى: (انظروا). فإن الإدراك البصري بوسعه تحصيل مدركات كثيرة مما في السموات والأرض. كما أن الإنسان مدعُوٌّ في الآية الكريمة لتذوق قيمة ما في السموات والأرض، ولتشكُّل كل قيمة عنده خبرة إدراكية تغذي مداركه الأخرى: العقلية والفكرية والنفسية. فهو في تعامله مع كوائن السموات والأرض ينبغي أن يكون كالذي يتعامل مع الشعر الذي ينبض بالحس والتذوق، ولا يتأتى ذلك إلا لمن عمل على توجيه عملية التذوق التي تتطلب "التهيؤ النفسي الذي يسبق التذوق مباشرة، ثم التوجه الذي يرتسم في نفوسنا منذ اللحظات الأولى لعملية التذوق، والذي يتولد عنه فيما بعد إطار الخبرة التذوقية وما قد يتساح لهذا الإطار من نمو ومرونة".² والذي يدلُّنا على ضرورة هذه المماثلة في التذوق قول المولى جل وعلا: (قل انظروا ماذا... فقولته سبحانه: (ماذا) مُشعراً بقيمة (ذا) الذي هو كوائن السموات والأرض، التي لا تزال حاجة الإنسان مفتقرة لها في كل حين. فالإنسان يستمد من كوائن السموات والأرض سُبُل صحّة معتقده، وسُبُل معيشتة ومادّتها، وسُبُل سعادته. وغير ذلك كثير.

¹ (الزبيدي: تاج العروس: ٢٤٦/١٨.

² (سويف: دراسات في الإبداع والتلقي، ص: ١٦٤.

ويتطلب هذا الاستمداد أن يُحكّم الناظر لتلك الكوائن، توقّعات محدّدة، تتضمن يقيناً بأنّ تلك الكوائن خلقت لأجله، وأنها مسخّرة له، وأنّ بإمكانه التمتع بالنظر إليها، والتّمتع كذلك بالإفادة منها. فهذه النظرة التي تحكّمها توقّعاته، ستهبّه قدرة أكبر على تعامل أحكم معها.

عاجلت هذه القضية بعض الدراسات المعاصرة، فقد جاء حول ما يتعلّق بتوقّعات الإنسان تجاه المدركات، وأثر تلك التوقّعات في ما يدركه، بياناً، تمّ التمثيل عليه بالقول: "فإنّ المحبّ -مثلاً- يرى الوجه الذي يرغبه فقط من الحقيقة فتوقّعاته الإدراكية تعمل في اتجاه واحد -ميزان الدفاع عن البنية يعمل على خطوط مغايرة فيرى رقة البشرة والجبين العالي... -إلا أن الإدراك الحسي يعجز عن إبراز عيوب جسدية معيّنة".¹ ولا يهتّمنا في هذا المقام ما يعجز عنه الإدراك الحسي، بقدر ما يُمكن لهذا الإدراك تحصيله من مدركات يجد لها توافقاً في نفسه وقبولاً، فيأنس بها، ويثق في إمكان تسخيرها وتحصيل منافعها. ذلك لأنّ "الكون الذي يعيش فيه الإنسان كان أيضاً مصدراً دائماً للعلم والمعرفة، لذلك كان على الإنسان أن يعمل عقله، وهو يشاهد، أي يعمل حواسه في أشياء الكون وأحداثه وظواهره، ويتعامل معها، فيعرف كيف يحل مشكلاته ويخزن هذه المعرفة في المواقف الأخرى، وينقل هذه المعرفة من جيل إلى آخر".² وهذا الأمر له أهميته في المعتقد السليم للإنسان، فهناك من التيارات الفكرية ما يفرس مفهوم عداوة الطبيعة للإنسان، وأن الإنسان في المقابل يجب عليه محاربة هذا العدو ومحاولة تحديده والتغلب عليه. ولا شك أن مفهوم التسخير يتضمّن في بعض معانيه مفهوم تحدي الصعوبات ومواجهتها، ولكنه لا يعني بالضرورة اعتبار الطبيعة عدوّاً تجب محاربتها.

¹ (وستمان؛ برونر. في الإدراك الحسي للظاهرة الشاذة -نموذج. ترجمة: ريتا الحاج. دورية: الفكر العربي. ص: ٣٦٠. لسنة: ١٩٨٦م. صفحات البحث: ٣٥٩- ٣٧٥

² (تاريخ المعرفة. ص" ١٢. السنة السابعة. دورية: إسلامية المعرفة. العدد السابع والعشرون. صفحات البحث: ٥- ١٣.

وجميع ما ذكر، يدعو للقول: إن الإنسان مطالب بالنظر والتذوق والتعرف على قدرة الله تعالى، وأن يُسخر ذلك النظر والتذوق والتعرف لتحقيق اليقين بالله تعالى، فإن من لم يسخر مداركه، ويوظف عقله لذلك الإيمان، يُصبح كمن فقد الإحساس بما حوله من الآيات. و (ما تغني الآيات والندر عن قوم لا يؤمنون).

ثانياً: العملية التربوية والتعليمية تقتضي موازنة المادة المدركة.

تقتضي العملية التربوية والتعليمية في جميع أحوالها تقديم مادة يتناسب محتواها مسن حيث الحجم والمستوى العلمي، ومن حيثيات أخرى مع حاجات المتعلم وقدراته الإدراكية والعقلية. وتوضح هذه الأهمية فيما يُستفاد من قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمُّمِ فِي آعْيُنِكُمْ قَلِيلاً

وَيَقِيلُ لَكُمْ فِي آعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْراً كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ

الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

تضمّن مفهوم الآية تأثير الإدراك البصري على السلوك، فإن جيش المسلمين بدى في حجم أقل من حجمه الواقعي، في أعين جيش العدو، وكذا جيش العدو بدى في حجم أقل من حجمه الواقعي في أعين جيش المسلمين. وذلك "ليجترئ بعضهم على بعض في القتال".¹ فيُقدم جيش المسلمين همّة عالية، ويُقدم جيش المشركين همّة زائفة لا تلبث أن تتلاشى أمام الحقيقة التي ستُفاجأ بها. وذلك (ليقضي الله أمراً كان مفعولاً)² من كسر شوكة المشركين، ونصر المسلمين، وزيادة ثقتهم بالله تعالى وبأنفسهم، ورفع قدرهم بين العرب جميعاً. وهي خطوات تربوية إيجابية في تنمية

¹ (سورة الأنفال، آية: ٤٤).

² (تفسير مقاتل بن سليمان: ١٩/٢).

³ (سورة الأنفال، من الآية: ٤٤).

فاعلية العمل الإسلامي. وفي ذلك كله تربية وتوجيهاً لجيش المسلمين على وجه الخصوص ولأمة الإسلام عموماً. فأما جيش المسلمين "ليعانوا ما أحبرهم به فيزداد يقينهم ويجدوا ويثبتوا".¹ وأما جيش المشركين، فكما قال أبو السعود: "قلّهم في أعينهم قبل التحام القتال ليحترئوا عليهم ولا يستعئوا لهم ثمّ كثّرهم، حتى رأوهم مثلهم لتفاجئهم الكثرة فيبهتوا ويهابوا".² وهذه المنهجية يُستفاد منها في منهجية اختيار المحتوى، التي تتيح للمربي فرصة تحقيق أهداف التربية. فإن المحتوى الذي يُقدّم للطالب في صورة تحقق له قدرة التعامل معه، في التلقّي والفهم والاستيعاب، هو المحتوى المناسب الذي تتحقق عنه أهداف التربية كما يريد المرّبون.

وقد ذكر التربويون إجراءات تفصيلية عدّة تتعلق بالمحتوى التعليمي، منها: خطوات اختيار محتوى المنهاج، وهي ذات صلة بالموضوع المطروح في عنصر الدراسة الحالي. ولأهمية عرضه في هذا المقام تم إيرادها بتمامه.

ذكر الباحث ثلاث خطوات في اختيار محتوى المنهاج³ على النحو الآتي:

1. اختيار الموضوعات الرئيسية: ويجب أن تتناسب هذه الموضوعات مع الأهداف.
2. اختيار الأفكار الرئيسية التي تحتويها الموضوعات: وهذه الأفكار يجب أن تحتوي على المعلومات الكافية بالنسبة للمتعلم، ويجب اختيارها في مواقف تعليمية مختلفة، وتعديلها إذا لزم الأمر، ويتم اختيارها من قبل المدرّسين ذوي الخبرة.
3. اختيار المادة الخاصة لكل فكرة رئيسة في ضوء الأهداف.

¹ (الزمخشري: الكشاف: ٢/٢١٣).

² (تفسير أبي السعود: ٤/٢٤).

³ (السليتي: فراس. استراتيجيات التعلم والتعليم، النظرية والتطبيق. ص: ٤٠٨. دار الكتب الحديث. وجدارا للكتاب العالمي. عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٨م.

يتضح في الخطوات المذكورة أهمية ربط المحتوى بالأهداف المرغوب تحقيقها. وهو ما تمت ملاحظته في الفكرة التي تضمنتها الآية الكريمة، فإن حجم جيش المشركين الذي تجلّى لأعين المسلمين، وحجم جيش المسلمين الذي تجلّى لأعين المشركين، كان له غاية وهدف، ذكره المولى جلّ وعلا بقوله: (ليقضي الله أمراً كان مفعولاً).

ثالثاً: تنمية المواقف الإيجابية في مواجهة تلقّي المدركات السلبية.

قال تعالى: ﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكُتُبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا

وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِذْكَ إِذَا مَثَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ

جَامِعُ الْمُتَنَفِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾ ١

إن الطبيعة البشرية التي تسير وفق منهج حيوي، يُحوّجها إلى التنمية والترقي الإيجابي المستمر في جميع نواحي النمو الإنساني، تُحتمُّ على كل إنسان أن يعمل على ترقية معارفه ومدركاته، فينتقي منها ما يغذي هذه الحاجة. وأن يعمل في الوقت نفسه على تجنّب ما يشين لهذه الحاجة من المدركات السلبية والمعارف الهابطة.

وتوجّه الآية الكريمة إلى توخّي الحذر من ذلك، فإن المولى سبحانه وتعالى ينهى عن مجالسة من يخوض في الباطل، ويستهزئ بالقرآن الكريم - وهذا نموذج عظيم - يُقدّم قاعدة في التعامل مع كل ما يُدرك بالسمع، وغيره، مما يندرج في المدركات السلبية التي تتأتى عنها نتائج سلبية أيضاً في القول والسلوك. ولذا ذكر سبحانه وتعالى عاقبة التساهل في التلقّي لما لا ينبغي تلقيه "إن جالستموهم

¹ (سورة النساء، آية: ٤٠).

ورضيتهم باستهزائهم (إنكم إذا مثلهم)^١. وضح القشيري مفردات الآية، فقال في قوله تعالى: "(إنكم إذا مثلهم): أوضح برهان على سريرة صحبة من يقارنه، وعشرة من يخادنه، فالشكل مقيد بشسكله والفرع منتشر عن أصله"^٢. فهذا تأثير صحبة ومجالسة أهل الباطل. ولا يعني ذلك مداراتهم وقبول حالهم، فإن "مداراة السفهاء لا تعني قبول الدنية، فالفرق بين الحالين بعيد"^٣.

يقول محمد جاد المولى: "ليس شيء من أخلاق الإنسان وعاداته ومعتقداته إلا وهو قابل للتغيير والتبديل، كما هو مشاهد معلوم. أما الأخلاق فيقع التغيير في بعضها ببطء، وفي بعضها بسرعة تبعاً لقوة المؤثر وضعفه. وأما العادات وكثير من المعتقدات فصائرة إلى الإنسان من مزاولة العمل أو القول مرة بعد أخرى، وبقاء أثره في النفس، يزداد ثباتاً فيها بازدياد تكرّره ثم يستقر، ويصبح عادة لازمة واعتقاداً راسخاً"^٤. ومن هنا أكّدت مماثلة من يستمع للسخرية والاستهزاء بالقرآن لمن يفعل ذلك فعلاً، في قوله تعالى: (إنكم) و (مثلهم). وفي الحديث الشريف: (مثل المجلس الصالح والمجلس السوء، كمثل صاحب المسك وكبير الحدّاد، لا يَعدَمُك من صاحب المسك: إمّا تشتريه، أو تجبّد ریحته، وكبير الحدّاد: يحرّق بيّتك أو ثوبك، أو تجبّد منه ریحاً خبيثة)^٥.

فهذا الحديث يصوّر نتائج المجالسة والمصاحبة، حيث تنتقل العادات والأطباق بين الأفراد بتأثير الكلام والسلوك الصادر عن بعضهم تجاه بعضهم الآخر، وهو ما أشار إليه الغزالي بقوله: (الطبع

^١ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٢٦٤/١.

^٢ (تفسير القشيري: ٢٣٢/١.

^٣ (الغزالي: محمد، خُلق المسلم، ص: ٨٢. دار القلم، دمشق، بيروت، الطبعة الثانية: ١٤٠٠هـ، ١٩٨٩م.

^٤ (جاد المولى: محمد أحمد. الخلق الكامل: ٨٦/١. دار الکتب العلمیة، بیروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٦م.

^٥ (صحيح البخاري، كتاب البيوع. باب في العطار وبيع المسك، رقم: (٣٨). رقم الحديث: ٢١٠١. ص: ٤١٠.

يسرق من الطبع).¹ ومن هنا فإن السيطرة على المواقف الناتجة عن الأقوال والأفعال مهمة جداً، وذلك باتخاذ موقف إيجابي نحوها. وهو ما وجهت الآية الكريمة إليه، حيث أمر المولى جلّ وعلا باجتنب السماع، باتخاذ موقف تجاهه وهو القيام والانصراف عن مصدر المسموع من القول والمشاهد من الفعل.

ونجد في المقابل أن تلقى المدركات الإيجابية يأخذ بيد الإنسان إلى تنمية حاله من المستويات الدنيا في الاعتقاد والسلوك، إلى المستويات العليا. ذلك هو ما عبرت عنه الآية في وصف حال الجن الذين استمعوا للهدى فاهتدوا به.

قال تعالى: ﴿وَأَنَا لَمَّا سَمِعْنَا الْمُدَىءَ ءَامَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا

وَلَا رَهَقًا ۝١٣﴾²

هذه الآية تصف المال الذي بلغه الجنّ باستماع القرآن، فقد أفاد قولهم: "لما سمعنا القرآن الذي يهدي إلى الطريق المستقيم آمنا به... صدقنا به وأقررنا أنه حق من عند الله...".³ وهذا الوصف يُشكّل قاعدة عامة في حياة الجن والإنس على حدّ سواء، ذلك لأنّ التّعريض لما يرتقي بالعقل والقلب، لا شكّ أن له تأثير فيهما، إن لم يعترض تلك الانسيابية في الاهتداء بحود وتكبير. كما أن قضية تتبع سبل الاهتداء بمقدور البشر جميعاً، بل هو ممّا حُبّب إلى النفس، لأن النفس بطبيعتها مجبولة على حبّ الحقّ والميل له. ومن هنا حضّت دعوة الإسلام على اتباع هدي الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومجالسة الخيّرين، ومجانبة الجلوس مع أهل الباطل.

¹ (الغزالي: إحياء علوم الدين: ١٧٣/٢).

² (سورة الجن، آية: ١٣).

³ (تفسير الطبري: ١١١/٢٩).

المبحث الثاني

تحقيق استشارة البيئة

إن دعوة القرآن الكريم إلى تحقيق استشارة البيئة كمنهجية معرفية لها بالغ الأهمية في حياة الإنسان، تُعدّ من المظاهر الملحوظة في آيات الكتاب العزيز. وهي من الكثرة بحيث يمكن القول: إن القرآن الكريم جعل من البيئة مادة تعليمية وافرة بالعلوم والمعارف. وهي - في الوقت نفسه - مادة لها أثر مهم في تنمية الوظائف الحيوية للمخ. وذلك بحسب ما كشفت عنه التجارب العلمية في هذا المجال؛ فقد اتضح فيها أن "معمار المخّ قابل للتشكل عبر الاستشارة البيئية، وهذا هو المعنى الأساسي للتعليم، والتعلم بهذا المعنى يعتبر غذاء المخ. فالاستشارة الخارجية عبر الحواس تشكل المخّ إلى حدّ التأثير على أي من وظائفه، ولقد كانت الوظيفة محل الدراسة في التجربة المعروضة هي الرؤية، ولكن المبدأ واحد بالنسبة لوظائف الكلام وغيرها".¹ ولذا كان مفهوم الاستشارة له أهمية خاصة في تنمية مدارك الطفل، وتربيته، وتغذية معارفه. ولا يعني ذلك اقتصار تلك الحاجة عليه، فالإنسان في مراحل عمره المختلفة وإلى الوفاة، يبقى بحاجة مستمرة إلى تحقيق مزيد من المعرفة، وتغذية المخّ. ولا شك أن مفهوم استشارة البيئة يعني بالدرجة الأولى السير، والنظر، والتدبر، والكشف عن خبايا الموجودات وأسرارها، والإقدام على المعرفة بعين فاحصة. وما يتطلّب ذلك من الأساليب العلمية المتبعة في تتبع العلوم ومحاولة الكشف عنها. ولا يقتصر هذا المعنى على ما ذكر فحسب، ولكن يشتمل أيضاً على التأمل والتفكير بالمستوى العقلي الذي يملكه العوام من الناس. يقول الرشيدان: "لا يملك القارئ للقرآن الكريم المتدبر في آياته إلا أن يلحظ تأكيداً متكرراً وتوجيهاً مباشراً للسير والنظر، وأهميتهما في اكتشاف آيات الله في خلقه وتفهمها، وفي سنن التدافع والتداول، وسنن الصعود والاندثار".²

¹ (مصباح: العبقرية والذكاء والإبداع: ص: ١٧١.

² (الرشيدان؛ محمود عايد. حول النظام المعرفي في القرآن الكريم. دورية: إسلامية المعرفة. ص: ٣٠. سنة: ١٩٩٧م. الإصدار: ١٠. صفحات البحث: ٩ - ٤٣.

ولما كانت الحواس هي المنافذ الأولى لتحصيل تلك الاستشارة، فقد خاطب القرآن الكريم البشر، موجّهاً لحسن استغلال تلك الحواس في تحصيل أكبر قدر ممكن من العلوم والمعارف، مما يُغني المخ، والعقل، ويوطد اليقين بالله تعالى. وفيما يلي تم إيراد نماذج من آيات الكتاب العزيز مما تضمن دعوة لتوظيف البيئة كمرجع علمي غني بالمؤثرات المعرفية.

أولاً: التعرف إلى وفرة النبات وحسن ثمره.

قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ

فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا مَخْرُجًا مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ

وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَبِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ

وَيَنْبَغِيهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

تدعو الآية الكريمة إلى تدبر وفرة النبات وكليته، وبديع صنعه، ومراحل صنع إثماره وإنتاجه. وقبل ذلك كله سبب هذا النبات وهو المطر. فقله سبحانه وتعالى: (نبات كل شيء) عام في كل نبت يظهر على وجه الأرض. ومثل له بعض المفسرين بأنه: "الثمار والحبوب واللوان النبات".^٢ وقوله تعالى: (فأخرجنا منه خضراً مخرج منه حباً متراكباً). فُسِّرَ لفظ: الخضر بأنه أول النبات. وفسر الحب المتراكب بأنه السنبل الذي ركب بعضه بعضاً. والطلع بأنه ثمر النخيل.^٣

^١ (سورة الأنعام، آية: ٩٩).

^٢ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦٢/١).

^٣ (المرجع السابق، بتصريف يسير).

أما القنوان، فقال مقاتل: "قصار النخل".¹ وهي ليست كذلك، لارتباط لفظ: قنوان، بلفظ طلوعها. ووصف القنوان بأنها دائية، فهي إذن صفة لعنقود الرطب المتدلي من بين أغصان النخيل، وليست قصار النخل. والله أعلم. وقوله تعالى: (يَنْعِهِ) فمعناه: "نضجه وبلوغه حين يبلغ".² إن أول ما يتجلى لقارئ القرآن، حسن عرض هذه المخلوقات، وتسلسل مراحل الإنعام بها، وعظمة وقعها على المسامع، مما يهب الإحساس بشدة جمالها ولطف خلقها.

ولنتأمل قول الزمخشري في تفسير قوله تعالى: (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) قال: "إذا أخرج ثمره كيف يُخرجه ضعيفاً لا يكاد ينتفع به، وانظروا إلى حال ينعه ونضجه كيف يعود شيئاً جامعاً لمنافع وملاذ، نظر اعتبار واستبصار واستدلال على قدرة مقدرة ومدبرة وناقلة من حال إلى حال".³ إن هذا التفسير يصف مرحلة زمنية ليست قصيرة، بمعنى أن ذلك النضج لا يكتمل في يوم أو يومين أو ثلاثة، ولكنه يستمر لفترة تطول بعض الشيء. مما يفيد بأن التعرف على مراحل نمو النبات أولاً، ثم إثماره، ثم نضجه، يتطلب وقتاً يتنقل فيه الإدراك البصري والعقلي بين مشهد وآخر لهذه المراحل. يُعزّز ذلك ما جاء في تفسير النظر بأنه "نظر رؤية عين، ولذلك عدّاه إلى".⁴ وذلك يعني أن العين بإمكانها مراقبة مراحل الانتقال من الثمر الأخضر إلى الثمر السائر في مرحلة النضج إلى الثمر الناضج. إن النظر للمخلوقات والتعرض لوفرة منها، والنظر للبيئة عموماً، فذلك من العوامل التي يُطلق عليها مصطلح: إعمار المخ.

¹ (المرجع السابق: ٣٦٢/١.

² (تفسير الطبري: ٢٩٤/٧.

³ (الزمخشري: الكشاف: ٤٩/٢.

⁴ (الأندلسي: تفسير البحر المحيط: ١٩٥/٤.

وقد كشفت الدراسات المعاصرة عن صلة البناء المعماري لخلايا المخ، بما تُستثار به تلك الخلايا من مدخلات إدراكية. وحول ذلك قال عبد الهادي مصباح: "إن المخ يحتاج إلى استشارة خارجية مناسبة، عن طريق الحواس... لكي تتطور خلايا المخ، وتشابكها للقيام بوظائف معينة. وإن لم تتوفر هذه الاستشارة في فترات حرجة معينة، فإن الوظائف المعنية لا تتطور. وفي الفترة الحرجة لتطور وظيفة الرؤية لا تتعلم خلايا المخ وتشابكها التي تخصص عادة لوظيفة الرؤية، هذه الوظيفة إذا لم تتلق الاستشارة الخارجية البصرية اللازمة في هذه الحالة".¹ هذه النتيجة تؤكد على أهمية الاستفادة من المدركات الحسية بإثمار الإدراك الحسي من كل ما يمكن الاستفادة منه في البيئة من حولنا.

ثانياً: التعرف إلى عجب الصنع.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا

اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وقال سبحانه: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ

فَوْقَهُمْ صَفَقَتٍ وَيَقِظْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾².

يتجلى العجب في الصنع، في قدرة الطير على التحليق والهبوط. ولقد كانت عجباً فعلاً.

حيث قال بعضهم: "ويل أمها من هواء الجو طالبة، ولا كهذا الذي في الأرض مطلوب".³ وقال

الطبري: "ما طيراتها في الجو إلا بالله وتسخره إياها بذلك، ولو سلبها ما أعطاها من الطيران لم تقدر

¹ (مصباح: العبقرية والذكاء والإبداع، ص: ١٧٠.

² (سورة النحل، آية: ٧٩.

³ (سورة الملك، آية: ١٩.

⁴ (تفسير الطبري: ١٥٢/١٤.

على النهوض ارتفاعاً".^١ وقال الزمخشري: "مسخّرات: مذللّات للطيران بما خلق لها من الأجنحة والأسباب المواتية لذلك... ما يمسكهن: في قبضهن وبسطهن ووقوفهن إلا الله بقدرته".^٢ وأضاف الفخر الرازي تحليلاً لطيفاً لذلك المعنى فقال: "... فإنه تعالى أعطى الطير جناحاً يبسطه مرة ويكسره أخرى مثل ما يعمل السابح في الماء. وخلق الهواء حلقة لطيفة رقيقة يسهل بسببها خرقة والتفاد فيه، ولولا ذلك لما كان الطير ممكناً".^٣

لقد أبدع المفسرون في وصف ذلك الحال العجيب، فكيف بالناظر المتدبّر له. ومن المفيد أن لا نتجاوز مقام المفسرين في هذه العجالة لئلا تفوتنا تعبيراتهم التي دلّت فعلياً على عظمة الله تعالى في تلك القدرة التي وهبها الطائر، وعلى تأثرهم الواضح بذلك المظهر الذي أبدته الآية الكريمة بأهمي حلة. قال الشوكاني: "أي لم ينظروا إليها حال كونها مسخّرات، أي مذللّات للطيران بما خلق الله لها من الأجنحة وسائر الأسباب المواتية لذلك، كرقّة قوام الهواء وإهامها بسط الجناح وقبضه كما يفعل السابح في الماء".^٤ وقال ابن عاشور: "موقع هذه الجملة موقع التعليل والتدليل على عظمة قدرة الله وبديع صنعه، وعلى لطفه بالمخلوقات، فإنه لما ذكر موهبة العقل والحواس التي بها تحصيل المنافع ودفع الأضرار، نبّه الناس إلى لطف يُشاهدونه أجلى مشاهدة لأضعف الحيوان، بأن تسخير الجو للطير وخلقها صالحة لن ترفرف فيه بدون تعليم هو لطف بما اقتضاه ضعف بنياتها، إذ كانت عادمة وسائل الدفاع عن حياتها، فجعل الله لها سرعة الانتقال مع الابتعاد عن تناول ما يعدو عليها من البشر والدواب".^٥

^١ (المرجع السابق: ١٥٢/١٤.

^٢ (الزمخشري: الكشاف: ٥٨٢/٢.

^٣ (الرازي: التفسير الكبير: ٧٣٠/٢٠.

^٤ (الشوكاني: فتح القدير: ١٨٣/٣.

^٥ (الألوسي: التحرير والتنوير: ٢٣٤/١٤.

ويُضاف لما ذهب إليه المفسرون من بديع الصنع، وإحكام القدرة: قدرة أخسرى توابكها، فتحظى بمنعة جمال طيرانها وارتفاعها وهبوطها. تلكم هي قدرة إبصارها وهي في تلك الحركة، واستخلاص ما تتضمنه من معلومات حولها. فإن بعض الدراسات المعاصرة تنظر إلى "الإدراك بوصفه عملية استخلاص للمعلومات، من خلال منظومة المنبّهات البصرية التي تقع أمام الفرد".¹ ويؤكد الناظر إلى ذلك الطير أن يستخلص معانٍ جميلة، ومدارك جليّة. بل وفوائد علمية باهرة؛ فما اخترع الطائرات وتسهيل الرحلات إلا استخلاصاً لبعض المعاني التي جالت في ذهن الناظر إلى الطير في يوم من الأيام.

ثالثاً: التعرّف على دلالة إحاطة السموات والأرض.

قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ

لَشَأْ نُخَسِّفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ

عَبْدٍ مُّنبِّئٍ ﴿١﴾

قال الطبري: "أفلم ينظر هؤلاء المكذّبون بالمعاد... إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض، فاعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضي وسمائي محيطة بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيّامهم وعن شمائلهم".² وهذه الإحاطة تعني أن البشر "لا يقدرّون على أن ينفذوا من أقطارهما، ولا يخرجوا عن ملكوت الله فيهما".⁴

¹ (أبو المكارم: أسس الإدراك البصري للحركة، ص: ٩٧.

² (سورة سبأ، آية: ٩.

³ (تفسير الطبري: ٦٤/٢٢.

⁴ (الأندلسي: تفسير البحر المحيط: ٢٥١/٧.

ويرى ابن عاشور أن المفردات الأولى من الآية يُراد بها عدّة معانٍ، هي "الرؤية بصرية بقرينة تعليق: (إلى) فمعنى الاستفهام عن انتفائها منهم انتفاء آثارها من الاستدلال بأحوال الكائنات السماوية والأرضية على إمكان البعث... والمراد بـ: (ما بين أيديهم): ما يستقبله كل أحد منهم من الكائنات السماوية والأرضية، وبـ (ما خلفهم) ما هو وراء كل أحد منهم، فإنهم لو شاؤوا لنظروا إليه بأن يلتفتوا إلى ما وراءهم، وذلك مثل أن ينظروا إلى النصف الشمالي من الكرة السماوية في الليل ثم ينظروا النصف الجنوبي منها، فيروا كواكب ساطعة بعضها طالع من مشرقه، وبعضها هارٍ إلى مغربه، وقمرًا مختلف الأشكال باختلاف الأيام، وفي النهار بأن ينظروا إلى الشمس بازغة وآفلة، وما يقارن ذلك من إسفار وأصيل وشفق. وكذلك النظر إلى جبال الأرض وبحارها وأوديتها، وما عليها من أنواع الحيوان واختلاف أصنافه... والسما والارض أُطلقنا على محتوياتهما...".¹ إن مفهوم الآية يشير إلى أن الله سبحانه وتعالى جعل السموات والأرض مرجعاً عظيماً يحصل للعباد منه دروساً ومواعظ بالغة النفع في دينهم ودنياهم. فإن جميع ما في السموات والأرض عنوانٌ على علومهما، وعنوان على وجود آثار قدرة الخالق فيهما. وعنوان على ضعف الإنسان وقلة حيلته في التعامل معهما. وأتتهما إطاران عظيمان لا يقدر على تجاوزهما، وإن استخدم كل ما أوتي من قوة.

إن هذه العلوم تمبها الآية لمن يتدبر تدبراً فعلياً لما بين يديه وما خلفه من السموات والأرض، فهو في أمسّ الحاجة لهذا التدبر، ليتحقق له مفهوم الاستشارة بمعناه المفيد، فإن "الاستشارة السليمة للمخّ ليست مجالاً للعب أو التحريب، بل هي مسألة معقدة وباهظة الثمن إذا أهملناها".² ولذا كانت السموات والأرض مجالاً رحباً للإلمام بكثير من المدركات التي يتأتى عنها تحصيل أهم العلوم وأقومها. ويؤكد ذلك أن مدركاتها تفوق قدرات البشر كثيراً، فلو جلس الإنسان طيلة حياته للإلمام بما فيهما

¹ (الألوسي: التحرير والتنوير: ١٥٢/٢٢، ١٥٣.

² (مصباح: العبقريّة والذكاء والإبداع، ص: ١٧٥.

لانتهايت حياتاه قبل أن يبلغ أمله. وتذهب لهذا المعنى بعض الدراسات المعاصرة، التي تفترض أن "المنبّهات الحسية تحتوي على معلومات أكثر بكثير مما يُدرك... وأن المعلومات التي تمدنا بها البيئة البصرية كافية لحركة الفرد في البيئة، وتفاعله بشكل مباشر معها دون الانشغال بالعمليات والتمثيلات الداخلية".¹

وتشير دراسة أخرى إلى أن "توفر بيئة غنية بالمنبّهات الحسية المتنوعة والمرتبطة بجميع مهارات الحياة المختلفة لتعمل على توسيع آفاق الإدراك والبنية المعرفية للفرد. كما تعمل البيئة الغنية على توفير الدوافع اللازمة لتوجيه الفرد نحو تحقيق الفهم السليم للمواقف البيئية المحيطة به".² ولذا كان المسلم سعيداً بتوجيهات ربّ العالمين، قادراً على الانتفاع بما نفعاً عظيماً، فإن الله سبحانه وتعالى يسّر له سبيل البحث وأرشده إليها، وأخذ بيده لما فيه سعادة وخيري الدنيا والآخرة.

رابعاً: التعريف بمنافع النعم وكثرة الدلائل والشواهد.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ

﴿٧٩﴾ فِيهَا مَنَافِعٌ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَالِكِ

تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

جاء في تفسير الآية الكريمة أن الأنعام المذكورة هي الإبل، وخصّص الفعل (لتركبوا منها)

للتبعية. وكذلك في قوله تعالى: (ومنها تأكلون). والمنافع المذكورة التي تتحصّل منها غير الأكل

هي: ما يستخدم من وبرها وصوفها وشعرها وزبدها وسمنها وجبنها. وكذلك حملها الأثقال من بلد

¹ (أبو المكارم: أسس الإدراك البصري للحركة، ص: ٩٦.

² (العتوم: علم النفس المعرفي، ص: ١٠٨.

³ (سورة غافر، الآيات: ٧٩ - ٨١.

إلى بلد. وكما تحملكم الأنعام في البر، تحملكم السفن في البحر. وذلك كله دلالات وآيات على كمال قدرة الله تعالى¹، وهي "كلها من الظهور وعدم الخفاء بحيث لا ينكرها منكر ولا يجحدتها جاحد".² وهذه الآيات تابعت آيات أخرى، أشار ابن عاشور لها بقوله: "انتقال من الامتنان على الناس بما سخر لأجلهم من نظام العوالم العليا والسفلى، وبما منحهم من الإيجاد وتطوره وما في ذلك من الألفاظ بهم وما أدمج فيه من الاستدلال على انفراده تعالى بالتصرف، فكيف ينصرف عن عبادته الذين أشركوا به آلهة أخرى، إلى الامتنان بما سخر لهم من الإبل لمنافع الجمّة، خاصّة وعمامة. فالجملة استئناف سادس".³ وفي حديثه عن قول المولى جل وعلا: (الفلك) أضاف إشارة مهمة فقال: "وجه الامتنان بالفلك أنه امتنان بما ركّب الله في الإنسان من التدبير والذكاء الذي توصل به إلى المخترعات النافعة بحسب مختلف العصور والأجيال".⁴ أما الآية التي أعلمت السامع بأن ذلك الإنعام كله مُدرك بالبصر والحواس، فهي قوله تعالى: (ويريكم آياته فأي آيات الله تنكرون)، وقد تحدّث ابن عاشور في معناها حديثاً مطوّلاً، تقتضي حاجة هذا العنصر أن يتم إيرادها بتمامها، للإفادة منه فيما يخص موضوع استشارة البيعة، وما يتعلّق بها من تعريف بالنعم. فبعد إيراد الآية المذكورة (ويريكم...) قال ابن عاشور: "عطف على جملة (لكم الأنعام) أي الله الذي يريكم آياته. وهذا انتقال من متعدد الامتنان بما تقدم من قوله: (الله الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه) (الله جعل لكم الأرض قراراً) (هو الذي خلقكم من تراب) (الله الذي جعل لكم الأنعام) فإن تلك ذكرت في معرض الامتنان تذكيراً بالشكر، فبِه هنا على أن في تلك المن آيات دالة على ما يجب لله من

¹ (الشوكانى: فتح القدير: ٥٠٢/٤. بتصرف).

² (المرجع السابق: ٥٠٢/٤).

³ (ابن عاشور: التحرير والتتوير: ٢٤/٢١٤).

⁴ (المرجع السابق: ٢٤/٢١٧).

الوحدانية والقدرة والحكمة. ولذلك كان قوله (ويريكم آياته) مفيداً مُفاد التذييل لما في قوله (آياته) من العموم، لأن الجمع المعرف بالإضافة من صيغ العموم، أي يريكم آياته في النعم المذكورات وغيرها من كل ما يدلّ على وجوب توحيده وتصديق رسله ونبذ الكابرة فيما يأتونهم به من آيات صدقهم. وقد جيء في جانب إراءة الآيات بالفعل المضارع لدلالته على التجدد لأن الإنسان كلما انتفع بشيء من النعم علم ما في ذلك من دلالة على وحدانية خالقها وقدرته وحكمته. والإراءة هنا بصرية، عبّر بها عن العلم بصفات الله إذ كان طريق ذلك العلم هو مشاهدة تلك الأحوال المختلفة فمن تلك المشاهدة ينتقل العقل إلى الاستدلال...¹ إن ما ذكره ابن عاشور حول عطف الرؤية على نعم متعدّدة سابقة يشير بوضوح تام إلى كون تلك النعم تلبي حاجة الإنسان إلى تجدد إدراكها وتدبر صنعها وجزيل الإنعام بها، فقد ذكرها المولى جل وعلا بصيغة المضارع الذي أفاد ذلك.

وإن استمرارية تجدد الإدراك الحسي للنعم السابقة: ما ذكر في هذه الآيات الكريمة وما ذكر في غيرها من الآيات، يُعدّ من قبيل حاجة الإنسان إلى تحقيق استشارة البيعة بما فيها مسن مسدركات حسية، تُحقق له معارف إيمانية وعلمية، وغيرها.

¹ (المرجع السابق: ٢١٧/٢٤، ٢١٨).

المبحث الثالث

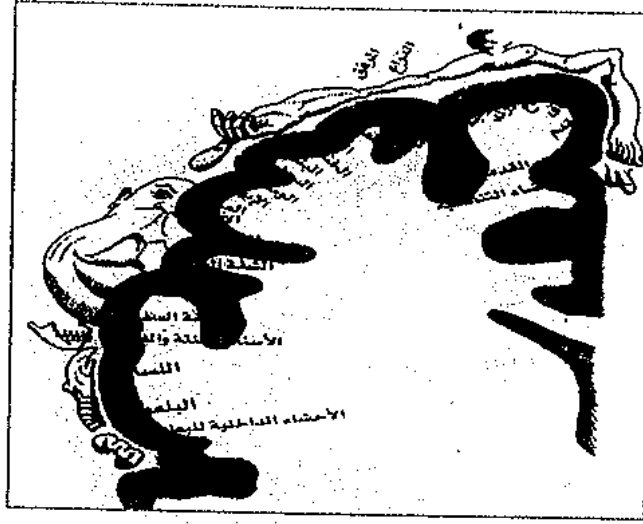
توجيه النشاط الإيجابي في انتقاء المدركات

وتفادي التعرض السلبي

لا شك أن الإنسان يتعرض في كل لحظة إلى كثير من المثيرات الحسية، وهي من الكثرة بحيث لا يمكنه إلا أن يهتم ببعضها أو بواحد منها، مما يرغب في تحصيله بدقة. ورغم ذلك يتأثر الإنسان بما حوله من المدركات الحسية والفكرية، على حد سواء، وتُشكّل تلك المدركات بالنسبة له مرجعية يستفيد منها ذهنياً فيما يتطلبه تعامله مع نفسه أو الآخرين، أو في أي تعامل كان. ويوضح الباحثون ذلك بقولهم: "من خلال شبكة من الخلايا العصبية في نصفي المخ الكرويين يتم من خلالها رصد الأشياء في البيئة المحيطة بالإنسان، فكل ما يراه، أو يفعله، أو يسمعه، أو يفكر فيه، ويتخيّله يُخزن في هذه الشبكة من الخلايا العصبية، فهي تخزن الشكل واللون والملمس، وردّ الفعل تجاه الشيء. وتتطور وظيفتها مع الزمن حتى تستطيع أن تجمع مجموعة من المعاني والأشياء تحت اسم واحد أو معنى واحد وتربطه بشيء آخر، مثل التعبير بالاستعارة أو الكناية أو ما إلى ذلك".¹

انظر الشكل الآتي. سترى صورة مقطعية للقشرة الدماغية، توضح صلة أعضاء الجسم بمواضع معالجتها في القشرة الدماغية. ويتضح من خلالها ما يتمتع به الإنسان من حيوية تجاه إرادته الإدراكية والمعرفية. ذلك لأن جميع الجسد يُزوّد الدماغ بمعلومات معينة، فيستطيع الإنسان أن يتعامل مع كل معلومة بطريقة ما.

¹ (مصباح: العبقرية والذكاء والإبداع، ص: ٧٨.



الشكل ٢٠٢، مواقع أنشطة الدماغ المتعلقة بأعضاء الجسم على القشرة الدماغية (خيل، 2002)

الشكل: (٥)

شكل يُظهر مواضع أنشطة الدماغ المتعلقة بأعضاء الجسد: العتوم، علم النفس العربي: ٥٠

يتضح في هذا الشكل أن الإنسان قادر على تحصيل المدركات بما يبذله من نشاطات إيجابية مقصودة ومنظمة. وكذلك ما يبذله من نشاطات إدراكية عفوية، أو غير مقصودة. وذلك لما تلقاه مراكز الدماغ من معلومات تتأتى عن أعضاء الجسد والحواس. مما يفيد إمكانية الاستفادة من قدرات الإدراك المقصود. ومن هنا تملئ الحاجة إلى إلقاء الضوء على أهمية الإدراك المقصود، وليس الإدراك التلقائي، وأهمية توجيه الإدراك المقصود نحو المفيد من المدركات، بحيث يتم قصد انتقائها، والتيقظ لما ينبغي إدراكه، بحيث لا يكون التعرض للمدركات من حولنا سلبياً عابراً. ذلك لأن عين الإنسان - على وجه الخصوص - تلتقط المادة المدركة في سرعة عالية، ويكون لها تأثير عجيب. ففي "زمن لا يتجاوز ١٠/٣ من الثانية تمر الصورة من العين إلى المخ لتحدث تغيرات تشريحية ووظيفية تترتب عليها

تغيرات في السلوك".^١ ولما كان الأمر كذلك فإن الخلايا العصبية في نصفي المخ التي تختزن كثيراً من المدركات، تستدعي أن يتقي الإنسان ما يفضله من المدركات النافعة، فيحاول الهيمنة على هذه العملية قدر استطاعته، ليتسنى له تحقق معرفة أفضل.

ويمكن التمثيل للقدرة على الانتقاء، بما يتعرض له الناس من برامج تلفزيونية، فمنهم من يفضل مشاهدة القصص الخيالية التي تُعرض على شكل أفلام ومسلسلات. ومنهم من يفضل مشاهدة برامج ثقافية ودينية. ومنهم من يفضل مشاهدة برامج سياسية، وغير ذلك. فهؤلاء كلُّ صنف منهم، تتصفُ البنى المعرفية لديه بأنها ذات قيمة إدراكية محدّدة، فمنهم من تتكوّن لديه بُنى معرفية ضعيفة المستوى من الناحية القيميّة، ومنهم من يكون أعلى من ذلك. وكلّ في مرتبةٍ معيّنة يختلف فيها عن الآخر، وتؤثر هذه المراتب بدورها على القدرات العقلية والفكرية والعملية أيضاً التي تظهر في ممارساته اليومية وفي أقواله وأفعاله. وذلك يُشير إلى سبب الفارق الكبير بين الذين يعلمون والذين لا يعلمون، كما قال تعالى: ﴿... قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو

الْأَلْبَابِ ﴿١﴾. وفي الوقت نفسه يعيب القرآن على من يتيسّر لهم تحصيل مدركات مفيدة، فيعرضون عنها، ويكون تعرضهم لها سلبياً بحيث لا يتم تحصيل مادتها كما ينبغي أن تكون. وفيما يلي تمت دراسة نماذج من آيات الكتاب العزيز، مما حوت مؤشرات تتضمن توجيهات تتعلق بهذا الموضوع.

JAMES B. WEAVER AREAS OF BRAIN ACTIVATION MALES ⁽¹⁾
AND FEMALES DURING VIEWING OF EROTIC FILM EXERPTS
2004.

⁽²⁾ سورة الزمر، الآية: ٩.

أولاً: انتقاء المفيد من القول.

قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ

وَأُولَئِكَ هُمُ أَوْلُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾^١. تبين في مفردات الآية الكريمة أن الذين وجَّهوا همهم نحو

القول الأحسن واتباعه، هم قومٌ وجَّهوا نشاطهم الإيجابي في إدراك ما يسمعون من القول، وجعلوا في أنفسهم إقبالاً عليه لتمييزوا بين الحسن والأحسن منه فيتبعوه. وقد ذكر المفسرون المراد بقوله تعالى:

(القول) فحدَّده بعضهم، وأطلقه آخرون. فقال القرطبي: "قال ابن عباس: هو الرجل يسمع الحسن

والقبيح فيتحدث بالحسن، ويكفّ عن القبيح فلا يتحدّث به، وقيل: يستمعون القرآن وغيره فيتبعون

القرآن، وقيل: يستمعون القرآن وأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم فيتبعون أحسنه أي مُحكّمه

فيعملون به. وقيل يستمعون عزمًا وترخيصاً فيأخذون بالعزم دون الترخيص..."^٢. وقال السعدي:

"وهذا جنس يشكّل كل قول، فهم يستمعون جنس القول، ليميزوا بين ما ينبغي إثارة، ممّا ينبغي

اجتنابه، فلهذا كان من حزمهم وعقلهم أنهم يتبعون أحسنه، وأحسنه على الإطلاق: كلام الله وكلام

رسوله صلى الله عليه وسلم..."^٣.

إن ما ذكره المفسرون قاعدة تربوية عامة، يُستفاد منها فيما يتعلق بأمور السدين، والسدنيا؛

فالإنسان في جميع أحواله بحاجة إلى تهذيب عملية التنمية الذاتية. والتنمية الذاتية تقتضي اقتفاء الحكمة

فيما يتزوّد به من مدرّكات ومعارف. وتبقى الحاجة مستمرة إلى التزوّد بما يرتقي بالبنى المعرفية في

حلايا المخ، كمّاً وكيفاً، فالمضمون الذي يؤسس تلك البنى ينبغي أن يكون مضموناً مفيداً. وقد سبق

^١ (سورة الزمر، آية: ١٨).

^٢ (تفسير القرطبي: ٢٤٤/١٥).

^٣ (تفسير السعدي: ٧٢١/١).

القول في مبحث "تحقيق استشارة البيعة" إن الله تعالى حثَّ على تحقيق إدراك محاسن خلقه وعجائبها وما يعبر عنه ذلك الخلق من قدرات باهرة، لا يملك العقل تجاهها إلا الخضوع والتسليم.

وفي هذا المبحث تتأكد أهمية تحقيق استشارة البيعة، فالبيعة تحتوى على ملايين المشيرات الإدراكية، وقد يمرّ الإنسان بينها مروراً عابراً سليباً، فلا يجد في نفسه اهتماماً بالإفادة من ذلك الكم الهائل من المدركات. ولا يخفى أن ذلك تضييعاً عظيماً لما يمكن أن يكون منبعاً معرفياً ضخماً تُعزّز به إنسانية الإنسان وكرامته. ولتتضح أهمية توجيه النشاط الإيجابي في انتقاء المدركات، وأن بيد الإنسان أن ينتقي المفيد كما بيده أن ينتقي الضار، وأنه لا تتم عملية الإدراك الأفضل إلا بربط عملية الإحساس بالانتباه. ولتتضح ذلك تحسن الإشارة إلى أن عملية الإدراك تعدّ في المرتبة الثالثة بعد مرتبة الحس والانتباه، وتترابط المراتب الثلاث ترابطاً وثيقاً. وهو ما دلّ عليه قول العتوم: "يتضح أن هذه العمليات الثلاث مترابطة ومتسلسلة وتعتمد إحداها على عمل الأخرى. وتبدأ هذه العمليات بالإحساس ثم بالانتباه ثم الإدراك، حيث لا يعقل حدوث الانتباه بدون الإحساس (لا يوجد ما نتبّه له) ولا يعقل الإدراك بدون الانتباه بسبب كثرة الثيرات التي يمكن أن تصل دماغ الإنسان. كمسا لا يعقل حدوث الإدراك دون حدوث الإحساس لأنه لا يصل الدماغ ما يقوم الفرد بإدراكه".¹

إن تلك العمليات تُمكن الإنسان من توجيه اهتمامه وتبنيّه لمعالي الأمور وأقومها. ثم اتباعه لها. وهو ما دلّت عليه الآية الكريمة.

ثانياً: آثار المواقف السلبية تجاه المدركات النافعة.

ذَكَرَ كتابُ الله تعالى من لا يعبأ بالمدركات النافعة، ولا يعيرها أي اهتمام أو انتباه، بل يتخذ موقفاً سلبياً تجاهها، ويُصرّ على تجاهلها، فيزداد قسوة وإعراضاً. وهو حال يمثل لأحوال كثيرة مثله

¹ (العتوم: علم النفس المعرفي، ص: ٦٧).

من الناس، سواء تجاه دينهم، أم تجاه دنياهم، فمن الناس من يعرض عن هدي ربه. ومن الناس أيضاً من يُعرض عن تحصيل ما يفيد من العلوم التي تأخذ بيده إلى التزام السلوك السليم تجاه نفسه وغيره. ومنهم من يُعرض عن تلقي العلوم التي تأخذ بيده إلى الاتزان والعقلانية والقدرة على مواجهة الظروف. وهذا يُفسّر أسباب السلوكيات المختلفة التي يتخذها الناس تجاه بعضهم بعضاً في المواقف المختلفة. والحالة التي ذكرها القرآن الكريم جاءت في قوله تعالى ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُنَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ

يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِيرَةٌ بِعَذَابِ إِلِيمٍ ۝٨﴾^١.

قوله تعالى: (يسمع) يُراد به: سمع الأذن بقريئة: (تنلى عليه). فإن آيات الله تعالى تنلى على مسامعه، ولكنه يُعرض عن الاهتمام بها والانتباه لما فيها من مواعظ. يدعو لذلك استكباره وإعراضه عن الحق.

إن الاستكبار يمثل حائلاً كبيراً عن إدراك الحقيقة، ويمثل عائقاً كبيراً يحول دون التعرف على قيمة المدركات. ذلك لأن الكبر يعني في حقيقته: "شعور خادع بالاستعلاء والخيلاء، مصحوب باحتقار الناس والتّرفع عليهم، فهو انفعالات داخلية أساساً"^٢. وإن كانت كذلك فستحول دون سمع الآخرين، وإن كان حديثهم قد بلغ الغاية في النفع والبيان.

^١ (سورة الجاثية، آية: ٨).

^٢ (توفيق: محمد عز الدين. التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية. ص: ٣٧٤. دار السلام، القاهرة).

الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ، ١٩٩٨م.

وفي تفسيره لقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ

وَالْعَوَافِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٣٦) ^١. قال ابن عاشور: "لأنهم لو سمعوا ووعوا لاهتدوا، لأن الكلام

المسموع مشتمل على تركيب الأدلة ونتائجها، فسماعه كافٍ في حصول الاهتداء".^١ ذلك لأن القرآن الكريم يقدم للعقل البشري مادة المعرفة مُصاغة في أجمل أسلوب وأحسنه، ويخاطب العقل مقدماً له شواهد الحسّ فيما يدعوه لتحصيله وتقبّله. ولو تأملنا خطابه في الدلالة على آيات الكون - مثلاً- لوجدنا أن للقرآن: "أسلوبه الحكيم في الدلالة على آيات الله في الكون؛ فالحديث العلمي الكوني في القرآن لا يكاد يتوقف، وفي أسلوب رائع وإعجاز علمي بالغ، يوقظ عقل الإنسان في رفق ويُسر، ويخاطب كل البشر على اختلاف عقولهم وزمانهم".^٣ والأمر ليس مقتصر على أسلوب عرض قضايا الكون فحسب، ، فأسلوب القرآن كله على ذلك النحو من البيان والإعجاز.

وقد أثنى سبحانه وتعالى على مَنْ وظّف سمعه في تلقّي الحق وقبوله في قوله تعالى:

﴿... وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣٨٥)

وفي حديثه عن معنى الآية قال علي سلامة: "وعطف على السمع والطاعة والاستجابة، أي

وظفوا سمعهم في الغرض المنشود فيما خلّق له".^٥ وكان ذلك التوظيف عائد عليهم بربح وفوز عظيم.

^١ (سورة فصلت، الآية: ٢٦.

^٢ (الآلوسي: التحرير والتنوير: ٣٧/١٢.

^٣ (حسب النبي: الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث. ص: ٢٦.

^٤ (سورة البقرة، الآية: ٢٨٥.

^٥ (سلامة: علي محمد. السمع والبصر في القرآن الكريم، ص: ٩٨. منشورات جمعية الدعوة

الإسلامية العالمية، طرابلس، ليبيا. الطبعة الأولى: ١٣٩٥هـ، ١٩٨٦م.

وفي المقابل يُشار لمن هم على غير ذلك من الإعراض، فبإعراضهم يُحرمون من تأثر مداركهم بما يمكن أن يُوجّه سلوكهم ويصقل نفوسهم من المدركات النافعة. يدعونا هذا الأمر لإيراد معلومة ذُكرت في دراسة تتعلق بتأثير صوت التلاوة على الإنسان من نواحٍ عدة، ليتضح من خلالها سلبيات الإعراض عنه، فبضدّها تتبيّن الأشياء.

قال محمود عبده: "وقد أثبت العلم الحديث أن الصوت صورة من صور الطاقة، وينتقل على شكل موجات، وعند وصول الصوت إلى الأذن تبدأ إرغاصات الإدراك السمعي، والتي تنتهي بالفهم، والتخيّل، والرغبة، والرّهبة، والحب، والبغض، وكافة المشاعر الإنسانية المرتبطة بالمؤثر الصوتي، سواء كان له معنى في ذاته أو أثار في نفسك قصصاً وذكريات وتنشأ عن ذلك الفكرة، والتّية، والعزيمة، والإرادة، والفعل. وذلك وفقاً لما يمكن أن يحمل الصوت المسموع من معانٍ ومفاهيم، ونغم، وهدير، مما يكون له تأثيره على النفس والجسد".^١ وهكذا يتضح أن انتقاء المدركات السمعية ذات التأثير الإيجابي لها أهميتها في حياة الإنسان، وتزداد الأهمية فيما يُتلى من القرآن الكريم، فيها يتحقّق للإنسان ذخيرة تفوق الوفرة من المدركات المعرفية القيمة.

ثالثاً: التعرّض السلبي للمدركات النافعة دلالة الجهل.

قال تعالى: ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ

يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾

١ (www.abna.ir/data.asp عبده: محمود يوسف، المعجزة الصوتية للقرآن الكريم، تم

الدخول للموقع بتاريخ: ٢٥/٥/٢٠٠٩م.

٢ (سورة الأنبياء، آية: ٢.

قال الزمخشري: "والذكر: هو الطائفة النازلة من القرآن".^١ وقوله تعالى: (محدث) أي: "الذي يُحدثُ الله عز وجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم من القرآن لا مُحدث عند الله تعالى".^٢ و (لاهيبة) بمعنى "غافلة"^٣ "مشتغلة بالباطل عن الحق".^٤ أما اللعب فيراد به الالتهاة والاشتغال.^٥ والآية تقرّر أهمّ معروضون عن "تنبيه المنبّه، وإيقاظ الموقظ: بأن الله يجدد لهم الذكر وقتاً فوقتاً، ويُحدث لهم الآية بعد الآية والسورة بعد السورة، ليكرّر على أسماعهم التنبيه والموعظة لعلهم يتعظون...".^٦

إن اشتغال هؤلاء عن الإنصات لما يُتلى عليهم، في كلّ مرّة يتنزّل فيها القرآن على رسول الله صلى الله عليه وسلم، دليل واضح على شدة غفلتهم، وجهلهم المطبق. وهو عين التعرّض السليبي للمدرّكات النافعة. ويريد ذلك وضوحاً أن تجدد تلاوة القرآن على مسامعهم حيناً بعد حين - والتجديد في الغالب يثير الاهتمام- لا يعينهم ذلك في شيء، فهم يستقبلونه باللعب واللهو والسخرية والاستهزاء. أشار لذلك الفخر الرازي في مناقشته تقلّم وصف اللعب على اللهو، فقال: "وإنما ذكر اللعب مقدماً على اللهو كما في قوله تعالى: (إنما الحياة الدنيا لعب ولهو).^٧ تنبيهاً على أن اشتغالهم باللعب الذي معناه السخرية والاستهزاء مُعلّل باللهو الذي معناه الذهول والغفلة، فإنهم أقدموا على اللعب للهوهم وذهولهم عن الحق. والله أعلم بالصواب".^٨

^١ (الزمخشري: الكشاف: ١٠٢/٣).

^٢ (تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٥١/٢).

^٣ (تفسير الطبري: ٢/١٧).

^٤ (تفسير السمعاني: ٣٦٨/٢).

^٥ (تفسير القرطبي: ٢٦٨/١١. بتصرف يسير).

^٦ (الزمخشري: الكشاف: ١٠٢/٣).

^٧ (سورة محمد، آية: ٣٦).

^٨ (الرازي: التفسير الكبير: ١٢٠/٢٢).

ويُشار لفعل هُؤلاء ضمن واحد من التصنيفات التي وُصفت بها طُرق السماع؛ فالسماع للمدرجات الصوتية إما أن يكون منصتاً باهتمام كامل أو باهتمام متوسط أو بغير ذلك من الصفات. وهي تحدّد موقف الشخص مما يسمعه، فإن كان ما يسمعه مهماً بالنسبة له، ركّز على ما يُقال واهتمّ به، وإن كان على غير ذلك، فبحسب منزلة المسموع لديه. ولما كان وصفهم في القرآن الكريم هو اللعب واللهو تجاه ما يُتلى عليهم، فدلّ ذلك على أن القرآن الكريم لا قدّر له عندهم ولا أهمية. ومن المفيد في هذا المقام إيراد تصنيفات السامعين للنظر فيمن يندرج وصف من ذكرهم الآية الكريمة. فمن صفات الاستماع أنه "يستخدم بدرجات متفاوتة لتحقيق أغراض مختلفة"^١. ومنها الآتي:

١. سماع أصوات الكلمات دون التأثير بمعانيها.

٢. الاستماع المنقطع، غير المتواصل.

٣. نصف استماع، كالاستماع من شخص إلى مناقشة، لا من أجل التأثير بها، بل لاختبار

ما لديه من معلومات وأفكار في ضوء ما يُطرح في المناقشة من قضايا.

٤. الاستماع إلى تقرير للحصول على أفكاره، والتزوّد بالتفاصيل واتباع الإرشادات.

٥. الاستماع التذوقى والناقد، حيث ينفعل المستمع بالكلمات ويعايشها عاطفياً.^٢

يُلاحظ في الصفات المذكورة أن حال أولئك اللاعبين الملتهمون عن سماع كل جديد مُنزل من القرآن الكريم، هو حال مُخالف لجميعها، وإن اقترب بعض الشيء من الاستخدام الأول. إلا أنه يزيد عليه بقصد التشاغل عنه باللعب واللهو. وإن دلّ ذلك على شيء فيدلّ على صفة أخرى تُفهم من مضمون الآية الكريمة، ألا وهي تعطيل الإيجابية فيما يمكن تحصيله من المدرجات النافعة. ولسنا فإن

^١ (علي: عبد النبي محمد. ومحجوب: عباس. المهارات اللغوية، ص: ٢٠. جامعة النيلين، الخرطوم.

الطبعة الثالثة: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

^٢ (المرجع السابق، ص: ٢٠.

ذلك يقابل الإيجابية في السماع، وهي أن يقوم المستمع "بمتابعة المتحدث متابعة سريعة مصحوبة بتحقيق المعنى، كما ينبغي أن يقوم بعملية مراجعة فكرية فيما يقول المتكلم. وفي الوقت نفسه يتسابع الأفكار ويحتفظ بها...".¹ وبذلك يحقق السامع عملية الاستقبال بموضوعية أكبر؛ والاستقبال الجيد للمدركات هو "أبعد ما يكون عن مجرد التعرض السلبي لما ينصب على حواسنا، إنما هو نشاط إيجابي يتم في شكل انتقاء لبعض ما يقع على حواسنا دون البعض الآخر، وعلى محاولة لتنظيم هذا الذي تنتقيه في بناء، تُعامل بعض أجزائه على أنها أساسية أو محورية، والبعض الآخر على أنها تابعة أو فرعية".²

ومن هنا يتضح الدور الإيجابي للإنسان، القادر على الاستفادة من قدراته وطاقاته والوسائل التي زوّده الله سبحانه وتعالى بها، وجعله قادراً على الانتفاع بما خلقت له إلى ما ليس له حدٌّ من وجوه الانتفاع. وذلك فضل عظيم، فالحمد لله رب العالمين.

¹ (عبد النبي ومحجوب: المهارات اللغوية. ص: ٢١.

² (سويف: دراسات في الإبداع والتلقي، ص: ٢٠٣.

الفصل الرابع

الآثار التربوية والتعليمية للإدراك الحسي في

القرآن الكريم

وفيه مبحثان:

المبحث الأول: الآثار التربوية للإدراك الحسي في القرآن

الكريم.

المبحث الثاني: قضايا تعليمية مستفادة من عمليات الإدراك

الحسي.

المبحث الأول

الآثار التربوية للإدراك الحسي في القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: الآثار الاعتقادية.

المطلب الثاني: الآثار النفسية.

المطلب الثالث: الآثار السلوكية.

المطلب الأول

الأثار الاعتقادية

يتأثر معتقد الإيمان في قلب الإنسان -المسلم خاصة- بما تُوجّه الآيات الكريمة إليه من مدركات سمعية وبصرية، ذلك لأن آيات الكتاب العزيز، المتضمنة لذلك التوجيه، تنوعت موضوعاتها، وتعددت مضامينها الإدراكية. وهي في جميع ذلك تنطلق إلى تحقيق غاية رئيسية، تعمل على إحكامها في القلوب. ألا وهي توحيد الله تعالى وعبوديته.

ولم يعتمد القرآن الكريم على توجيه "الفطرة وحدها في الاعتراف بالخالق، ومن ثم فهو يحرك في نفوس الناس الشوق للدراسة وطلب المعرفة فيشير إلى ما في السموات، من نظام بديع محكم، وإلى اختلاف الليل والنهار وحركات السيارات والأرض وغير ذلك من دقائق الكون وأسراره".¹

إن تلك الغاية، تُبلّغها آيات الكتاب العزيز من خلال تأسيس منهج قويم، تعددت مجالاته، لتهيمن على جميع قوى الإنسان: العقلية والفكرية والنفسية والبدنية...، فتوجهها نحو ما يأخذ بيده إلى ذلك الهدف؛ فهي تخاطب إدراكه السمعي والبصري لتحقيق له غيرهما، مزيداً من المعارف، ومزيداً من اليقين، ومزيداً من الثقة، ومزيداً من الثَّظُم الحياتية، ومزيداً من القدرة على حسن التدبير... الخ. ليتأكد له من ذلك كله أنه مُحاط برعاية ربانية، وإله واحد مُدبّر، قادر بحكمته على رعاية شئونه كلها، وتلبية حاجاته كلها، ابتداءً من أقلّ حاجة تعثره، إلى أكبر حاجة.

فإن الله سبحانه وتعالى وهب الإنسان نعمة السمع والبصر "وامتنّ عليه بها، وذلك لما لها من غايات سامية، منها النظر والتفكير في آيات الله المرئية، والاستماع والتدبّر في آيات الله

¹ (علي: سعيد إسماعيل: أصول التربية الإسلامية. ص: ٣٠. دار الثقافة للطباعة النشر، القاهرة. ١٩٨٧م. دط.)

المسموعة... وقد جعل الله الإنسان مسئولاً عن استعمال هذه الملكات والمواهب، وعن حسن توجيهه لها إلى ما خلقت له".¹ وأن الإنسان "إذا أحسن استخدام مواهبه من حواس ومشاعر ومدارك، ووجهها إلى إدراك دلائل الهدى في الكون والنفوس وما يجيء به الرسل من آيات وبيّنات، فإنه يؤمن ويهتدي بهذا الإيمان إلى طريق الخلاص".² وبالنظر إلى جميع الآيات التي تمت دراستها في المباحث السابقة، اتضح أنها تربط بين ما تدعو إليه من مدركات سمعية وبصرية، وبين ما يتأتى عنها من تأسيس وترسيخ للإيمان بالله تعالى، واليقين به سبحانه، على وجه الخصوص، وتأسيس للمعارف الأخرى عموماً. فقد دعت آيات الكتاب العزيز الإنسان للتعرف على ذاته ومكوناتها الظاهرة والباطنة، وأرشدته للبحث فيها والغور في أسرارها، والتعرف إلى حاجاته وضروراته المعيشية. ودعته إلى البحث في الكون بأرضه وسمائه وما بينهما. وهذه الدعوة جاءت بمنهجية عظيمة قدّمت للإنسان سُبُل بلوغ العلم الإلهي السُميسر للبشر، والعلم الإيماني ذو الدلائل الحية المشهودة عياناً.

تحدّث البوطي عن ذلك المنهج فقال: "...القرآن إذ يحاكم العقول إلى حقائق الكون أو وقائع الأمور فإنما يختار أسلوباً وصياغة وألفاظاً تتفق مع قدرات هذه العقول وإمكاناتها في الإحاطة والفهم، دون أن ينشأ عن ذلك أي تضارب في المفهوم أو المعاني المختلفة. ومن مقتضيات هذه الحكمة التربوية أن الصياغة القرآنية جاءت - فيما يتعلق بالمعلومات الكونية - بعيدة عن التعبيرات العلمية الضيقة، إذ لولا ذلك لكان خطاب القرآن غير صالح إلا لفئة قليلة من الناس. ومن مقتضياتها أيضاً أن الصياغة القرآنية جاءت في هذه الأبحاث ذاتها مثيرة للنظر والبحث، أكثر من أن تلزم الناس

¹ الخطيب: شريف الشيخ صالح أحمد. السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك. ص: ٢١٢، ٢١٢. مكتبة الرشد والدار العثمانية، عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.

² قطب: سيد. في ظلال القرآن: ١٨٢١/٣. دار الشروق، القاهرة. الطبعة السابعة عشرة: ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.

بالإيمان بما بمجرد إخباراته الغيبية عنها. إذ لو قامت صياغتها على هذا الإلزام، لكان مقتضاه وجوب التصديق بهذه القضايا العلمية، طبقاً لما أخبر به القرآن، أي دون الاعتماد في شيء من ذلك على وسائل التجربة والمشاهدة التي هي الوسائل الطبيعية الأصيلة للوصول إلى حقائق عملية عن الكون...¹ إن هذا المنهج التربوي الفريد يفسح للإنسان مجالات رحبة، يرى فيها إبداع الصنع وإحكامه، ويرى فيها قدرة ربانية تتجلى بدرجات عظيمة في مظاهر الخلق، بين مخلوق وآخر. فلا يملك بعد إدراك هذه الحقائق بعين البصر والبصيرة إلا أن يُسلم بالله رباً وخالقاً. ويعينه على ذلك قدراته التي أنعم الله تعالى بها عليه.

وقد ذكر البوطي قبل ذلك قدرات الإنسان التي تيسر له معرفة نفسه ومعرفة الكون الذي يحيط به، فقال: "...ذلك لأن جميع المعارف التي يكتسبها الإنسان إنما هي فرع لمعرفة سابقة، هي معرفته لذاته. وبدون أن تتوفر هذه المعرفة الأولى لا يمكن أن يحرز الإنسان أي ميزان سليم للمعارف الفرعية الأخرى. فلولا إيمانك بالعقل ووظيفته، ما آمنت بشيء من مقولاته وأحكامه، ولولا معرفتك لتركيبك النفسي والجسمي، لما عرفت شيئاً من حقائق الكون التي تطوف من حولك، ولما أدركت أي علاقة مما بينك وبينها. وهكذا... فبمقدار ما تكون معرفتك لذاتك دقيقة وسليمة، فإن معرفتك لحقائق الكون ووظائفه تكون دقيقة وسليمة".² هذه الإشارة تدعو لتأمل ما تمت دراسته من آيات حثت على تحقيق إدراك الذات الإنسانية، وتحقيق التعرف عليها وعلى مكوناتها، وكذلك إدراك الكون وتحقيق أكبر قدر ممكن من التعرف عليه والكشف عن أسرارهِ ومنافعه، وصلة ذلك بما تضمنته الآيات الكريمة من أساليب تغرس بها الاعتقاد السليم بوحداية الله تعالى وقدرته.

¹ (البوطي: محمد سعيد رمضان. منهج تريوي فريد في القرآن. ص: ٣٣. مكتبة الفارابي، دمشق. دط. دت.

² (المرجع السابق، ص: ٢٢، ٢٢).

لقد ربطت آيات الكتاب العزيز بين توجيه المدارك، وبين عرض صفات القدرة والخلق والإبداع والامتنان في إيجاد تلك المدركات والإنعام بها. وجاء ذلك الربط بأساليب بلاغية عظيمة، تغرس المعتقد السليم بالله تعالى، وتوطّد اليقين به سبحانه. وتدعو - في الوقت نفسه - إلى أن يسعى الإنسان إلى الكشف عن حقائق تثري معارفه، وتقدّم له مزيداً من القدرة على الإفادة منها، وتزيد من إيمانه ويقينه بالله تعالى.

وإن كانت التربية الربانية على هذا النحو الغزير من الدقة والوضوح والمنهجية الرفيعة في التوجيه والإرشاد، فذلك يعني أن المربين الإسلاميين يملكون ثروة تربوية ضخمة توفر لهم قدرات التربية المثلى؛ باعتبار التربية الاعتقادية جانب واحد من التربية الإسلامية، ولكنها أهم هذه الجوانب، إذ بها نستطيع أن نحرك الإنسان ونوجهه حيث نريد تحريكه وتوجيهه".¹ ومن هنا تلمس الضرورة التربوية أن نتدبّر أساليب القرآن الكريم المؤثرة في المعتقد، الفاعلة في توطيد الإيمان، وتوجيه الإنسان بحسب ما يقتضيه ذلك الإيمان من توجهات إنسانية قيّمة.

وقد تمّ إلقاء الضوء على بعض تلك الأساليب، للتعرف على تأثيراتها في غرس المعتقد الصحيح وترسيخه، وللكشف عن صلة آيات الدراسة بما تغرسه من تأثيرات إيمانية تعزّز بها معتقد الإيمان بالله تعالى والتسليم له سبحانه. إلا أن دراسة الآثار الاعتقادية لجميع الآيات الواردة في المباحث السابقة، سيستغرق وقتاً يفوق الوقت والحجم المتاح لهذه الدراسة، ولذا تمّ الاقتصار على إيراد نماذج متنوّعة من الأساليب البلاغية المضمّنة فيما تمّ انتقاء دراسته من الآيات الكريمة.

¹ (يالجن: مقداد، والقاضي: يوسف، علم النفس التربوي في الإسلام: ص: ٢٤٥. دار عالم الكتب، الرياض، الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ.

أولاً: ورد في سياق الدلائل الكونية والنفسية لإثبات قدرة الله تعالى وعظمته سبحانه: خطاب إلهي

موجه للإنسان، متضمن تقدم ذكر المخاطب: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^١، وفيه بيان

لأهميته، وذلك بعد عطف هذه الأهمية، على ما سبق في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ

لِلْمُؤْمِنِينَ﴾^٢. وفيها أيضاً تقدم ما امتنّ به تعالى على عباده، وهي الأرض وما فيها من آيات.

وفيها مجالان من المجالات التي يمكن للإنسان أن ينظر ويستدل بهما. وبين الآيتين عطف وتناسق

جميل؛ فإن "عطف الجملة على الجملة المشابهة لها من حيث التركيب يكون أكثر انسجاماً، وتكون

النفس أكثر قبولاً له"^٣. ولا يخفى ما لهذا القبول من حسن التأثير في القلب، وما يترتب عليه من

تمكين الاعتقاد بوحدانية الله تعالى.

ويُعزّز ذلك أيضاً الاستفهام الوارد في قوله تعالى: (أفلا). وهو استفهام يُفيد الحضّ على

تحقيق إدراك ما في الأرض وما في النفس من آيات. ولا شك أن اجتماع الأسلوب: ذي الدافعية

الفاعلة، والحضّ: ذي المنهجية المثلى. لهما أثر واضح في توجيه الإنسان لتحقيق السعي نحو كل ما

يسمو بمعتقده ويخلصه من الشوائب. ويُعزّز ذلك أيضاً: ألفة النفس لآيات الكتاب العزيز التي تناسب

في ذهن القارئ والمنصت كما ينساب الزلال، وهي بذلك تحقق أثراً جميلاً يتصل بمعتقد الإنسان

اتصالاً وثيقاً. يوضح هذا المعنى قول البوطي: وعندما تزداد الآيات القرآنية قرباً إلى البحث في حقائق

العلوم، ودقائق الكون لا تزيد على أن تقرر مبدأ التناسق، ودقة النظام والتدبير في أجزائه وتكوينها،

¹ (سورة الذاريات، آية: ٢١).

² (سورة الذاريات، آية: ٢٠).

³ (عباس؛ فضل: البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني: ١/٤٦١. دار الفرقان، عمان، الطبعة

الحادية عشرة. ٢٠٠٧م.

أو أن تصف منها المظاهر السطحية البارزة التي تخضع لإحدى حواس النظر أو السمع أو اللمس، أو أن تربط بينهما وبين أسباب حياة الإنسان وتوضح مدى أهميتها لاستجابة حاجاته، ومدى تطابقها لطبيعة حياته".^١

ثانياً: وفي سياق إثبات قدرة الله تعالى، والامتنان بما يتعم به الإنسان من سمع وبصر، كونهما من آثار تلك القدرة، ومن دلائلها. -وفي الوقت نفسه- من وسائل الاستدلال عليها: ورد قوله تعالى:

﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ

وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾^٢

هذه الآية بُدئت باسم الله تعالى، وعُظفت على آيات سابقة، في سورة النحل، مبدوءة أيضاً باسم الله تعالى، ذُكر فيها مِن الله تعالى على خلقه؛ كالأية: (٦٥) جاء فيها ذكر الامتنان بإنزال المطر، وإحياء الأرض. والآية: (٧٠) جاء فيها ذكر الامتنان بالخلق، والتعمير في الحياة. والآية: (٧١) جاء فيها ذكر الامتنان بتفضيل الخلق بعضهم على بعض في الرزق. والآية: (٧٢) جاء فيها الامتنان بخلق الأزواج، والبنين، والحفدة، والإمداد بالطيبات. والآية: (٧٨) جاء فيها ذكر الامتنان بخلق السمع والبصر والأفئدة.

وقد ذكر ابن عاشور الآية الأخيرة -أي الآية رقم: (٧٨)، وقال في بداية شرحه: "عود إلى

إكثار الدلائل على انفراد الله بالتصرف، وإلى تعداد النعم على البشر، عطفاً على جملة: ﴿ وَاللَّهُ

^١ (البوطي؛ منهج تريبوي فريد في القرآن الكريم، ص: ٣٤.

^٢ (سورة النحل، آية: ٧٨.

جَعَلَ لَكُمْ مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا... ﴿٧٢﴾^١ بعدما فصل بين تعداد النعم بما اقتضاه الحال مسن

التذكير والإنذار".^٢ هذا التعداد الذي أشار إليه ابن عاشور، عطف عليه قوله تعالى: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً...) وهذا العطف، تلاه اسم الجلالة. والجملة بهذا المعنى، جملة إسمية تفيد غرضاً بالغ الأهمية؛ ألا وهو إثبات الفعل والخلق لله تعالى. يشير إلى ذلك ما ذكره فضل عباس في توضيح معنى الجمل، بأن لكل "من الجملة الإسمية والفعلية أغراضها البيانية، ومميزاتها البلاغية، فإذا أرادوا التعبير عن معنى الثبوت، فإنهم يأتون بالجملة الإسمية... وإذا أرادوا أن يعبروا عن معنى التحدد والحدوث، فإنهم يأتون بالجملة الفعلية...".^٣

ومن هنا يتضح أن صلة الجملة الإسمية، المبدوءة باسم الله تعالى، المُثَبِّتَةُ الخلق له جل شأنه، المقرونة، بقوله تعالى: (وجعل لكم السمع...) والقرينة تجعل للجملة الإسمية فائدة أخرى غير الثبوت، فهي أيضاً "تفيد الدوام بالقرائن".^٤ ولذا فاقتران قوله: (جعل) بقوله سبحانه: (والله أخرجكم)، مؤشر مهم على تذكير العباد باستمرارية إنعامه سبحانه وتعالى بإمداد الإنسان بقوة السمع والبصر، وإمداده بقدراتهما في تيسير بلوغ العلوم المكتسبة عن طريقهما. وهنا تظهر صلة ذكر السمع والبصر بما ينبغي أن يعتقد الإنسان من اعتقادٍ جازمٍ بوحداية الله تعالى وقدرته العظيمة. وقد حتم الله تعالى الآية بالأمر بالشكر كتعليل لما أنعم به من الخلق والإنعام والهبات الجزيلة. ولهذا الختم أثره في عرفان الله تعالى بفضله وإنعامه.

^١ (سورة النحل، آية: ٧٢).

^٢ (ابن عاشور: التحرير والتنوير: ١٨٦/١٣).

^٣ (عباس: البلاغة فنونها وأغراضها: ٩٣/١، ٩٤).

^٤ (المرجع السابق: ٩٤/١).

ويرتبط هذا المعنى بمفهوم دعاء سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم متعني بسمعي

وبصري، حتى تجعله الوارث متي...)^١.

ثالثاً: وفي سياق الامتنان بعظيم نعم الله تعالى على الإنسان، ورد استفهام متضمن إثبات بدائع

الصنع، ونسبة إبداعها للصانع الحكيم. وذلك في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ

كَيْفَ بَيَّنَّنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا

فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبَصَّرَةٌ وَذَكَرْنِي لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨﴾^٢.

الاستفهام الوارد في الآية الكريمة استفهام إنكاري. ويوجهه البلاغيون بقولهم: "إذا اشتمل

الاستفهام الإنكاري على أداة النفي، فالمعنى على التقرير... والاستفهام الإنكاري وسيلة محاجة

واقناع، ويشمل ذلك نوعين من الأدلة هما: الأدلة العقلية والأدلة الحسية؛ فالأدلة الحسية تلفت

الأنظار إلى الظواهر الكونية لاستخراج العبرة منها والاستدلال على قدرة الله سبحانه وتعالى، وهو

الذي خلق كل شيء بقدره وصوره بحسب حكمة بالغة..."^٣ ومن هنا فإن الاستفهام متضمن تقرير

الخلق لله تعالى، ومحاجة العقول والحواس، والتدليل لها بما تلقاه الأبصار من مشاهدة المخلوقات

وإحكام صنعها وبديع منظرها. وهذا يدل على صلة ذلك كله بما تُعمر به القلوب من يقين بالله

تعالى، تُستلهمه من نبع الخطاب الإلهي المبدوء بالاستفهام التقريري، المتبوع بذكر المشهود من

^١ (المعجم الأوسط للطبراني: ٣٦/٨، رقم الحديث: ٧٨٨٤. دار الحرمين. القاهرة. دط. ١٤١٥هـ،

١٩٩٥م. قال الطبراني: لم يرو هذا الحديث عن موسى بن عقبة إلا عبد الله بن جعفر. تفرّد به:

داود بن رشيد.

^٢ (سورة ق، الآيات: ٦ - ٨.

^٣ (حسان: تمام. البيان في روائع القرآن: ١٩٩/٢، ٢٠٠ و ٢١١، ٢١٢. دن. دط. ١٩٩٣م. القاهرة.

المخلوقات، التي جاء ذكرها معلقاً بضمير المتكلم، وهو الله جلّ وعلا: (بينها، زيتها، مددناها،
 ألقينا، أبنينا). وارتباط هذه الأفعال باستفهام تقريري في مستهل الآية يؤدي إلى غاية مهمة.
 وضّحها ابن عاشور بقوله: "هذا وأن التقرير على نفي الشيء المراد الإقرار بإثباته طريقة قرآنية
 ذكرناها غير مرة، وبيّنا أن الغرض منه إفساح المجال للمقرّر إن كان يروم إنكار ما قرّر عليه، ثقة من
 المقرّر... بأن المقرّر... لا يُقدّم على الجحود بما قرّر عليه لظهوره".¹ ومن هنا فإن دلالة ذلك تؤكد أن
 "آية السموات والأرض لا تحتل جديلاً ولا ريبية، فهي قاطعة في دلالتها، تخاطب العقل والفتوة، إنها
 تشهد بأن الذي أنشأها ودبرها ليس هو الإنسان ولا غيره من خلق الله، ولا مفرّ من الاعتراف بمنشئ
 مدبر، فإن ضخامتها الهائلة وتناسقها الدقيق، ونظامها الدائب، ووحدة نواميسها الثابتة، كل ذلك لا
 يمكن تفسيره عقلاً إلا على أساس أن هناك إلهاً أنشأها ويدبرها".² وهذا دليل مهم على التأثير البالغ
 للآية الكريمة على معتقد الإنسان.

رابعاً: وفي سياق تعداد المشاهد التي أرشدنا الله تعالى إليها، نستدل بها على قدرته، من النظر في
 السموات والأرض ومكوناتها. والنظر والتدبر في خروج النبات ونشأته، وغير ذلك. ورد في ذلك
 السياق أسلوب بلاغي، اتضح فيه أثر "التحوّل أو العدول في مسار التفسير"³ في نفس الإنسان
 ومعتقده، وهو أسلوب بلاغي، شاع استخدامه في القرآن الكريم، ويأتي في صور عديدة، منها ما ورد
 في بعض آيات الدراسة، كقوله تعالى: ﴿الْمَرْتَرِ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفَلَكَ تَجْرِي

فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُءُوفٌ

¹ (ابن عاشور: التحرير والتوير: ٢٦/٢٨٦.

² (الخطيب: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ص: ٢١٦. وعزاه إلى الظلال: ٥/٣١٥٨.

³ (طبل: حسن. أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية. ص: ٣٤. دط. دت. دن.

رَجِيمٌ ﴿٦٥﴾^١ وقوله جلّ وعلا: ﴿الَّذِي تَرَأَى اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ

الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾^٢ وقوله سبحانه: ﴿الَّذِي تَرَأَى اللَّهَ

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ

فَتَرَهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٦١﴾^٣

ففي الآيات عدول عن صيغة الماضي إلى صيغة المضارع: (سخر لكم - ويمسك السماء)

(أنزل - فتصبح) (فسلكه - ثم يخرج). وفي هذا العدول لفنة إلهية عظيمة تأخذ بالباب السامعين،

ومشاعرهم تجاه صنع الله وإبداعه في الكون، حيث تتجلى لهم عظمة ذلك الصنع فيما يتحدّد من

خلق، وما يترتب عليه من نتائج ينتفعون ويأنسون بها. وهي في الوقت نفسه، تلفت نظر السامع نحو

دلالات خلق الله تعالى وشواهدا التي يستمر بقاؤها باستمرار حياة نوع الإنسان، فهي متجدّدة

ودالة على ذلك الخلق في كل حين، ويأتي تأثيرها في الإحساس بها إلى جانب تأثير الأسلوب البلاغي

في وصفها.

وحول هذا المعنى قيل: "أوثر صيغة الماضي في (سخر لكم ما في الأرض - أنزل من

السماء - فسلكه ينابيع) وذلك لأن الرؤية الباعثة على التأمل والاعتبار لا تتعلق بتلك الأحداث في

ذاتها، بل بنتائجها أو آثارها المترتبة عليها، فمتعلق الرؤية ومناطق التأمل في الآية الأولى ليس هو فعل

التسخير في ذاته، إذ إن هذا الفعل لا يُرى، وإنما هو آثاره المترتبة عليه الدالة على حدوثه التي تتمثل

^١ (سورة الحج، آية: ٦٥).

^٢ (سورة الحج، آية: ٦٣).

^٣ (سورة الزمر، آية: ٢١).

فيما ذلّله الخالق لعباده، ويسرّه لنفعهم من مخلوقات وكائنات- كذلك فإن متعلّق الرؤية ومشار
الاعتبار في الآيتين الثانية والثالثة ليس هو نزول الماء، إذ إن هذا النزول لا يتيسّر حدوثه إلا في الحين
بعد الحين، ولأنه -حين يحدث- لا يدوم دوام آثاره المترتبة عليه والتي هي متعلّق الرؤية وموطن
العبرة في الآيتين".¹ وهذا يدلّك على أن الاستفهام الذي صُدّرت به الآيات الكريمة، استفهام تقريرى
يدعو لمشاهدة تلك الآثار وترقب مسيرها لتحقيق الاستدلال بما على الصانع الحكيم. يُضاف لذلك
حرف (الفاء) في قوله تعالى: (فتصبح) وقوله: (فسلكه). حيث صنّف البلاغيون مواضع هذا الحرف
بتصنيفات دالة على عظمة عرض آيات الكتاب العزيز، وعظمة تأثير محتواها في المعتقّد الإيماني.
فحرف الفاء حرف تعقيب، ولكنه في أسلوب القرآن الكريم، تجاوز المعنى الحرفي لكلمة (التعقيب)
وتعدّدت أغراضه ليتعدّد تأثيره.

يردّ حرف الفاء في بعض مواضع من القرآن الكريم ليطوي الزمن²، ويُظهر تأثير قدرة الله
تعالى في صورة مباشرة لما قدر سبحانه وقضى. أتضح مثال هذا المعنى في قوله تعالى: (ألم تر أن الله
أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة). التعقيب بالفاء في الآية الكريمة لا يعنى توالي
الأحداث، فإن نزول المطر لا يُنبئ الثمر في الوقت نفسه، فالثمر يظهر شيئاً فشيئاً بعد مُهلة من
الزمن. وهذا ما تجلّى في حرف (الفاء) الذي طوى هذا الزمن لتجلى صورة الإبداع في تأثير نزول
المطر، الذي نسبّه المولى جل وعلا لذاته العلية في مستهلّ الآية الكريمة، مؤكّداً له (بأنّ) في قوله
سبحانه: (ألم تر أن الله أنزل...).

¹ (طبل: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص: ٩٧.

² (انظر: الخضري: محمد الأمين. من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم: الفاء و ثم. ص: ٥٠. مكتبة وهبه، القاهرة. دط. دت.

وقد جاء في تعليل هذا المعنى ما عَقَّب به الخضري على قول صاحب الفرائد^١ الذي ناقش حالات حرف الفاء، ومدى انطباق المفهوم الحرفي لمعنى التعقيب فيه . حيث قال: "وأروع ما فيه أنه جعل الزمن إحساساً، وتقدير لحظاته بنبضات القلب وخفقات الشعور، لا بحركات العقارب وامتداد الظل والحساره، فما يُستقصر في ساعات الأُنس والسعادة، يُستطال ما هو دونه، حين تقبض الهموم على الأنفاس، وتعتصر النفوس آلام الوحشة والاعتراب، فإذا كان الكلام الجيد هو الذي يصطبغ بأحوال النفوس، ويعكس صفاءها وكدرها، ويجسد حركتها في جزرها ومدّها، فلا غرو أن تنعكس على هذه الحروف ظلال الانقباض والانبساط في النفس، وأن ينقل لنا حرفاً^٢ التعقيب والمهلة إحساس المتكلم بالزمن قبضاً وبسطاً، وحينئذ فلا غرو أن يختلف تقدير الزمن واحد بعقارب الساعة فيستطال عند متكلم، ويستقصر عند آخر، ما دامت الحروف تعكس الإحساس، لا ترصد عقارب الساعة".^٣ أما قوله تعالى: (فسلكه ينابيع في الأرض). فتتأى فيه بداية سير الماء في الأرض في لحظة ملامسة المطر لسطح الأرض، وتستمر مسيرته واجتماعه في العيون والينابيع في أوقات متلاحقة. وهذه الأحداث مجتمعة، تتفاوت مسيرة المطر فيها عن مسيرته من السحب إلى الأرض، فطبيعة النزول مغايرة لطبيعة التسرّب في الأرض. وقد قال البلاغيون في بعض وجوه حرف (الفاء) بألمها: "تجيء لتفاوت ما بين رتبتين".^٤ وهذا التفاوت متضمّن إشارة إلى حالات بديعة في تدبير المطر، فتدبير نزوله، ومشهد ذلك النزول، متضمّن أسباب البهجة والسرور التي تتلقاها القلوب بالعرفان للمنع

^١ (هو: محمود بن محمد الجونفوري. وكتابه: "الفرائد في شرح الفوائد" المطبعة المجيدية. ١٣٣١هـ). نقل الخضري قوله المشار إليه أعلاه، من ص: ٢٤.

^٢ (يقصد حرف: (الفاء) وحرف: (ثم).

^٣ (الخضري: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم. ص: ٥١.

^٤ (الأسمر: راجي. معجم الأدوات في القرآن الكريم. ص: ١٦١. دار الجيل، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

بذلك المطر. أما تدبير سيره في الأرض، وما يتأتى عن ذلك السير من منافع يجنيها الإنسان من عيون الماء وينابيعه، ولأزمان طويلة تلي سقوط المطر. فذلك من وجه آخر للإنعام، والإحسان من المنعم المتفضل سبحانه. وهذان الوجهان: إنزال المطر، وسيره في الأرض: لفتت الآية الكريمة نظر الإنسان إليهما، وفصلت بينهما بحرف جعل لبعثهما تفاوت كشف عن سرّ بديع في الآية؛ تجلّت فيه قدرة الله العجيبة، التي تُيسّر النعم، وتحفظها وترعاها، وتزود الإنسان بها في كل حين. وهذا هو حال المطر ابتداء من نزوله، وإلى أن يظهر في صورة عيون ونبابع. ويُضاف لذلك ما نُحتمت به الآيات الثلاث، من تذكير بإنعام الله تعالى وفضله ولطفه بعباده. وتناسب كل حاتمة للآية بما قبلها.

فالآية الأولى نُحتمت بقوله تعالى: (إن الله بالناس لرؤوف رحيم).

والآية الثانية نُحتمت بقوله تعالى: (إن الله لطيف خبير).

والآية الثالثة نُحتمت بقوله تعالى: (إن في ذلك لذكرى لأولي الألباب).

ولا يخفى ما تتضمنه هذه الخواتم من ربط ما سبقها بما توكده بحرف (إن) وما يعقبه مسن حقائق لا ريب فيها؛ فلا شك أن الله تعالى عظيم الرأفة والرحمة بعباده، عظيم اللطف بهم. نحسب بأحوالهم وفقدهم إليه. يعي ذلك من غنم هدي كتاب الله تعالى، وسار على هُجه؛ فغرس في نفسه يقيناً صادقاً بأن الله تعالى وحده، إله الخلق أجمعين. وأنه واحد لا ربّ سواه. فإن تحقق هذا تأكّدت آثار تلك الرؤية والمشاهدة والتتبع لما شاء الله سبحانه وتعالى أن يحقق الإنسان الاستهداء به واليقين.

المطلب الثاني

الآثار النفسية

خاطبت آيات الكتاب العزيز النفس الإنسانية بما تحتاجه من معالجة لزوايا تلك النفس ومتطلباتها؛ فالإنسان بحاجة إلى تحقيق طمأنينة نفسه وهدوئها. وبحاجة إلى تهذيبها وتركيبها وتحقيق القدرة على مجاهدتها. وبحاجة إلى الابتعاد عن كل ما يشوبها من قلق، وتوتر، وشك، وما شابه ذلك، مما يهوي بالإنسان في المهالك والردائل. ويأتي جانب تأثير الإدراك السمعي والبصري على النفس الإنسانية، الوارد توجيهه في آيات الكتاب العزيز، ليكون لبنة من لبنات خطاب القرآن الكريم المتكامل للإنسان. فالقرآن الكريم "في محورّيه العقلي أو النفسي يفوق قدرة البشر، فلا يملك العقل البشري أو النفس البشرية إلا الاستجابة والقبول بقوة الحجّة العقلية ووضوحها وقدرتها على الإقناع والرضوخ والتسليم لصحة منطقها، كما ينساب هذا الخطاب إلى المشاعر والأحاسيس يلامسها في أعماق مكانتها، ويثيرها خوفاً أو طمعاً، فرحاً أو حزناً، رضياً أو معصية، غضباً أو ارتياحاً، لما يحمله هذا الخطاب من قدرات إيجابية، وشحنات تأثيرية تجعل الألفاظ تتفجر، والجمل تشعّ، والأساليب تثير الهزة تلو الهزة في النفس...".¹

وقد ورد ضمن آيات الدراسة عدد منها، تضمّن دواعي تهذيب النفس الإنسانية، وتوجيهها. وليتمّ ذلك، فلا بد من تحقيق الصلة بالله تعالى، واتباع ما ترشد إليه آياته العظيمة. ويجدر في هذه الحالة أن يُشار إلى أثر الصلة بالله تعالى في تربية النفس، فإن الله سبحانه وتعالى أنعم "على الإنسان فمنحه إلى جانب تلك الاستعدادات الفطرية الكامنة في نفسه، نعمة العقل: وهي القوة الواعية

¹ الخالدي: كريم حسين ناصح. الخطاب النفسي في القرآن الكريم، دراسة دلالية أسلوبية، ص: ١٧. دار صفاء. عمان، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ ٢٠٠٨م.

المدركة، الموجهة في ذات الإنسان، تناط بها التبعية والمسئولية، فمن استخدم هذه القوة في تزكية النفس وتطهيرها، وتنمية استعداد الخير فيها وتهذيبها، وسوقها في طاعة الله تعالى، فقد فاز وأفلح، ومن أهملها فقد خاب وخسر".¹ وهنا تظهر حاجة العقل الإنساني إلى استخدام وسائله الحسية في نقل غذائه اللازم لذلك، مما حول الإنسان من دروس وعبر. وبالنظر إلى آيات الدراسة اتضح أن بعضها تضمّن مؤشرات حول ما تهبه معاني الآيات الكريمة من طمأنينة، وثقة، وتزكية، وأمن، ومعالجة الدخائل النفسية وأسبابها، وسبل الحماية من ذلك.

وفيما يأتي تم تقسيم موضوعات الآثار النفسية بحسب ما تضمّنته الآيات الكريمة، وإليك

بيانه:

أولاً: تحقيق طمأنينة النفس:

تجلى بعض هذا الجانب في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يُنْفِثُوا

ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾².

يظهر في الخطاب الإلهي، صورة ملجأ هادئ، تجد النفس فيه متنفساً لها، وراحة واطمئنان. تُلَفَّتْ إليه الأبصار والبصائر والنفوس. والأمر ليس تصويراً للظل فحسب، ولكن تذكير بما يراه الناس من جمال الظل، والتمتع به، ومن جود المنعم المتفضل به. وهذا التذكير في حد ذاته، ملهم بوجود راع لتلك النفس الإنسانية، ومستند تؤوب إليه في كل حين. وأسلوب الآية الكريمة في طرح هذا المعنى، الذي تلامس به النفس الإنسانية، واحد من الأساليب الشائعة في كتاب الله تعالى فيما يخصّ

¹ (العلي: محمد تيسير سليمان. الصلة بالله تعالى وأثرها في تربية النفس. ص: ٧٩. دار البشير ومؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.

² (سورة النحل، آية: ٤٨.

خطاب النفس، فقد "شاع في الخطاب القرآني كثير من المعاني النفسية التي تبدو واضحة من السياق والقرائن والعبارات والألفاظ والحروف لتكون أوعية مشحونة بتلك المعاني، وهذا أمر مهم في تبليغ الخطاب وإيصاله إلى النفوس بغية تقبله والإيمان به، لأن العقل وحده لا يدفع الناس إلى الإيمان بعمق، ولا بد من تضافر العقل والنفس لكي يصبح هذا الإيمان جزءاً من سلوك الإنسان وعقيدته، لذلك جاءت تلك المعاني متداخلة ومتوازية لكي يكون أثرها واضحاً وفعالاً".^١ ولا يخفى هذا في مفردات الآية الكريمة أعلاه، فهي تُنوّه إلى قدرة الإنسان على رؤية جمال الظل، وحسن الاستئناس به، ودقة مسيره في ساعات النهار. مما لا يُبقي شكاً في نفس الإنسان، أنه مصونٌ ومحترم بين الخلائق كلها، وأنه لأجل ذلك توافرت له سبل التسخير كلها، وقدرات الترويح عن النفس وتحقيق راحتها بما سُخر لها من مخلوقات يعجز عنها الحصر.

ويعضد ذلك صورة السكون النفسي الذي يتجلى بأهمل حلة في قوله تعالى: (سَجَّداً) فالسجود لله تعالى، أعظم مظهر من مظاهر الإنابة إليه، والاحتماء بين يديه، ولعل صورة الطفل وهو يأوي إلى حضن أمه رغباً في تحصيل الأمن والطمأنينة، لا تكافأ ولجوء المرء إلى الله تعالى في حالة السجود له سبحانه. فالطمأنينة المتحصلة للأخير أكبر منها للطفل. والآية تصف بحسب ما ذهب إليه بعض المفسرون- سجود الظل، إلا أن لفظ السجود- في الوقت نفسه- متضمن وصفاً لحالة، يستلهم الإنسان منها خطاباً يقول له: سجودك لله تعالى، أمنٌ لك وطمأنينة، فأنت أولى به من جميع المخلوقات التي تأتيه جميعها، وهي صاغرة ذليلة، ولكن علمك ويقينك بضرورة السجود لله تعالى، وباقتدائك بهذه المخلوقات، ستجد في نفسك رغبة وإقبال عليه. وستجدها تلجأ إليه، وتحتاجه في كل حين.

^١ (الخالدي؛ الخطاب النفسي في القرآن الكريم، دراسة دلالية أسلوبية. ص: ٧٥.

✪ وتجلي جانب تحقيق طمأنينة النفس أيضاً في قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ

لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلًا مَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ

مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۗ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ ۝

إنّ الضرورات المعيشية للإنسان، تُشكّل بالنسبة له مصدراً للهدوء النفسي والطمأنينة في حال توافرها، ومصدراً للشقاء والعناء في حال ضيقها أو انعدامها. تجلّى ذلك بوضوح في اختلاف طرق الحياة البشرية بين أقوام وآخرين؛ فبعض من توافرت لديهم سبل المعيشة بوسائل سهلة، سخّروا أنفسهم لتحقيق أهداف إنسانية رفيعة، تسمو عن هدف البحث عن الطعام والشراب، وما شابه. بينما يجري غيرهم في البحث عن الطعام والشراب، وذلك هو غاية أهدافه في حياته اليومية. ويكون ذلك - في كثير من الأحوال - بسبب ضيق العيش وضمنك الحياة بالنسبة لمن لا تعنيه أهداف الحياة الأخرى، أو أنها تعنيه، ولكن تعيقه ظروفه المعيشية بشدة فلا يتمكن من مجاهدتها.

والآية الكريمة هب الإنسان طمأنينة في توجيهه نحو مصدر من مصادر الرزق ومعطيات المخلوقات، مما سخّره الله سبحانه وتعالى، وهياً سبل بلوغه. والقارئ لهذه الآية الكريمة، الحريص على تحري واستشعار رحمة الله تعالى بعباده، ورأفته بهم، وتيسيره لما تقتضيه معيشتهم، القادر على مشاهدة مظاهر ذلك التسخير - لا شك - تداخله مشاعر الاطمئنان بأن الله تعالى قد تكفل بتيسير حاجته وتوجيهه نحو كيفية الاستفادة منها. ويرتبط ذلك أيضاً بالرضا واليقين بالله تعالى، فإن الله تبارك وتعالى "قدّر أن يكون الفرح والسرور والطمأنينة في الرضا بقضائه وقدره. وجعل الغم والحزن والقلق في السخط والشك. فراحة النفس وطمأنينة القلب مرتبطان بالرضا واليقين بقضاء الله وقدره،

¹ (سورة النحل، آية: ١٤).

فيطمئن إلى يومه وحاضره ومستقبله".^١ ولمشاهد البيئة المحيطة بالإنسان، وطرق التعامل معها، وإمكان تسخيرها. كل ذلك له تأثير، تعضده الآية الكريمة بأسلوبها في توجيه الإنسان نحو الاستفادة مما حوله، لتغرس في نفسه مشاعر الطمأنينة لما قدر الله تعالى وقضى في حال هذا الإنسان، فيؤثر ذلك بدوره على يقينه، ويحقق له الرضا والقبول.

✽ ونجد في قوله تعالى: ﴿فَأَنْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَةِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ

ذَلِكَ لَمُنْجَى الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^٢. أثر نفسي عظيم، تجلت معالمه في

مفهوم الآية بعمومها، من جهة، وفي مفهوم بعض مفرداتها على وجه الخصوص، من جهة أخرى. أما مفهوم الآية بعمومها فيهب النفس الإنسانية أثراً بالغ الأهمية فيما تطمئن النفس إليه من حسن المآب، وعظمة من ستؤوب إليه. فإن كانت رحمته -جلّ في علاه- تنبدي للناظرين في بهاء تلك الآثار وعظمة جمالها، المعبرة عن انتقال الأرض الموت إلى عظيم رحمته سبحانه وتعالى، التي تجلّت في أجمل صورة وأحسنها بعد الحال الذي كانت عليه؛ أفلا يدلّ ذلك على أن الإنسان أيضاً -المتبع لنهج الله تعالى ورسوله- سنيقل -بالضرورة، وبما يهنا به من منزلة تفوق منزلة جميع الكائنات- بعد الحال الذي يعيشه إلى حال أجمل وأعظم منه بمرات لا يحصيها العدّ.

هذه الحقيقة في مضمون آيات الكتاب العزيز عبر عنها مقداد يالجن بقوله: "لتحقيق السعادة الكاملة هو - كما بينا- تحقيق الإحساس بخيرية المصير، وضرورة ذلك تتبين من أن من ينتظر عاقبة سيئة أو شقاء موبداً أو فناء لا عودة بعده لمصيره النهائي. فلا يمكن أن يعيش سعيداً ولو كان في الجنة، ذلك أن رأيه في مصيره النهائي السيء يؤثر في نفسه وفي حياته تأثيراً سيئاً، وهذه الفكرة تتردد

^١ (العلي: الصلة بالله تعالى وأثرها في تربية النفس، ص: ١٠١).

^٢ (سورة الروم، آية: ٥٠).

في ذهنه وتلازمه باستمرار ليلاً ونهاراً. ولكن لا يمكن تحقيق الشعور بخيرية المصير في نفس المسرع إلا بتحقيق خيرية الذات وخيرية الحياة أولاً. وهما العنصران الأوليان... وهما ضروريان لتحقيق هذا العنصر الثالث، لأن من لم يشعر بخيرية ذاته أولاً، ثم بخيرية حياته وأعماله، أو بتعبير آخر، إذا لم يكن خيراً في حياته العملية وفق اعتقاده وقيمه فلا يمكن أن ينتظر الخير والسعادة لا في مصيره القريب ولا في مصيره البعيد أيضاً، ولا بد مع هذا وذاك أن يكون مؤمناً بأن هذه الحياة لا تنتهي بالموت، وإنما هي مقدمة لحياة أبدية يسعد فيها إلى الأبد من كان خيراً في هذه الحياة. لذا فقد ربط الإسلام مصير الإنسان بالسعادة الأبدية في الآخرة، لأن السعادة أمل الإنسان دائماً في النهاية إن عاجلاً أو آجلاً وهذا الأمل هو الذي يبعث في نفسه الطمأنينة والرضى...".¹

وتشير بعض مفردات الآية الكريمة إلى ما يحقق ذلك الرضى والطمأنينة، كقوله تعالى: (الظر)، (آثار)، (رحمة)، (طحي الموتى)، (على كل شيء قدير). فالنظر إلى الآثار، وما نالها من عظيم رحمة الله تعالى، ثم اتباع ذلك بالتأكيد على أن الفاعل سيعيد الحياة للأموات بقدرته التي يقدر بها على كل شيء. فذلك يهب النفس اطمئناناً، بل وشوقاً لما تأمله النفس من نعيم موعود، ورحمة عظيمة، وسعادة بالغة، تتمثل رموزها فيما يظهر من دلائل تلك القدرة من آثار تبهج بها القلوب، وتميل إليها النفوس.

❖ وانظر إلى قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَآتِ رَبَّهُمْ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ

مُخْضَرَّةً إِنَّ رَبَّكَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾. ^٢ ألا ترى فيه عوامل الطمأنينة. إن هساء الماء،

¹ (يالجن: التربية الأخلاقية الإسلامية. ص: ١٢٨. دار عالم الكتب الرياض. الطبعة الثالثة:

١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.

² (سورة الحج، آية: ٦٣.

وخضرة الأرض، ولطف الله تعالى، وخبرته بحاجة عباده لما تطمئن به قلوبهم، وتأنس إليه نفوسهم: كل ذلك تُهديه الآية الكريمة للنفس الإنسانية، لتُعدها إعداداً جميلاً لحسن قبول الخطاب الإلهي، والتَّمَتُّع بمضامينه.

إن طمأنينة النفس التي ينشدها الإنسان تتأتى له من جوانب عديدة، منها التفاؤل والشعور بالبهجة والسرور. "ولتحقيق التفاؤل والشعور بالبهجة، ووجه الإسلام نظر الإنسان إلى ما في الكون من بديع الصنع، وما في المخلوقات من جمال المنظر والصورة، لأن ذلك يحقق أولاً حاجة من حاجات النفس الإنسانية، وهي حاجة إشباع عاطفة الجمال، إذ إن بعض علماء النفس يضعون هذه الحاجة في الدرجة السابعة من الحاجات الأساسية للطبيعة الإنسانية.¹ والدليل على وجود الحاجة أيضاً أننا نبتهج بالجمال، كما ندفع ثمننا زائداً عند شراء المصنوعات إذا كان فيها جمال وصنع بديع، نرجح الجميل على غير الجميل. ولأن ذلك الابتهاج بالجمال يحقق لنا ثانياً الشعور بالسعادة عند الاستمتاع بجمال الكون".²

وبعد اتضاح هذه الصورة، يمكن القول إن الآية الكريمة متضمنة تأثيراً نفسياً، يهب الإنسان بحالات يستطيع اللجوء إليها في حالاته المختلفة: حين الشعور بالضيق، والملل، والإعياء، أو حين الشعور بالحاجة إلى تلمس لطف الله تعالى وكرمه عطائه. وليس ذلك فحسب، فإن الآية تعرض لسنة حياة الإنسان التي تستلهم من الله تعالى طمأنينتها وسلامتها، والأسباب التي تأخذ بيدها نحو تلك الطمأنينة والسلامة على الدوام. يؤكد ذلك أسلوب الآية الكريمة. وقد وجه أبو حيان معنى قوله تعالى: (فتصبح)، فقال: "بمعنى فتصير، لا يلزم أن يكون ذلك الاخضرار في وقت الصباح، وإذا كان

¹ (يالجن: التربية الأخلاقية. ص: ١٢٤. وعزاه إلى كتاب: الإنسان معجزة الخلق، للدكتور: جاك فرج جوده، ص: ٩٣.

² (المرجع السابق، ص: ١٢٤.

الاحضرار متأخراً عن إنزال المطر، فشمّ جمل محذوفة التقدير: فتهتز وتربو فتصبح. يبيّن ذلك قوله تعالى: (فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت)... ويخصّص: (تصبح) دون سائر أوقات النهار لأن رؤية الأشياء المحبوبة أول النهار أبهج وأسرّ للرائي".^١ وهكذا يتضح أن جمال الرؤية، زُيّن بأحوال تلك الرؤية، ليكتمل الجمال بمنظرها وبمحسن الضوء المساعد على إدراكها في أهي صورة، ألا وهو ضوء الصباح. ولا يخفى أثر ذلك في نفس الإنسان.

ثانياً: تركية النفس:

تجلى أثر القرآن الكريم في تركية النفس الإنسانية، فيما تتدخل فيه عملية الإدراك السمعي والبصري في عدة آيات. ولتوضيح معالم التركيبة في تلك الآيات يحسن البدء بقوله تعالى: ﴿وَإِذَا

قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾

وقد سبق القول إن من صفات الاستماع أنه "يستخدم بدرجات متفاوتة لتحقيق أغراض مختلفة".^٢ ومن تلك الأغراض "الاستماع التذوقى والناقد، حيث ينفعل المستمع بالكلمات ويعايشها عاطفياً".^٣ ولا شك أن الاستماع للقرآن الكريم والإنصات له من أعظم الأغراض التي يتوخاها المسلم في حياته الدنيا؛ فالمسلم يعلم جيداً أن القرآن الكريم منبع الهدى والرشاد، وغذاء القلب والروح والنفس. ولذا فإن استماع القرآن الكريم، والإنصات له يفوق صفات السمع وأغراضه جميعاً. فسماعه ليس للتذوق فحسب، ولا يمكن أن يكون سماعاً ناقداً على الإطلاق. ولكنه سماع فاحص عن إعجازه وبلاغته ورفعة منهجه وحسن تأثيره.

^١ (الأندلسي: تفسير البحر المحيط: ٣٥٦/٦.

^٢ (سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.

^٣ (عبد النبي ومحجوب: المهارات اللغوية، ص: ١٨.

^٤ (المرجع السابق، ص: ١٨.

ومن هنا يؤثر الإدراك السمعي لما يُتلى من كتاب الله تعالى، في النفس الإنسانية تأثيراً عجبياً، فإن الآية الواحدة لتصنع أحياناً في النفس -حين تستمع لها وتنصت^١- أعاجيب من الانفعال والتأثر والاستجابة والتكيف والرؤية والإدراك والطمأنينة والراحة، والنقلة البعيدة في المعرفة الواعية المستنيرة... مما لا يدركه إلا من ذاقه وعرفه! وإن العكوف على هذا القرآن -في وعي وتدبر لا مجرد التلاوة والترنم- لينشئ في القلب والعقل من الرؤية الواضحة البعيدة المدى، ومن المعرفة المطمئنة المستيقنة، ومن الحرارة والحيوية والانطلاق! ومن الإيجابية والعزم والتصميم، ما لا تدانيه رياضة أخرى أو معرفة أو تجريب^٢.

✻ وتنجلي مظاهر تزكية النفس في كتاب الله تعالى، فيما تمليه رؤية الواقع. كما في قوله تعالى:

﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَهُوَ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ

وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاهُهُ، ثُمَّ يَسِيحُ فترته مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ

حُطْبًا ۗ ﴿٢٠﴾^٣

حاطبت الآية الكريمة، النفس الإنسانية، بما يراه الإنسان من مظاهر الفناء والزوال، التي تُعدّ في سنة الحياة مرجعاً حتمياً تؤول إليه جميع الكائنات، ومنها الإنسان، وهو المخلوق المكرّم، والسيد المقدم على جميع المخلوقات. وفي هذا الخطاب معالجة حكيمة للنفس الإنسانية، وتزكية عظيمة لها؛

^١ (فُسِّر الاستماع بأنه الإصغاء، والإنصات بأنه السكوت. فقيل في قوله تعالى: (فاستمعوا له وأنصتوا) معناه: إذا قرأ الإمام فاستمعوا غلى قراءته ولا تتكلموا. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة "سمع" ومادة "نصت". وانظر: الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن: ص: ٢٤٣.

^٢ (قطب: في ظلال القرآن الكريم. ١٤٢٥/٣، ١٤٢٦.

^٣ (سورة الحديد، آية: ٢٠.

فالأية الكريمة تُصوّر حقيقة الحياة بما يغلب على أحوالها وأحوال الإنسان فيها. وتُقدّم هذه الحقيقة في اللفاظ تعبيراً أتمّ التعبير عما تحتاجه النفس الإنسانية لتصوّر حقيقة الحياة.

وحول موضوع الخطاب النفسي في القرآن الكريم جاء "أن النفس تهتز لسماع تلك الألفاظ في الخطاب القرآني لامتلائها بالإيحاءات المثيرة للمشاعر والأحاسيس وتدفعها في غير مجاريها التي وضعت لتجري فيها. ذاك أن التركيب القرآني قد فتح لها مسالك تعبيرية جديدة غير ما اعتاد المخاطب عليه".¹ إن ذلك التركيب، الذي يمكن أن يُطلق عليه: تركيباً نفسياً، يتلاءم وحاجة النفس الإنسانية في تعرّف بعض الحقائق التي قد تكون مخبوءة بين مشاغل الحياة وهوها، لئلا تنحدر وتنحرف مع تلك المشاغل، فتنسى العواقب. ولذا توجه الآية الكريمة نفس الإنسان توجيهاً فاعلاً في تركيتها والسموّ بها نحو الكمال الإنساني، فتطلعها بعين البصر التي يمتلكها الإنسان على مآل الحياة بعد أن عرضت لها حقيقتها ومسيرها الموضوعية في الدنيا. ويتلقى البصر تلك الحقيقة في مشهد حيّ تتوالى مراحلها لتصل إلى الفناء. وهذه الرؤية هي منبع للتفكير الذي تغذي به الآيات القرآنية، النفس البشرية، لتصل بالإنسان إلى أعلى منازل التزكية.

يقول سعيد حوى: "كمال العقل لا يكون إلا باجتماع الذكر والفكر للإنسان، فإذا ما عرفنا أن كمال اللب هو كمال الإنسان أدركنا محل الذكر والفكر في تزكية الأنفس".²

وتظهر تزكية النفس أيضاً في كتاب الله تعالى، في قوله جلّ وعلا: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّهُمْ سَخِرَ

لَكُمْ مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَيَاطِنَةُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ

يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾

¹ (الخالدي: الخطاب النفسي في القرآن الكريم. ص: ١٢٢.

² (حوى: سعيد: المستخلص في تزكية الأنفس. ص: ١١١.

هذه الآية الكريمة، تدعو البصر والبصيرة لإدراك مظاهر التسخير، وتوجههما نحو عموم المُسَخَّرَات، وفي ذلك توعية للإنسان بأنه هو السيد لها جميعاً. فمن ناحية تهبه ثقة كبيرة في نفسه وتُعرفه بمنزلته عند الله تعالى، ومن ناحية أخرى، تُلهمه ما تقتضيه تلك المُسَخَّرَات من تعامل أمثل للإفادة منها، وللعرفان بجزيل إنعام مُوهبها. فتلك الثقة تزيد من يقينه بالله تعالى، فتزكو نفسه في تعامله مع ربه، وتعامله مع المخلوقات من حوله.

ثالثاً: معالجة الدواخل النفسية:

يتأثر الإنسان بما حوله من ظروف وأحوال، فيتوجه سلوكه بحسب تلك المؤثرات. إلا أن هذا التأثير تحدّد نسبه بمدى القدرة على توجيه ذلك التأثير، ومدى تهذيب النفس وتوجيهها نحو كفيات السلوك الأمثل في مواجهة المواقف المختلفة. وقد عني كتاب الله تعالى بتنمية قدرة الإنسان على توجيه سلوكه، وتفاعله مع المؤثرات من حوله. نجد مثال ذلك في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا إِذْ

سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٤﴾

هذه الآية الكريمة تعالج أمراً تأتي نتيجة لما شاع من الأخبار حول نزاهة السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها. وقد أثرت تلك الأخبار على بعض النفوس آنذاك، فجعلتها تنطلق بترديد القبول حول ذلك، وتتساءل عنه. وكان الأولى بأولئك القوم أن يعلموا أن ما داخلهم من شكوك وظنون نتيجة ما سمعوه من أخبار باطلة، كان ينبغي أن يواجهوه بأذن واعية، وعقل فاحص، يعرف كيف يردّ دواخل النفس وما تتلقفه النفس الأمانة بالسوء من أسباب تُنعشها وتُنشّط فعلها. "ولو استشعار كل مسلم قلبه يومها لأفتاه، ولو عاد إلى منطلق الفطرة لهدها. والقرآن الكريم يوجه المسلمين إلى هذا

¹ (سورة لقمان، آية: ٢٠).

² (سورة النور، آية: ١٢).

المنهج في مواجهة الأمور، بوصفه أول خطوة في الحكم عليها^١. هذ ما عبّر عنه سيد قطب في حديثه عن الآية الكريمة. وشرح بعد ذلك موقف القرآن الكريم في معالجة تلك الدواخل النفسية، وتوجيه المرء إلى كيفية التعامل معها. فذكر موقف أبي أيوب وزوجته^٢، ثم قال: "هذه هي الخطوة الأولى في المنهج الذي يفرضه القرآن لمواجهة الأمور. خطوة الدليل الباطني الوجداني. فأما الخطوة الثانية فهي

طلب الدليل الخارجي والبرهان الواقعي: ﴿لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا

بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ "٤.

ولعظمة ما تناقله القوم من قول مُشين، وللحاجة الماسّة التي استدعت علاج ذلك القول جاءت مفردات الآيات الكريمة، شديدة الوقع والتأثير على النفس، لدرجة أن المولى جلّ وعلا، جعل ذلك التناقل المسموع بالأذان، جعله مسموعاً بالألسن، وهو على غير العادة الحسية المعهودة في اللسان، الذي ليس من شأنه السمع، وليس بمقدوره. ولكن الله تعالى نقل فعل السمع له، لما تناوله اللسان من خوض في الباطل، وتجاوز لحدّ المعقول من القول. فقال سبحانه: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ

بِالسِّنِّتِكُمْ... ﴿١٥﴾. وما ذلك إلا إشارة إلى عظيم جرم الألسنة، مما ينبغي أن يُقدّم لها

^١ (قطب: في ظلال القرآن: ٢٥٠١/٤.

^٢ (روى الإمام محمد بن إسحاق: أن أبا أيوب قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة رضي الله عنها - قال: نعم. وذلك الكذب، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟ قالت: لا والله ما كنت لأفعله. قال: فعائشة والله خير منك.. انظر الظلال: ٢٥٠١/٤.

^٣ (سورة النور، آية: ١٣.

^٤ (قطب: الظلال: ٢٥٠٢/٤.

^٥ (سورة النور، الآية: ١٥.

إسعاف مباشر يعالج النفوس المرسلة إليها دواعي ذلك الجرم والتفلسف. يقول قطب: "لسان يتلقى عن لسان، بلا تدبر ولا تروء، ولا فحص، ولا إنعام نظر. حتى لكأن القول لا يمر على الآذان، ولا تتملأه الرؤوس، ولا تتدبره القلوب... ولقد كان ينبغي أن تحفل القلوب من مجرد سماعه، وأن تتخرج من مجرد النطق به، وأن تنكر أن يكون هذا موضوعاً للحديث وأن تتوجه إلى الله تُنزهه عن أن يدع نبيه لمثل هذا، وأن تقذف بهذا الإفك بعيداً عن ذلك الجو الطاهر الكريم".¹

إن هذا التفسير يُلقى الضوء على ما قدمته الآية الكريمة لتلك النفوس آنذاك من علاج يناهض دواخلها، ويُذكرها بما تُبطنه، مما ألهمت به في أصل خلقتها من الخير والشر. ولذا جاء قوله سبحانه وتعالى تعقياً على ذلك العلاج، وتوطيداً له: ﴿يَعْظُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾². وبذلك تظهر التربية الربانية العظيمة. ولا يخفى ما في هذه التربية من توجيه للإدراك السمعي، وتهذيب للإنسان في تحري وتنقية مداركاته السمعية، وتفعيل العقل في الحكم عليها.

❁ ومما تناولته آيات الكتاب العزيز، مما قد يتأتى عنه دواخل نفسية تضرّ بثبات الإنسان وأثرانه قضية التعرّض للمؤثرات التي تمسّ بالثوابت والمقدسات. وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ

¹ (الظلال: ٢٥٠٢/٤، ٢٥٠٣).

² (سورة النور، الآية: ١٢).

حَقٌّ يَخُوضُوا فِي حَدِيثِ غَيْرِهِ إِتْكَرَ إِذَا مَثَلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُتَنَفِّقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي

جَهَنَّمَ جَمِيعًا ﴿١٤٠﴾

إن سماع الكفر بالمقدسات والاستهزاء بها، يُهيئ النفس لتلقي المسموع، ويتيح فرصة للتأثر به. والقرآن الكريم يعمل على "تزكية النفوس وتطهيرها من جميع الشرور والنيات والغايات السيئة، وتحليلتها بالفضائل والروح الخيرة، الدافعة إلى الخيرات والنسابق فيها".^١ وهي تربية تقتضي أن يتلقى السامع آيات كتاب الله تعالى بالرضا والقبول، وتجنّب الإعراض والمخالفة. يساعده على ذلك عظمة وإعجاز الأسلوب القرآني، وهو أمر مُيسّر لمن نقى سريرته، وحفظ جوارحه من التأثر بالإساءات الموجهة لكتاب الله تعالى. فبذلك يحظى بمزية المنهج التربوي القرآني الذي يعالج النفس الإنسانية بالثبوت والإصلاح والعزم والترقية. ألا ترى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾^٢.

وليس الإلهام فحسب، ولكنه الخطاب أيضاً. فالآية تشير إلى فضيلة من يعمل على تزكية نفسه بالتقوى. وفي الآية الكريمة تربية نفسية مثلى، تتحلى في النهي عن مجالسة الناعقين بالباطل والاستماع لهم. وتتحلى في التوعية لأهم ما يمكن أن ينتج عن تلك المجالسة من التأثر والمسايرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ إِذَا مَثَلْتُمْ﴾. وكفى بها من مفردات تهذب النفس؛ فإن ما ورد قبلها من مفردات الآية أكد على صفة أولئك المستهزئين بأنهم في منزلة دنية، تجعلهم يكفرون ويستهزئون بالحق. وكوهم على هذه الصفة، فذلك ينحدر بهم إلى أسفل المراتب العقلية والنفسية. ولا يرضى العاقل أن يكون في هذا المستوى من الدناءة.

^١ (سورة النساء، من الآية: ١٤٠).

^٢ (الجن والقاضي: علم النفس التربوي في الإسلام، ص: ٢٢).

^٣ (سورة النساء، آية: ٧).

قال محمد البوطي: "والقرآن يربي النفس البشرية هذه التربية باتباع أسلوبين: الأول: أنه حينما يصف الكفرة والمشركين الذين استحقوا عذاب الله ونكاله يصفهم بأسوأ أعمالهم وأحط ما انتهوا إليه من الخصال، حتى إذا تأملت في حالهم رجعت إلى نفسك فقلت: أحمد الله على أني لست منهم ولم أبلغ مبلغهم في السوء والانحراف. وحينما يصف المؤمنين الذين استحقوا ثواب الله ورضوانه، يصفهم أيضاً بأسمى خصالهم وأفضل أعمالهم حتى إذا تأملت في حالهم، عدت إلى نفسك تقول في تألم وأسف: أين عملي من أعمالهم، وأين تقصيري من سمو درجاتهم. وبذلك تجد ذاتك في حالة وسطى بين الرجاء في عفو الله والخوف من عذابه".¹ ولا يخفى ما في هذه التربية من تنقية للنفس الإنسانية، وحماية تقيها من الدواخل النفسية المنحرفة التي تسوؤها وتمويها نحو الفساد.

¹ من روائع القرآن، محمد سعيد البوطي، ص: ٢٥٤.

المطلب الثالث

الأثار السلوكية

تجلت الأثار التربوية السلوكية النابعة عن معاني آيات الكتاب العزيز، مما تضمّنته آيات الدراسة، في توجيه سلوك الأدب مع الله تعالى، وتحقيق سلوك الطاعة والاتباع. وتوجيه السلوك الإنساني نحو الاستفادة مما تفضّل الله تعالى به من النعم والمواهب. اتضح ذلك فيما تمت دراسته فيما يأتي:

أولاً: تأثير السلوك الإنساني بما تهندي إليه الآيات من المدركات السمعية:

توجّه آيات الكتاب العزيز نحو تحقيق سلوك الاستفادة مما يُسمع من القول. جاء ذلك في قوله

تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ

أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾

والآية الكريمة متضمّنة وصفاً بالفعل المضارع: (يستمعون) وهو يفيد دوام حال الاستماع وتجده. وذلك مؤشر إلى أن من وصفتهم الآية الكريمة حريصون على سماع المفيد من القول، وحريصون - بما يشير إليه الفعل الثاني: (فيتبعون) - على حرصهم الدؤوب على اتباع الأحسن منه، أي من القول المفيد. ومن هنا فإن هذه الصفة تُعدّ سلوكاً وسجّية ظاهرة في أخلاقهم. نبعت عن التربية الخلقية التي تلقوها من شرع الله تعالى. ذلك لأن "علامة اكتمال التربية الأخلاقية هي أن تصير الأخلاق طبعاً له فتصدر عنه بسهولة ويسر دون روية وفكر وأن يصير السلوك الأخلاقي محبباً إليه

¹ (سورة الزمر، آية: ١٨).

وأن يتنعم به...^١ والآية - إلى جانب ما تضمنته من وصف لمن كان ذلك السلوك سجيّة لهم - متضمنة أيضاً الحضّ على أن يسلك كل مؤمن هذا السلوك، ليتحقق له الاستمرار في ترقية سلوكياته الأخرى نحو الكمال الإنساني. وهذا يظهر جانباً من الآثار السلوكية فيما حضّت عليه آيات الدراسة.

❁ وكذا قوله تعالى: ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَأَسْمِعُوا وَأَطِيعُوا وَأَنْفِقُوا خَيْرًا

لِأَنْفُسِكُمْ وَمَنْ يُوقْ شَحْ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٦﴾ ٢.

سبق القول إن الالتزام بالتقوى وطاعة الله سبحانه وتعالى والإنفاق في سبيله، كل تلك الأعمال تتأتى للإنسان بعد سماعه أمر الله تعالى ونهيه، وتحقق معرفته بذلك كله، وبشرع الله تعالى، عموماً. ولا شك أن تقوى الله سبحانه وتعالى، تظهر معالمها فيما يتبعه الإنسان من سلوكيات فعلية، وقولية، ونفسية. فالسلوك الفعلي يظهر في إقدامه على طاعة الله تعالى بالعبادة من صلاة، وصيام، وقيام، وحج، ونحوها. وإقدامه كذلك على الأعمال: من أعمال الخير، والعون، وخدمة النفس والمجتمع، ونحوها، وإقدامه أيضاً على التعامل مع الآخرين: أخذاً، وعطاءً، ومساعدة، ونحوها. وغير ذلك من الأعمال التي يتمثل فيها تقوى الله عز وجل، ومراقبته سبحانه. أما السلوك القولي فيظهر فيما يتلفظ به مما أمر الله سبحانه وتعالى به من ذكر ووعظ، ونحوهما. وفيما ينطق به من الكلام تجاه نفسه والآخرين. أما السلوك النفسي، فيظهر فيما يتبعه الإنسان من مراعاة تطهير نفسه وكسب جماعها ومجاهدتها. وكذلك فيما يتقي الله تعالى به في خلوته، مما يقدر على المخالفة به متسترًا عن الناس.

^١ (يالجن: التربية الأخلاقية الإسلامية. ص: ٣٩٣.

^٢ (سورة التغابن، آية: ١٦.

وتمثل تقوى الله عز وجل، جانباً من الخوف الذي يعتري الإنسان من ربه جلّ وعلا، وكذلك من الرجاء، الذي يفترض توازنه مع ذلك الخوف. فإذا تحقق ذلك امتلك الإنسان "أقوى العوامل المؤثرة في السلوك، فهي من الدعائم الأساسية في ضبط السلوك الإنساني، وتقويمه، واستقامته على الفضائل ومكارم الأخلاق، ووقاية من كثير من الانحرافات السلوكية من رذائل الأخلاق ومساوئها".¹ وهنا تظهر أهمية تحقيق السماع الأمثل لشرع الله تعالى وأمره ونهيه. فيما يمكن من خلال التعلّم، وحضور حلقات الوعظ والإرشاد، ونحوها. وليس السماع فحسب، بل المواظبة عليه باستمرار.

أما ما يُعلّل تأثير السماع في تحقيق التقوى فلما "امتازت الشريعة الإلهية عن غيرها من الشرائع بربطها الجزاء المترتب على أفعال المكلفين بالآخرة. الأمر الذي ولّد شعوراً عند الأفراد ورقابة ذاتية، من شأنها تهذيب السلوكيات غير المرغوب فيها، والحدّ منها، لكون هذه الأفعال مراقبة من الله تعالى يترتب عليها عقوبة أخروية...".²

ثانياً: تأثر السلوك الإنساني بما قُدي إليه الآيات من المدركات البصرية.

في خطاب المولى جلّ وعلا، لعباده وامتنانه عليهم بالرزق والنعمة السابغة، تتجلى الدافعية نحو تحقيق سلوك الاستفادة من تلك النعم، وتحقيق سلوك الأدب مع الله تعالى. يُستفاد ذلك من قوله سبحانه: ﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَيْنِ لِيَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ

¹ (الشلول: زكريا ابراهيم: أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني. ص: ٤٤٠. دار الكتاب الثقافي، الأردن. دط. ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.

² (أبو مغلي: عماد عادل: العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم. ص: ٢٩٣. دار الكندي، الأردن. الطبعة الأولى: ٢٠٠٩م.

حَيَاةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَآخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

تشير هذه الآية إلى جانب من نعم الله تعالى على الإنسان، وتوجّهه نحو الاستفادة منه في تحصيل الرزق، أشار لذلك قوله: (لتأكلوا منه) و (تستخرجوا منه) و (الفلك مواخر) و (لتبتغوا). "فإذا تعرّف الإنسان على هذه المكونات التي يراها من حوله، وأدرك صلة ما بينه وبينها، وأيقن بأن الله عز وجل ما أقامها إلا في خدمة الإنسان وتحقيق مصالحه، وأنها لذلك مسخرة له على أتم وجه".^٢ فذلك يُشكل بناءً سلوكياً قيماً في حياته؛ ذلك لأن الرعاية والتمسير اللذين يتلقاهما عن ربه وخالقه في تحصيل معاشه ومنافعه، يجعله مُمتناً لله تعالى بهذه النعم، سالكاً الأدب معه سبحانه وتعالى. وفي الوقت نفسه، يدفعه ذلك التيسير، والامتنان بالنعم إلى أن يتحرى منافعها ويسلك سبل تحصيلها والتمتع بها والانتفاع بكل ما تجود به من خيرات. ذلك لأنه تعرّف على الغرض من تلك النعم. ومعرفة الغرض تُربّي لدى الإنسان إرادة تحمّله على توجيه سلوكه توجيهاً مفيداً نافعاً لحياته، مستنفعاً مما حوله. ذكر الغزالي ذلك فقال: "وإنما تتبعث النفس إلى الفعل إجابة لغرض الباعث الموافق للنفس الملائم لها، وما لم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا يتوجه نحو قصده".^٣ يشير بذلك إلى الدافعية التي يجدها الإنسان بين جنبيه حينما تتجلى له دواعي العمل وما سيجنه من مصالح ومنافع.

وتتجلى هذه الأغراض والدواعي في الآية الكريمة، فيما ذكر أعلاه من قوله تعالى: (لتأكلوا)

و(تستخرجوا)... إلخ. يضاف لذلك ما يراه الإنسان من نعم أخرى، تحيط به، ويستطيع الهيمنة عليها

^١ (سورة النحل، آية: ١٤).

^٢ البوطي: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن. ص: ١٠٦. دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى:

١٩٨٢م.

^٣ (الغزالي: إحياء علوم الدين: ٤/٣٧٤).

والاستفادة منها. أشار لذلك قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لِتَرْكَبُوا

مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي

صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٨٠﴾ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللَّهِ

تُنْكِرُونَ ﴿٨١﴾

هذه الآية تضمنت ذكر أغراض أخرى، ثم جمعت بينها وبين الغرض من استخدام الفلك؛ فالأنعام مسخرة للركوب والأكل ولتحقيق المنافع، ولبلوغ الحاجات والغايات. وهي تحمل الإنسان برأ، كما تحمله الفلك بجرأ. وكل هذه التعم، لفتت الآية الكريمة النظر إليها، فقال سبحانه: (ويريك آياته فأي آيات الله تنكرون). وهو توجيه فاعل ومؤثر في سلوك الإنسان؛ فالإنسان الموقن بأن الله تعالى هو رازق ذلك والمنعم به، يتوجه سلوكه نحو:

١. عبادة الله تعالى وحده، وعدم الشرك به.
٢. شكر الله تعالى على نعمه وإحسانه.
٣. ذكره سبحانه بالتعظيم والحمد والثناء والتسبيح.
٤. الإنفاق من طيبات ما رزقه الله سبحانه والتصديق على عباده.
٥. ابتغاء الرزق وطلبه من عند الله تعالى وحده، والتوكل عليه في تحصيله، مع الاعتماد والثقة بالله، والأخذ بالأسباب.
٦. الانقياد لأحكام التشريع الإلهي في التحليل والتحريم، فيما رزقه الله تعالى، وعدم مخالفتها.

¹ (سورة غافر، الآيات: ٧٩- ٨١).

٧. اكتساب الرزق وفق ما أحل الله تعالى وأمر به، والإجمال في الطلب والسعي، وعدم تحصيله مما حرم الله.

٨. الإنفاق مما رزقه الله تعالى وفق ما أمره من غير إسراف ولا تقتير ولا طغيان ولا فساد.^١
إن التوجه على هذا النحو في التعامل مع الله سبحانه وتعالى، ومع عباده، ومخلوقاته، يُشكل في سلوك المسلم رفعةً خُلُقِيَّةً، تمثل أسلوب الحياة الإنسانية كما يريد المولى جلّ وعلا. وتمثل - في الوقت نفسه - هضبة حضارية، بينها سلوك الإنسان، وتفاعله مع المخلوقات من حوله تفاعلاً إيجابياً ينهض بحال الحياة نحو الترقّي المستمر.

^١ (أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني، ص: ٣٧٤ - ٣٧٦، بتصريف يسير.

المبحث الثاني

قضايا تعليمية مستفادّة من عمليات الـإدراك الحسي في

القرآن الكريم

اتضح في المباحث السابقة أن الإنسان بوسعه أن يُلمَّ بمدركات سمعية وبصرية مما حوله من الكائنات. وأن هذه القدرة تعثرها أحوال، قد تحول بينه وبين ذلك تماماً، تارة، وقد تُفقد كثيراً من المدركات تارة أخرى، وقد تُخدعه فيصبح ما أدركه على نحو آخر مما هو عليه في الواقع. وقد تتدخل الأحوال النفسية في ذلك فتؤثر في قضية الإدراك، فتجعله إدراكاً محدوداً، أو تحول تماماً دون تحققه. وذلك بخلاف عوامل أخرى، تؤدي إذا تدخلت في عملية الإدراك إلى تحقيق إدراك أكبر، ثم استيعاب أفضل. وفي هذا المقام تدعو الحاجة إلى الحديث عن تلك العوامل ذات الفاعلية الإيجابية، التي يتأثر بها الإدراك السمعي والبصري، باعتبارها عوامل منشودة في تحقيق عملية التعلم. ولتقريب هذا المفهوم يمكن أن يُشار إلى مفهوم المهارة والاستراتيجية في عمليات الاستذكار؛ فهي عمليات مقصودة، وعن طريقها يتمكن المتعلم من بلوغ ما يُيسر له عمليات الاستذكار وتحصيل المعلومات واستيعابها.

فيرى التربويون أن هناك فرقا "بين المهارة والاستراتيجية: بأن المهارات هي الطرق المعرفية الروتينية لدى الفرد، لأداء مهام خاصة. بينما الاستراتيجيات: وسائل اختيار وتجميع وإعادة تصميم تلك الطرق المعرفية الروتينية. ومن ثم يمكن القول بأن العمل بالاستذكار يبدأ بسلوك متعلم، ثم يتسم هذا العمل بالكفاءة، وله هدف هو الإنجاز والتحصيل، فيصبح سلوكاً ماهراً، فإذا ما تكرر بشكل آلي يصبح عادة، وفق قوانين نظريات التعلم السلوكية، وإذا تم الاختيار من بين تلك السلوكيات والعادات والتنظيم للإجراءات، يكون الفرد بصدد اتخاذ استراتيجية في الاستذكار".¹ إن هذا الأسلوب الذي يتوصل الدارس من خلاله إلى استراتيجية منظمة في عملية الاستذكار، يمكن أن يُستفاد من مفهومه في الحديث عن استراتيجيات تعليمية بالاستفادة من قضايا الإدراك السمعي والبصري. ولكون هذا الجانب - وهو التعلم بالاستعانة بقدرات الإدراك السمعي والبصري- يمثل

¹ (www.uqu.edu.sa/majalat/htmanities/nol13/ao4htm-643k رزق: محمد عبد السميع. الاتجاهات الحديثة في دراسة مهارات الاستذكار. تم الدخول للموقع بتاريخ ٢٠٠٨/٩/٩م.

إطلالة جديدة في الساحة التربوية فيمكن أن يستلهم أساليبه من الأساليب التعليمية المعهودة، ولكن بما يتلاءم مع طبيعته وحاجته. وهو بهذا الاعتبار لن ينفك عما يقتضيه التعلّم من استخدام المسدّار الأخرى، كالعقل على وجه الخصوص. فإن "عملية التعلّم وتحصيل المعلومات والمعارف بشكل جيد ومنظّم تحتاج إلى جهد وتركيز لقوى الطالب العقلية".¹ ولكن الفارق المُعتبر في هذه الدراسة هو الأساليب التي تختص بها قدرات الإدراك السمعي والبصري في مساعدة العقل وتوجيه جهده بما يتناسب وحاجة المتعلّم.

ومن هنا فإن هذا الموضوع سوف يقتدي بمنهج وأساليب التعلّم المختلفة من حيث المنهجية، لا من حيث الأدوات والوسائل. إلا ما اشترك معه في الوسيلتين المطروقتين للدراسة. وسيهتم -أولاً- بالمنهجية التي ظهرت ملاحظتها ومؤشراتها ضمن آيات الكتاب العزيز.

أولاً: مهارة الاستماع:

تجلّت الدعوة إلى تحقيق الاستماع الأمثل في القرآن الكريم في منهجية أعظم آية في التربية

والتعليم؛ ألا وهي قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ

تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾^٢

دعت الآية الكريمة لتحقيق الاستماع، وليس السماع فحسب؛ -فالألف والسين والتاء تفيد

الطلب- وتؤكد به الدعوة إلى الإنصات. والآية -كما هو واضح- تخصّ عملية الاستماع

¹ (رزق: الاتجاهات الحديثة في دراسة مهارات الاستدكار. مرجع سابق.

² (سورة الأعراف، آية: ٢٠٤.

والإنصات^١ للمتلوّ من القرآن الكريم. إلا أن ما خصّصت به المتلوّ من القرآن الكريم - وهو الاستماع - يُعدّ تطبيقاً ذا فائدة قصوى في عملية التعلم، ولذا عدّه التربويون مهارة من مهارات التعلم الجيد، وعلامة من علامات المتعلم الجيد. ويوجّه التربويون هذه المهارة بالقول: إن "مهارة الاستماع تعتبر أساس التلقّي والتعلّم، وتحتاج إلى الانتباه، وأن يصاحبها إدراك لما يُسمع، فالطفل إذا ما أحسن الاستماع كان أحسن محدثاً، وأوفى تعلّماً. والاستماع هو الإنصات إلى المثيرات الصوتية بانتباه، وهذا الإنصات يحتاج إلى تدريب متواصل منذ مرحلة الطفولة، وأوّل خبرة تدريبية يتلقاها الطفل في الروضة هي من المعلمة التي تجيد فن الاستماع وتؤكد عليه، وتلتزم به"^٢. هذه اللفتة تؤكد على ضرورة تحقيق اكتساب مهارة الاستماع، وإكسابها الطفل على وجه الخصوص، تجاه ما يتلى من القرآن الكريم، أولاً؛ فإن الانطلاق من اكتساب هذه المهارة تجاه كتاب الله تعالى كفيل بأن يبني في سلوك الناشئ تلك المهارة، لتصبح استراتيجية في حياته المستقبلية، فينتفع بها في مجالاته التعليمية الأخرى.

وبالنظر إلى ما ذكر حول الهيئات اللازمة لتحقيق مهارة الاستماع - فيما يأتي - وجدنا تطبيقاً تاريخياً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الكرام رضوان الله تعالى عنهم، لتلك الهيئات. ومن ذلك إنصاته صلى الله عليه وسلم، على النحو التربوي الأكمل، الذي كان ظاهراً في سلوكه، بعد ما علّمه الله جلّ وعلا بقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^٣ فكان عليه الصلاة والسلام "إذا أتاه جبريل استمع، فإذا انطلق جبريل قرأه النبي صلى الله عليه وسلم كما

^١ (فُسِّرَ الاستماع بأنه الإصغاء، والإنصات بأنه السكوت. فقيل في قوله تعالى: (فاستمعوا له وانصتوا): "معناه: إذا قرأ الإمام فاستمعوا إلى قراءته ولا تتكلموا". انظر لسان العرب، مادة "سمع" ومادة "نصت". والمفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني: ٢٤٣.

^٢ (رزق: الاتجاهات الحديثة في دراسة مهارات الاستذكار. مرجع سابق.

^٣ (سورة القيامة، آية: ١٦.

قرأه".^١ وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك "يعالج من التنزيل شدة، وكان مما يحرك شفثيه"^٢

ليحفظ ما ينزل عليه من كتاب الله تعالى، فوعده ربه جلّ وعلا بقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾

﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأَهُ فَأَلْبَعِ قُرْآنَهُ. ﴿١٨﴾ وكان كما وعد سبحانه وتعالى.

ومن سيرة الصحابة رضوان الله تعالى عنهم ما ورد عن الحسين بن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال: "سألت أبي عن سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في جلسائه، فقال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم... وإذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رؤوسهم الطير، فإذا سكت تكلموا".^٤

وتظهر جوانب مهارات الاستماع الأمثل فيما حدثنا به صاحب "الاتجاهات الحديثة في

مهارات الاستذكار"^٥ فقد ذكر أن مهارة الاستماع تتكون من:

١. جانب حسي حركي، ويتعلق بطريقة الجلوس، وتركيز الانتباه، واتخاذ الأوضاع المناسبة

للإنصات الجيد، واحترام الصمت الواجب وعدم مقاطعة المتحدث أو الانشغال عنه.

٢. جانب معرفي، ويتضمن:

^١ (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب (١) كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. رقم الحديث: ٥، ص: ٥٨.

^٢ (صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي، باب (١) كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. رقم الحديث: ٥. ص: ٥٨.

^٣ (سورة القيامة، الأيتان: ١٧، ١٨.

^٤ (الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة. الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية. (ت ٢٧٩هـ).

٢٩١/١. دار الكتب الثقافية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ، تحقيق: سيد عباس الجليبي.

^٥ (رزق: الاتجاهات الحديثة. مرجع سابق.

a. الإدراك السمعي: عن طريق إمكان ترتيب الأصوات أو الكلمات، طبقاً

لتلقيها، والتعرّف عليها وعلى مصادر الأصوات، وإدراك الأصوات الخافتة.

b. التمييز السمعي: عن طريق تنمية مهارة تمييز الأصوات والاختلافات فيما بينها.

c. التخيل السمعي: عن طريق تخيل أصوات بعض المصادر الصوتية بمجرد رؤيتها،

أو تخيل المصادر بسماع أصواتها.

ويرى بعضهم أن مهارة الاستماع تقتضي أن يُعوّد المرء نفسه على التقليل من الكلام، لأن الرغبة في الكلام تستحوذ على الإنسان أكثر عن رغبته في الإنصات، ولذا فيقتضي هذا الأمر تحقيق السيطرة على تلك الرغبة، والتمكن من التدريب على مهارة الاستماع. وتزيد أهمية ذلك لدى المعلم؛ فصمته في بعض الحالات، وحسن إنصاته للمتعلمين، يتيح فرصة أكبر للتعلم الأمثل، من خلال ما يبادر به الطلبة من معلومات نابغة عن ثقافتهم، مما يتيح لهم مجال التعلم بالصواب والخطأ. ذهب لذلك كمال زيتون فقال: "...فالاستماع فنٌ يجب أن ينميه الإنسان بداخله، وأوّل خطوة تجاه إثراء مهارة الاستماع هي قلة الكلام، فكما أنّ الصّورة أحياناً قد تكون أجدى من ألف كلمة... فإن صمت المعلم أيضاً قد يكون أجدى من ألف كلمة ينطق بها".¹

ويظهر جلياً أن أهمية هذه الجوانب تنفق وما ترشد إليه الآية الكريمة من حسن الإنصات لتلاوة القرآن الكريم. وتُشكل -في الوقت نفسه- مهارة مهمة يجني ثمرتها من يملك القدرة على تطبيقها باستمرار. وذلك ما تجلّى فيما اتضح في الآية الكريمة من إرشاد لتحقيق مهارة الاستماع على الوجه الأكمل الذي يُتيح للسامع تعظيم القرآن الكريم. وباستمرارية القدرة على تحقيق الاستماع والإنصات للقرآن الكريم، تصبح هذه المهارة استراتيجية منظمة لدى المواظبين عليها.

¹ (زيتون؛ كمال عبد الحميد. التدريس: نماذجه ومهاراته. ص: ٤٦٦، ٤٦٧. المكتب العلمي، الاسكندرية، الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ، ١٩٩٨م.

ثانياً: استثمار طاقات الإنسان.

يُلحظ في كثير من آيات الكتاب العزيز الموجهة للإدراك السمعي والبصري، أنها تستثمر طاقات الإنسان، فتوجهه نحو النافع مما يحتاجه عقله، وقلبه، ونفسه، وجسده. وذلك من خلال إثبات

وجود النعم السابغة وإثبات تسخير منافعها، وتمكين الإنسان منها. كما في قوله تعالى: ﴿الْمَرْتَرُوا

أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ

النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾^١

وأيضاً من خلال التنديد بمن لا يستخدم حواسه فيما ينتفع به لدينه. كما في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى

عَنَّهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يُجَادِلُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ

وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾^٢

ومن خلال بيان وجوه الاستفادة من المسخرات، كما في قوله تعالى:

^١ (سورة لقمان، آية: ٢٠).

^٢ (سورة الأحقاف، آية: ٢٦).

﴿ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً

تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفَلَكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ

تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾

وقوله تعالى: ﴿ أَوْلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَنْفَعِيهِمْ يُظَلِّلُهُ عَنِ الْيَمِينِ

وَالشَّمَالِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ ٢.

وغير ذلك مما يجد الإنسان فيه توجيهاً مستمراً نحو العلم والعمل. وهذا التوجيه - كما هو ملحوظ في الآيات الواردة - أسلوبه العام مُتضمّن عاطفة تستجيش المشاعر وتحركها نحو غايات عقيدية، وغايات علمية وعملية. وهو أسلوب مستخدم في العملية التعليمية لتحقيق جذب انتباه المستمعين، وإشغال عواطفهم بشكل كامل في المحتوى، لينصبّ اهتمامهم العاطفي به؛ فيستوعبوه على النحو الذي يحقق الأهداف التربوية.^٣ ولا يخفى ذلك في مفردات الآيات المذكورة، ومنها على وجه الخصوص قوله تعالى:

١. (ألم تروا أن الله سخر لكم)، (أسخ عليكم نعمة)، (ظاهرة وباطنة).

٢. (مكناهم فيما إن مكناكم)، (جعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة).

¹ (سورة النحل، آية: ١٤).

² (سورة النحل، آية: ٤٨).

³ (لومان؛ جوزيف، إتقان أساليب التدريس، ترجمة حسين عبد الفتاح، ص: ٨٨، ٨٩، بتصريف.

مركز الكتب الأردني، ١٩٨٩م، دط.

٣. (وهو الذي سنخر البحر)، (لتأكلوا منه لحمًا طرياً)، (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها)،
(وترى الفلك)، (ولتبتغوا من فضله)، (ولعلكم تشكرون).

٤. (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء)، (يتفيرا ظلاله) (عن اليمين والشمال).

فهذه مفردات متضمنة تأثيرات عاطفية واضحة، لها أثر في تعلق القلوب بحبل الله تعالى على الدوام، واستمدادها منه الرشد والهداية، والقوة والإرادة التي تتطلبها طاقات البشر لتبقى مشاركة في العمل، للحظوة بخيري الدنيا والآخرة. ويؤكد ذلك أن القرآن الكريم عمّد دائماً إلى "لمس البدهية، وإيقاظ الإحساس، لينفذ منهما مباشرة إلى البصيرة، ويتخطاها إلى الرجحان، وكانت مادته هي المشاهد المحسوسة، والحوادث المنظورة، أو المشاهد المشخصة، والمصائر المصورة. كما كانت مادته هي الحقائق البديهية الخالدة، التي تفتح لها البصيرة المستنيرة، وتدرّكها الفطرة المستقيمة".^١

وهذا الأمر يدعو للاستفادة وتوجيه الخطاب نحو الأسلوب الأمثل الذي يجعل منه أسلوباً مؤثراً فاعلاً في العملية التعليمية، فإن من يرغب في توجيه اهتمام الآخرين بما يتكلم به من موضوعات يرى أهمية نقلها لمشاعرهم واهتماماتهم؛ فذلك عائد إلى "ذكائه، وأهمية الرسالة، وجاذبية الحديث، والمعتقدات والأفكار والقيم التي تحويها الرسالة، تشابه أفكار الرسالة مع أفكار المستمع، فعلى المتحدث أن يتحكم في كل هذه الأشياء حتى يتمكن المستمع من الانتباه إلى رسالته".^٢ ذلك لأن الناس يختلفون في قدرات التلقي، ويختلفون في أساليب اختيار المادة المعرفية، وذلك يقتضي تنويع المادة المقدمة للتعلّم، بحيث تتفق وجميع القدرات التعليمية، وتتفق في الوقت نفسه مع التفضيلات الشخصية لمادة المعرفة. وهو أمر ملحوظ في التنوع الوارد في الآيات المذكورة؛ فإن الله سبحانه وتعالى قدّم للإنسان في آياته العظام دعوة لمدرجات حاجاته المعرفية، وقدراته في تلقيها وفهمها. فتجد القادر على

^١ (قطب: سيد. التصوير الفني في القرآن الكريم، ص: ١٨٥، ١٨٦. دط. دن. ١٢٨٦هـ، ١٩٦٦.

^٢ (زيتون: التدريس، نماذجه ومهاراته، ص: ٤٦٧.

تحقيق إدراك مكونات البحار بالبساطة المعهودة لدى بعض الغواصين والصيادين ومن مثلهم. وبتعمق
وبحث ودراسة لدى المتخصصين في علوم البحار. وكذا من يستطيع إدراك بعض علوم الكون بالمعرفة
المبدئية البسيطة. وغيره ممن يستطيع تحقيق مدرجات معمّقة بالبحث والدراسة. يقول قطب: "...ذلك
أن القرآن يخاطب الناس جميعاً، وفي كل عصر. يخاطب ساكن الغابة وساكن الصحراء، كما يخاطب
ساكن المدينة ورائد البحار. وهو يخاطب الأمي الذي لم يقرأ ولم يخط حرفاً، كما يخاطب العالم
الفلكي، والعالم الطبيعي، والعالم النظر، سواء. وكل واحد من هؤلاء يجد في القرآن ما يصله بهذا
السكون، وما يثير في قلبه التأمل والاستجابة والمتاع".¹

وبالنظر إلى الأساليب التعليمية الواردة في الآيات الكريمة أتضح أن بعض الآيات تفتني أسلوب
المناقشة في توعية المُخاطَب، وهو أسلوب له أهميته في العملية التعليمية، إذ يتيح إمكانات تنمية التفكير
والمهارات والاتجاهات التي يستخدمها الطلاب في التعلم.² ويتنوع أسلوب طرح المناقشة في القرآن
الكريم بين استفهام مستقل، واستفهام متبوع بتوجيه، واستفهام متبوع بفرضيات، وتحقيق الإثبات
والاستمرارية للمعلومات، وغير ذلك. يُلاحظ هذا الأمر في بعض آيات الدراسة، مثل:

١. الاستفهام في قوله تعالى: (ألم يروا، أفلا ينظرون).

٢. الانتقال من موضوع الجملة الاسمية إلى موضوع الجملة الفعلية، كما في قوله تعالى: (وهو

الذي سخر البحر...) (وترى الفلك...).

٣. الاستفهام التقريري المتبوع بذكر فوائد المُقرَّر. كما في قوله تعالى: (أو لم يروا إلى ما خلق

الله من شيء يتفيؤوا ظلاله...).

¹ (قطب: ظلال القرآن: ٦/٣٦٣٣).

² (انظر: فرج: عبد اللطيف حسين. التدريس الفعّال، ص: ٢١. بتصرف. دار الثقافة عمان. الطبعة

الأولى: ٢٠٠٩م.

٤. استفهام متبوع بفرضيات، كقوله تعالى: (قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به...).

٥. تنويع الموضوعات المستفهم عنها. كما في قوله تعالى: (ألم تر أن الله يزوجي سبحاناً...). (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً...). (ألم تر أن الله سخّر لكم...). (أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء...).

٦. استخدام الأفعال المضارعة، المُشعرة بآنية حدوث مادة التعلم واستمرارها. كقوله تعالى: (ومن آياته يريكم البرق... وينزل من السماء... فيحيي به الأرض...).

٧. تقرير فعل الفاعل وإثباته للمُخاطب، بما يملئ عليه الإحساس بفاعليته تجاه المدركات، كقوله تعالى: (وترى الأرض هامدة...).

٨. استفهام مُستصدر به الأحكام، كقوله تعالى: (وكم أهلكتنا من قبلهم من قرن هل تحسّن منهم من أحد...).

٩. فعل الأمر متبوع باستفهام موجه نحو مادة المعرفة، كقوله تعالى: (فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها...).

هذه جملة من الأساليب القرآنية التي يُستثار بها النقاش بين المُخاطب والمُخاطب. وإن كان المُخاطب لا يملك قدرة على النقاش اللفظي مع المُخاطب إلا أنه يجد تجاه ذلك النقاش إجابات نفسية، وقناعات، وتوجهات، وقيم، وعقيدة نقية. يستلهمها من عمليات تفكير مُستثار بذلك الخطاب، وتنمو ليملك بها مدركات ومعارف تنهض بفكره، وتربي فيه كمالاً إنسانياً، وهو ما تسعى إليه برامج التربية والتعليم.

ويؤخذ من هذه الأساليب، طرقاً تعليمية ينهجها المعلم في طرحه مادة التعلم، ويستعين بها بما يتناسب وكل موضوع؛ فإن موضوعات الدراسة ذات طبائع متعددة؛ فيتلاءم بعضها مع بعض تلك الأساليب، ويتلاءم بعضها الآخر مع أساليب أخرى.

ثالثاً: تطبيق التكرار:

أشير إلى عملية التكرار في الإدراك البصري في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ

طَبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۚ ثُمَّ

ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾^١.

التكرار في الآية الكريمة يُراد به تحصيل معرفة، تُثبت الثقة في إحكام الصنع، وبديع الخلق. ويتحقق بهذا الهدف غرض تربوي، هو التوجيه إلى التأمل الفاحص لما يُراد إدراكه؛ فإن فحص المدركات يقتضي إعادة النظر فيها، وإعادة عملية إدراكها، سواء كان الإدراك بصرياً أم سمعياً. ويؤيد هذا ما حوته الآية الكريمة من حافز يحقق ذلك؛ فمن الخوافز ما يجعل الإنسان "راغباً بالقيام بعمل ما عندما يدرك تماماً ما هو المطلوب والمتوقع منه، ويعرف لماذا عليه تأديته".^٢ يظهر هذا في الآية، حيث يُعقّب المولى جلّ وعلا على عملية التكرار التي أمر بها بقوله سبحانه: (هل ترى من فطور). فالخسافز هنا هو الدعوة إلى البحث عما قد يشيب الإبداع في الخلق. ولكون الخلق محكم رصين، ومعلوم ذلك بالبداهة، فإن طرح التساؤل يثير دافعية النظر والتدقيق لحب المعرفة. وهذا يشير إلى أهمية ما تدعو

^١ (سورة الملك، الآيتان: ٣، ٤).

^٢ (عبوي: زيد منير: التعليم والتعلم الفعال. ص: ٦٧. المكتبة الوطنية بالملكة الأردنية الهاشمية. الطبعة الأولى: ٢٠٠٧م).

الآية إلى تكرار النظر إليه؛ فطلب تكرار الإدراك، وتكرار المعلومات عموماً، ينبغي أن يكون تكراراً حيويًا فاعلاً، وليس تكراراً مملاً "كتكرار الأشياء البسيطة والمألوفة".¹

وتحدّث قطب عن التكرار الوارد في الآية الكريمة، وعدّه نوعاً من التحدي، فقال: "وأسلوب التحدي من شأنه أن يثير الاهتمام والجدّ في النظر إلى السماوات وإلى خلق الله كله. وهذه النظرة الحادة الفاحصة المتأملّة المتدبرة هي التي يريد القرآن أن يثيرها وأن يعيئها. فبلادة الألفة تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الدقيق، الذي لا تشبع العين من تملي جماله وروعته، ولا يشبع القلب من تلقي إجماعه وإمضاءه، ولا يشبع العقل من تدبر نظامه ودقته. والذي يعيش منه من يتأمله بهذه العين في مهرجان إلهي باهر رائع، لا تخلق بدائعه، لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل".²

ومن هنا فإن التكرار في القرآن الكريم يمثل جزءاً من المنهج التربوي القرآني؛ فهو "يقود الإنسان إلى الفهم الواعي المستنير".³ والفهم الواعي المستنير هدفٌ وغاية تسعى إليه التربية الإسلامية في بنائها الشخصية الإنسانية المتزنة. يقول الإمام النووي رحمه الله تعالى، في حصّة المعلم على الرّفق بالمتعلم: (... ويعوّد الصيانة في جميع أمورهِ الباطنة والجلية، ويُحرّضه بأقواله وأفعاله المتكررات على الإخلاص والصدق وحسن النيات، ومراقبة الله تعالى في جميع

¹ (أبو عرقوب: ابراهيم. الاتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي. ص: ٢٠٠. دار مجدلاوي، عمان، الأردن. الطبعة الثانية. ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.

² (قطب: ظلال القرآن: ٣٦٣٢/٦.

³ (زكريا: محمد سراج الدين. وأمين: إصلاح إسماعيل. إعجاز القرآن في وقاية الإنسان، ص: (١٦). نهضة مصر. دط. دت.

اللحظات...^١. ويقول: (... وأن يكون حريصاً على تفهيمهم، وأن يُعطي كل إنسان منهم ما يليق به..)^٢. فقوله: (.. وأفعاله المتكررات) يشير إلى أن التكرار في القول والفعل في العملية التعليمية، عامل فاعل في غرس الأهداف التربوية والتعليمية المرغوبة. وكذلك إشارته إلى الحرص على التفهيم، تشير إلى أن عملية التفهيم قد تقتضي تكرار طرح المعلومات، والتكرار قد لا يتطلب تكرار المعلومة والمفردات المستخدمة ذاتها، ولكن التنوع في طرح المعلومات بحيث تجتمع جميعها في خدمة فكرة واحدة.

هذا وقد تكرر في سورة الرحمن الاستفهام في قوله تعالى: ﴿فَيَأْتِيءَ آءَاءَ رَبِّكَمَا

تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾^٣. "إحدى وثلاثين مرة، وفي كل مرة يُثِيرُ انفعالاً يختلف بحسب الآية التي

تسبقه"^٤. وهو أمر يثير إمكانات التعلم لدى المتعلم، من خلال التنوع في ترقية القدرات المعرفية، وذلك من خلال طرح الأفكار وتوجيه النظر إليها بتكرار السؤال عن كل فكرة.

والتكرار في العمليات التعليمية الحديثة أسلوب يهجه المربون لتحقيق عدد من الأغراض

التعليمية. ومن تلك الأغراض ما يأتي:

^١ (النووي: التبيان في آداب حملة القرآن، تحقيق: زهير الكبي، ص: (٣٣). دار الكتاب العربي،

بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

^٢ (المرجع السابق، ص: (٣٤).

^٣ (سورة الرحمن، آية: ١٣).

^٤ (عبد الرؤوف: عبد القادر سيد. التربية الإسلامية في ضوء القرآن والسنة النبوية. ص: (١٩). دار

الطباعة المحمدية. القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.

١. تُتبع عملية التكرار لتحقيق الإدراك المبدئي للمعلومات، فيرى الباحثون أن "عملية التكرار ملائمة للنطق غير الصوتي (عقلياً) لأن كل إعادة تؤدي وظيفة الإدخال الأول للعنصر نفسه إلى الذاكرة القصيرة المدى".^١

٢. ولتحقيق ترسيخ المدركات في الذاكرة الطويلة؛ فـ "هناك وظيفة أخرى للتكرار تتصل بالتهيئة والإعداد لانتقال المعلومات من الذاكرة القصيرة المدى إلى الذاكرة الطويلة المدى".^٢

٣. لتسهيل عملية الاسترجاع على المدى الطويل، فـ "كلما تكررت المعلومات عدداً أكبر من المرات كلما تم الاحتفاظ بها في الذاكرة القصيرة المدى لفترة أطول، وكلما كان هناك احتمال أكبر لاسترجاعها في المستقبل".^٣

٤. لمراعاة الفروق الفردية بين المتعلمين؛ فمن المتعلمين من يتعرف على المعلومة من الوهلة الأولى، ومنهم من يحتاج إلى تكرارها ليتمكن من التحصيل.^٤

٥. لتحقيق التسهيل والوضوح والفهم؛ فإن التكرار يجعل "المادة أكثر وضوحاً وأسهل فهماً وأطول استقراراً في الذهن، فهي تزيل الشوائب العالقة، والغموض، واللبس".^٥

٦. لتحقيق التركيز على نقاط معينة. فالتكرار يُطبّق على وجه الخصوص تجاه ما ينبغي التركيز عليه من المعلومات.

^١ (بطرس: حافظ بطرس. صعوبات التعلم (الأكاديمية والنمائية). ص: ١٨٦. منشورات جامعة ٧ أكتوبر. الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م.

^٢ (المرجع السابق، ص: ١٨٦.

^٣ (المرجع السابق، ص: ١٨٧.

^٤ (الأحرش: يوسف أبو القاسي، والزيبيدي: محمد شكر. صعوبات التعلم، ص: ١٥٣. دار الزهراء، الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ. ٢٠٠٨م.

^٥ (المرجع السابق، ص: ١٥٤.

٧. لتحقيق الحفظ، وتقوية الذاكرة، وذلك يتطلب ترادف الحوافز، فـ "كلما زادت السدوافع

كلما تحسّنت النتيجة...".^١

والحديث عن الحوافز يأخذنا لبيان ما ينبغي أن يرادف عملية التكرار، حيث يفرّق المربون بين التكرار الواعي، والتكرار غير الواعي؛ فمراجعة الدروس -على سبيل المثال- الأكثر فعالية، ليست هي تكرار القراءة فحسب ولكنها تعني أيضاً الحث الذهني على إرغام النفس على تذكر المعلومات المطالعة، والرجوع إلى الكتاب والمعلومات المدونة. والاجتهاد في تحقيق استيعابها.^٢

والأغراض المذكورة تستدعي القول بـ:

- أهمية تضمين المنهاج المدرسي في المراحل التعليمية الأولى، أسلوب التعليم بالتكرار، وذلك من خلال ربط الأفكار الأساسية للموضوع بعدد من المفاهيم المتنوعة التي تحول دون حدوث الملل لدى الطالب، وتساعد في الوقت نفسه على غرس الأفكار التعليمية الأساسية.
- أهمية تنظيم منهجية التكرار في التعلم فيما يتعلق بأهداف الحفظ؛ كعملية تحفيظ القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، والقواعد الفقهية والعلمية، ونحوها.
- التكرار في العملية التعليمية يناسب متطلبات النفس؛ ذلك لأن النفس البشرية بحاجة إلى تكرار التعرف إلى الشيء حتى تألفه، فإذا ألفتْ انبسطت له، وتقبّلته، ويصبح حينها جزءاً من المعارف التي تنهضُ بها إلى الرقي الملائم لمنزلة الإنسان.

هذه بعض قضايا التعلّم، تمّ الانطلاق في الحديث عنها من بعض المؤشرات الإدراكية في آيات الكتاب العزيز، الحافل بالقضايا التربوية والتعليمية في موضوعات أخرى غير الموضوعات الإدراكية. وفي كل خير. ونسأل الله العلي العظيم أن ينفع بها. آمين.

^١ (الطيبي: عكاشة عبد المنان. علاج النسيان، وطرق مضمونة لتقوية الذاكرة. ص: ١١١.

^٢ (عبوي: التعليم والتعلّم الفعال. ص: ٧٥. بتصرف يسير.

الخاتمة والنتائج والتوصيات.

الحمد لله تعالى، الذي بفضلته تتم الصالحات، والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبي

الهدى، سيدنا محمد بن عبد الله وعلى وآله وصحبه أجمعين.

وبعد،،،

فقد تجوّلت الباحثة في ربوع آيات القرآن الكريم، فتحلّت معالم الإدراك الحسي في هذا الكتاب العزيز بصورة عظيمة، ظهر فيها دقائق التعبير القرآني، ودقائق معالجات هذا الموضوع؛ فظهرت تلك المعالجات في صورٍ شتى أمكن صياغتها على نحوٍ يُبيّن كفايات الاستفادة من الإدراك الحسي لدى الإنسان.

وإن كان بعض الناس يرى قضية الإدراك الحسي قضية عابرة في حياته، وأمرًا بدهياً، فهي في كتاب الله تعالى ليست كذلك، لأنها قضية موجهة بتوجيهات قرآنية ورعاية ربانية. وهي قضية تربوية مهمة، ولها أثر كبير في تنشئة الإنسان وتنمية قدراته الإدراكية والمعرفية والنفسية والسلوكية. ولا شك أن الاهتمام بجديّة هذا الموضوع ومحاولات تطويره سيكشف عن إمكانات الاستفادة، وتقدم وجوه جديدة لذلك. ومن هذا المنطلق توصّلت الباحثة إلى النتائج والتوصيات التالية.

أولاً: النتائج:

توصّلت دراسة الإدراك الحسي في القرآن الكريم إلى عدد من النتائج. أجابت بها عن أسئلة

الدراسة. تمّ إيرادها فيما يأتي مصحوبة بنتائج الدراسة:

السؤال الرئيس: ما معالم الإدراك الحسي في القرآن الكريم؟ وتفرّعت عنه الأسئلة التالية:

السؤال الأول: ما الإدراك وما المعرفة، وما صلة الحواس الإنسانية بهما؟

أجابت الدراسة عن هذا السؤال فكشفت عن النتائج التالية:

١. إن الإدراك الحسي في القرآن الكريم تجلّى في معالم واضحة، ظهرت في المعاني المُدرّكة التي أرشدت آيات الكتاب العزيز إلى تحصيلها. ومن ذلك قوله تعالى: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفاً ألوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود).^١

٢. إن جميع مفاهيم الإدراك في القرآن الكريم -إلا مفهوم واحد- تلتقي ومفاهيم الإدراك في اللغة وفي علم النفس المعرفي. وهي: الوصول للشيء وبلوغه، وهو متفق مع ما يراه علم النفس من إجراءات تشمل: الإحساس، والانتباه والتمييز والتفسير والتحويل، التي تتم في الدماغ. فتأسس بها البنى المعرفية.

٣. إن القرآن الكريم خصّ مفردة الإدراك بمفهوم مستقلّ في آية واحدة، تضمّنت مفهوماً شاملاً للمفهوم العام، وأضافت له معنى آخر. حيث تضمّن معنى الإدراك في هذه الآية مفهوم الإحاطة والعلم المتكامل. ورد ذلك في قوله تعالى: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار).^٢

٤. إن المعرفة في اللغة وفي الاصطلاح تتضمّن ما يكتسبه الإنسان بتأثير معيّن: إما بالتعلم وإما بالوحي وإما بالحدس والإلهام، وتتضمّن المعرفة بالتعلم فاعلية المدركات الحسية في تأسيس البنى المعرفية لدى الإنسان.

^١ (سورة فاطر، آية: ٢٧).

^٢ (سورة الأنعام، آية: ١٠٣).

٥. إن المعرفة في القرآن الكريم تُؤسّس بعض جوانبها بما تُوجّه آيات الكتاب العزيز إليه من مُدركات حسّية. مما يدلّ على الصلة الوثيقة بين الإدراك الحسي والمعرفة. يُلاحظ ذلك فيما أشار إليه قوله تعالى: (ولتعرفنهم في لحن القول).^١

السؤال الثاني: ما الآليات الإدراكية للحواس الإنسانية في القرآن الكريم؟

أجابت الدراسة عن هذا السؤال فكشفت عن النتائج التالية:

١. إن القرآن الكريم وجّه الإنسان لتنمية قدراته الحسية من خلال دعوته لتنظيم مدركاته الحسية، وتتبع النافع من المدركات، واستصحاب الاهتمام بذلك. كقوله تعالى: (أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأي حديث بعده يؤمنون).^٢
٢. إن القرآن الكريم، كشف عن قضايا إدراكية، تضمّنت مؤشرات التأثير الإدراكي في حواس الإنسان. كقوله تعالى: (وفي أنفسكم أفلا تبصرون).^٣
٣. إن القرآن الكريم وظّف الحواس الإنسانية في تحصيل خبرات إدراكية، تتكوّن عنها بنية معرفية، تُشكّل فيما بعد مرجعيات معرفية يستند إليها سلوك الإنسان. كقوله تعالى: (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج، والأرض ممددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج هيج).^٤

^١ (سورة محمد، آية: ٣٠).

^٢ (سورة الأعراف، آية: ١٨٥).

^٣ (سورة الذاريات، آية: ٢١).

^٤ (سورة ق، الآيات: ٦، ٧).

٤. إن القرآن الكريم هياً للمدركات الحسية مصادر للتحصيل الإدراكي كالنفس الإنسانية، والكون، والبيئة المحيطة، والمخلوقات الدقيقة والجليلة. كقوله تعالى: (ألم تسروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأصبح عليكم نعمة ظاهرة وباطنة...).^١ وقوله سبحانه: (أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من

شيء...).

٥. إن القرآن الكريم وظّف وسائل التأثير الفاعل في الإدراكات الحسية، لتحقيق عملية التعلم. مثل: قصة رؤية ابن آدم عليه السلام للغراب وهو يدفن غراباً ميتاً. ومثل قصة عزيز عليه السلام، بعد إمامته مائة عام ثم إحيائه.

٦. إن الحواس الإنسانية لها قدرات محدودة، صرّح القرآن الكريم بها في عدة مواضع. وتتأثر بعدد من العوامل، كالقدرات الإدراكية والعوامل النفسية، والخبرات السابقة. ومن ذلك قوله تعالى: (وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء إنه خبير بما تفعلون).^٢

السؤال الثالث: ما أساليب القرآن الكريم في توجيه الحواس الإنسانية؟

أجابت الدراسة عن هذا السؤال فكشفت عن النتائج التالية:

١. إن القرآن الكريم وظّف حواس الإنسان في تحقيق مدركات شتى، وتأسيس معارف متنوعة، وخبرات متعددة. منها: إدراك تنوع المخلوقات، ومظاهر تسخيرها، ومظاهر الانتفاع بها. وإدراك جمال المخلوقات، ومظاهر الاستمتاع بها. كقوله تعالى: (ولقد

^١ (سورة لقمان: آية: ٢٠).

^٢ (سورة الاعراف، آية: ١٨٥).

^٣ (سورة النمل، آية: ٨٨).

جعلنا في السماء بروجاً وزيناًها للناظرين).^١ وقوله سبحانه: (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة إن الله لطيف خبير).^٢

٢. إن الحواس الإنسانية تتفاوت في درجات الإدراك الحسي، فتبرز حاستا السمع والبصر في مراتب تُفارق بها مراتب إدراك الحواس الأخرى، مفارقة كبيرة. وقد وظّف القرآن الكريم حاستي السمع والبصر بما يتلاءم وقدراتهما في تحصيل المدركات الحسية في جوانب تربوية وتعليمية كثيرة، أما بقية الحواس فقد استُخدمت في كتاب الله تعالى في جوانب محدودة، عالج القرآن بها قضايا تهذيب النفس والسلوك، كقوله تعالى: (ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون).^٣ وقوله تعالى: (إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله...)^٤ وقوله سبحانه: (قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس وإنّ لك موعداً لن تخلفه...)^٥.

٣. إن الحواس الإنسانية، ذات فاعلية كبيرة؛ ولذا فإن القرآن الكريم يوجهها باستمرار نحو الإيجابية في التفاعل مع الذات، ومع الكائنات من حوله.

٤. إن المدركات الحسية في القرآن الكريم تنوب عن المدركات المجردة، في تحقيق التعريف بها. كقوله تعالى: (قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله ينشئ النشأة

الآخرة إن الله على كل شيء قدير).^٦

^١ (سورة الحجر، آية: ١٦).

^٢ (سورة الحج، آية: ٦٣).

^٣ (سورة يوسف، آية: ٩٤).

^٤ (سورة آل عمران، آية: ٤٠).

^٥ (سورة طه، آية: ٩٧).

^٦ (سورة العنكبوت، آية: ٢٠).

السؤال الرابع: ما الآثار التربوية والتعليمية للإدراك الحسي في القرآن الكريم؟

١. إن الحواس الإنسانية -حاستي السمع والبصر على وجه الخصوص- تُشكّل وسائل معرفية أساسية لا يستغني الإنسان عنها. أشار لذلك قوله سبحانه: (قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم من إله غير الله يأتيكم به انظر كيف نصرف الآيات ثم هم يصدفون).^١

٢. إن حواس الإنسان تُزوّد به إدراكات تتعلّق بذاته الإنسانية وبما حوله من مخلوقات.

٣. أن القرآن الكريم يجمع بين تأثير المدركات الحسية، وتأثير الأساليب البلاغية التي يعرض فيها وظائف الحواس ومهامّها وتوجيهها.

٤. إن التوجيهات القرآنية للحواس الإنسانية تتضمن مؤشرات للمهارات التعليمية وقضايا التعلم.

٥. إن الغايات القرآنية من المدركات الحسية متعددة، وتأخذ بيد الإنسان نحو الكمال الإنساني

المتوخّى فيه. مثل: تحقيق الاعتقاد الصحيح، وتعديل السلوك وتنميته، وتحقيق التعرف على

حقائق نفسية وكونية.

^١ (سورة الأنعام، آية: ٤٦).

ثانياً: التوصيات:

نظراً لأهمية الإدراك الحسي في القرآن الكريم، توصي الباحثة بالآتي:

١. أن تستكمل دراسات الإدراك الحسي، لتعالج هذا الموضوع من حيثيات عدة:
 - a. المعالجة القرآنية لها.
 - b. البحث عما يكشف عن أسرار وخبايا المؤشرات القرآنية في الآيات الكريمة الدالة على منهجية تفعيل الإدراك الحسي.
 - c. تأسيس إجراءات تعليمية تقوم على منهجية ذلك التفعيل.
٢. تضمين المناهج التربوية مهمات الإدراكات البصرية والسمعية، والاستفادة من موجهاتها في القرآن الكريم، يجعلها في عناصر المحتوى الدراسي.
٣. تحقيق التطبيق العملي لما توجه إليه آيات الكتاب العزيز من مدركات بصرية وسمعية، في المؤسسات التعليمية المختلفة.
٤. الاستفادة من موجهات الإدراك السمعي والبصري في القرآن الكريم، في تأسيس استراتيجيات تعليمية، ذات إجراءات تطبيقية مستقاة من إجراءات القرآن الكريم في توجيه المدركات الحسية.
٥. أهمية تعزيز قضايا الإدراك الحسي في التطبيقات التربوية في المؤسسات التعليمية المختلفة، بالوسائل السمعية البصرية ذات التأثير الفاعل في عملية التنمية الإدراكية.
٦. تهذيب معتقد الطلاب ونفوسهم وسلوكهم تجاه القرآن الكريم، بتغذيتهم بما يحتويه كتاب الله تعالى من مواد نافعة وممتعة تابعة عن قضايا الإدراك الحسي.

فهرس المصادر والمراجع

القرآن الكريم

أولاً: المؤلفات.

- صحيح البخاري، وهو الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، للإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي البخاري (١٩٤-٢٥٩). اعتنى به: عز الدين ضلي، وعماد الطيار، وياسر حسن. مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ. ٢٠٠٨م.
- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، (٢٠٦ - ٢٦١هـ). مكتبة الرشد، الرياض. دط. ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.
- ابراهيم: مجدي عزيز: منطلقات المنهج التربوي في مجتمع المعرفة. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م. عالم الكتب، القاهرة.
- الإبياري: ابراهيم: الموسوعة الشوقية. الأعمال الكاملة لأمير الشعراء أحمد شوقي. جمع وترتيب وشرح: إبراهيم الإبياري. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الأولى. ١٤١٥هـ. ١٩٩٤م.
- الأحرش: يوسف أبو القاسم. والزيدي: محمد شكر: صعوبات التعلم. منشورات جامعة (٧) أكتوبر. الطبعة الأولى. ٢٠٠٨م.
- الأزدي: أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين بن موسى، المتوفى سنة ٤١٢هـ: حقائق التفسير، دار الكتب العلمية. لبنان، بيروت. تحقيق: سيد عمران. الطبعة الأولى: ١٤٢١هـ، ٢٠٠١م.

- الأسمر، راجي: معجم الأدوات في القرآن الكريم. دار الجيل، بيروت. الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٥م.
- الأصفهاني: أبو القاسم الحسين محمد بن المفضل، المعروف بالراغب الأصفهاني: معجم مفردات ألفاظ القرآن. ضبطه وصحّحه وخرّج أحاديثه وشواهده: إبراهيم شمس الدين. منشورات: محمد علي بيضون. دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م.
- الأصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل: المعروف بالراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن. دار المعرفة، لبنان. تحقيق: محمد سيد كيلاني. دط. دت.
- الألوسي: أبو الفضل، شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، المتوفى سنة ١٢٠٧هـ: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه للمرة الثانية: إدارة الطباعة المنيرية. دار إحياء التراث العربي. بيروت. دط. دت.
- الأنباري: أبو بكر محمد بن قاسم، المتوفى سنة ٣٢٨هـ: الزاهر في معاني كلمات الناس. مؤسسة الرسالة، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ. ١٩٩٢م. تحقيق: حاتم صالح الضامن.
- أندرسون: جون: علم النفس المعرفي وتطبيقاته. ترجمة: محمد صبري سليط، رضا مسعد الجمال. الطبعة الأولى: ١٤٢٩هـ، ٢٠٠٧م. عمّان/ الأردن.
- الأندلسي: أبو الحسين علي بن إسماعيل النحوي اللغوي، المتوفى سنة ٤٥٨هـ: المخصص. دار إحياء التراث العربي. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ. ١٩٩٦م. تحقيق: خليل إبراهيم جفال.
- الأندلسي: محمد بن يوسف، الشهير بابي حيان، المتوفى سنة: ٧٤٥هـ: تفسير البحر المحيط. دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م. تحقيق: علي محمد معوض. وآخرون.

- الأندلسي: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، المتوفى سنة ٥٤٦هـ: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز. دار الكتب العلمية، لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ. ١٩٩٣م. تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد.
- الأنصاري: أبو عبد الله محمد بن أحمد، المتوفى سنة ٦٧١هـ. الجامع لأحكام القرآن، دار الشعب، القاهرة. دط. دت.
- البجاوي: علي محمد: الأمثال من الكتاب والسنة للحكيم الترمذي. دار نهضة مصر.
- بدر: عبد الرحيم: رصد السماء. مؤسسة عبد الحميد شومان، عمان، الطبعة الأولى: ١٩٩٢م.
- البدوي: خليل كنيش: موسوعة الحواس. دار عالم الثقافة. عمان. الطبعة الأولى: ١٩٩٩م.
- بطرس: حافظ بطرس: صعوبات التعلم. (الأكاديمية والنمائية). الطبعة الأولى. ١٤٢٩هـ. ٢٠٠٨م. دار الزهراء الرياض.
- البغوي: تفسير البغوي. المتوفى سنة ٥١٦هـ. دار المعرفة، بيروت. تحقيق: خالد عبد الرحمن العك. دط. دت.
- البقاعي: برهان الدين، المتوفى سنة ٨٥٥هـ: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور. دار الكتب العلمية، بيروت. ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م. تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي. دط. دت.
- بك: مصطفى نظيف: العلوم الطبيعية عند العرب والمسلمين: ابن الهيثم وكشوفه البصرية. من منشورات معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، يصدرها: فؤاد سزكين في إطار جامعة فرانكفورت - جمهورية ألمانيا الاتحادية. ١٤٢٢هـ. ٢٠٠١م.
- البلخي: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي بالولاء، المتوفى سنة ١٥٠هـ: تفسير مقاتل بن سليمان، دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٣. تحقيق: أحمد فريد.

- البوطي: محمد سعيد رمضان: من روائع القرآن. تأملات علمية وأدبية في كتاب الله عز وجل. مكتبة الفارابي، الطبعة الخامسة. ١٣٩٧هـ. ١٩٧٧م.
- البوطي: محمد سعيد رمضان: منهج تربوي فريد في القرآن. مكتبة الفارابي، دمشق، دط. دت.
- البوطي: محمد سعيد رمضان: منهج الحضارة الإنسانية في القرآن. دار الفكر، دمشق. الطبعة الأولى: ١٩٨٢م.
- البيضاوي: تفسير البيضاوي. المتوفى سنة ٦٨٥هـ. دار الفكر، بيروت. دط.
- البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين: المتوفى سنة ٤٥٨هـ. شعب الإيمان. دار الكتب العلمية بيروت. ١٤١٠هـ. الطبعة الأولى. تحقيق: محمد السعيد بسيوني زغلول.
- ابن تيمية: أبو العباس، تقي الدين أحمد بن عبد الحلیم. المتوفى سنة ٧٢٨هـ: الفتاوى الكبرى: ٣٣١/١. قدم له وعرف به حسين محمد مخلوف. دار المعرفة، بيروت. دط. دت.
- التيمي: أبو عبيدة معمر بن المنثري، المتوفى سنة ٢١٠هـ: مجاز القرآن. عارضه بأصوله وعلق عليه: محمد فؤاد سزكين. مكتبة الخانجي بمصر. دط. دت.
- الترمذي: محمد بن عيسى بن سورة، المتوفى سنة ٢٧٩هـ: الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية. دار الكتب الثقافية. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ. تحقيق: سيد عباس الجليمي.
- توفيق: محمد عز الدين: التأصيل الإسلامي للدراسات النفسية. دار السلام، القاهرة. الطبعة الأولى: ١٩٩٨م. ١٤١٨هـ.
- الثعالبي: عبد الرحمن بن مخلوف: الجواهر الحسان في تفسير القرآن. تحقيق: محمد الفاضلي. المكتبة العصرية. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٧هـ. ١٩٩٧م.

- الثعلبي: أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المتوفى سنة ٤٢٧هـ: الكشف والبيان، تفسير الثعلبي. دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: ٤٢٢هـ، ٢٠٠٢م. تحقيق: أبو محمد بن عاشور. مراجعة الأستاذ نظير الساعدي.
- جاد المولى: محمد أحمد: الخلق الكامل. منشورات دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الأولى. ٤٢٥هـ، ٢٠٠٦م.
- الجصاص: أحمد بن علي الرازي، أبو بكر، المتوفى سنة ٣٧٠هـ: أحكام القرآن. دار إحياء التراث العربي، بيروت. ٤٠٥هـ. تحقيق: محمد الصادق قمحاوي.
- الجوزي: عبد الرحمن بن علي بن محمد، المتوفى سنة ٥٩٧هـ: زاد المسير في علم التفسير. الطبعة الثالثة: ٤٠٤هـ. المكتب الإسلامي بيروت.
- أبو الحجاج: مجاهد بن جبر المخزومي التابعي أبو الحجاج. المتوفى سنة ١٠٤هـ. تفسير مجاهد. المنشورات العلمية، بيروت. تحقيق: عبد الرحمن الظاهر ومحمد السورتي. دط. دت.
- حسّان: تمام: البيان في روائع القرآن. دراسة لغوية أسلوبية للنص القرآني. دن. دط. ١٩٩٣م. القاهرة.
- حسب النبي: منصور محمد: الآيات الكونية في ضوء العلم الحديث. دار المعارف، القاهرة، دط. دت
- الحنبلي: أبو حفص عمر بن علي بن عادل الدمشقي، المتوفى سنة ٨٨٠هـ: الباب في علوم الكتاب. دار الكتب العلمية. بيروت، لبنان. الطبعة الأولى: ٤١٩هـ. ١٩٩٨م. تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود. والشيخ علي محمد معوض.
- حوى: سعيد: المستخلص في تزكية الأنفس. دار عمّار، بيروت - عمان. دط. دت.

- الخازن: علاء الدين على بن محمد بن ابراهيم البغدادي، المتوفى سنة ٧٢٥هـ: تفسير الخازن، المسمى: لباب التأويل في معاني التنزيل، دار الفكر، بيروت، لبنان. دط ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
- الخالدي: كريم حسين ناصح: الخطاب النفسي في القرآن الكريم، دراسة دلالية أسلوبية. دار صفاء للنشر والتوزيع، عمان، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٨م
- الخطيب: شريف الشيخ صالح أحمد: السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك. مكتبة الرشد، والدار العثمانية. عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ. ٢٠٠٤م.
- الخطيب: عبد الله: وسائل المعرفة الإنسانية، العقل، والسمع والبصر، وهدي القرآن في توجيهها، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات. المجلد السابع عشر، العدد الثامن، ٢٠٠٢م. الصفحات: ١١ - ٧٦.
- الخضري: محمد الأمين: من أسرار حروف العطف في الذكر الحكيم. "الفاء و ثم". مكتبة وهبة، القاهرة. دط. دت. كتبت مقدمة الكتاب بتاريخ: ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
- الخوالدة: ناصر أحمد، وعبيد: يحيى إسماعيل: طرائق تدريس التربية الإسلامية وأساليبها وتطبيقاتها العملية. مكتبة الفلاح، الكويت، الطبعة الثانية: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٢م.
- درياس: أحمد محمد محمد: جسم الإنسان دراسات خاصة في التشريح، ووظائف الأعضاء. دار البداية. عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٧م.
- الدغشي: أحمد محمد حسين: نظرية المعرفة في القرآن وتضميناتها التربوية. الطبعة الأولى: ٢٠٠٢م. دار الفكر، دمشق. المعهد العالمي للفكر الإسلامي، عمان، الأردن.

- الرازي: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي التميمي البكري الرازي الشافعي (٥٤٤ - ٦٠٤هـ): التفسير الكبير. منشورات دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٢٥ - ٢٠٠٤م.
- الرازي: محمد بن إدريس بن حاتم، المتوفى سنة ٢٢٧هـ. تفسير القرآن. المكتبة العصرية، صيدا، دن. دط. تحقيق: أسعد محمد الطيب.
- الراوي: محمد: القرآن والإنسان، مطبوعات أخبار اليوم، قطاع الثقافة. دط. دت.
- رشيد: غالب محمد: الإدراك، والإدراك الحسي الفائق، مؤسسة حمادة للدراسات الجامعية والنشر والتوزيع، الأردن، الطبعة الأولى، دت.
- الزبيدي: محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس. المتوفى سنة ١٢٠٥هـ. دار الهداية. مجموعة من المحققين. دط. دت.
- الأزغول: رافع النصير، والأزغول: عماد عبد الرحيم: علم النفس المعرفي. دار الشروق للنشر والتوزيع، الطبعة العربية الأولى، الإصدار الأول: ٢٠٠٣م.
- الزركشي: محمد بن بهادر بن عبد الله، أبو عبد الله. المتوفى سنة ٧٩٤هـ. البرهان في علوم القرآن، دار المعرفة، بيروت. دط. ١٣٩١هـ. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.
- زكريا: محمد سراج الدين. و أمين: إصلاح إسماعيل: إعجاز القرآن في وقاية الإنسان. نهضة مصر. دط. دت. جاءت مقدمة الكتاب بتاريخ: ١٩٩١م.
- الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري الخوارزمي، المتوفى سنة ٥٢٨هـ: الكشاف عن حقائق التنزيل وعلوم الأقاويل في وجوه التأويل. تحقيق: عبد الرزاق المهدي. دار إحياء التراث العربي، بيروت. دت.

- ابن أبي زمنين: أبو عبد الله محمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٣٩٩هـ: تفسير القرآن العزيز. مكتبة الفاروق الحديثة. مصر القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٢٣هـ. ٢٠٠٢م. تحقيق: أبو عبد الله حسين بن عكاشة، ومحمد بن مصطفى.
- الزيات، فتحي: الأسس المعرفية للتكوين العقلي وتجهيز المعلومات. دار النشر للجامعات، القاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ، ٢٠٠٦م.
- زيتون: كمال عبد الحميد: التدريس نماذج ومهاراته. المكتب العلمي للنشر والتوزيع. الاسكندرية. الطبعة الأولى: ١٤١٩هـ. ١٩٩٨م.
- السبيعي: عدنان: سنريهم آياتنا. دار القلم، دمشق -الدار الشامية، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
- السعدي: داود سليمان: أسرار الكون في القرآن. دار الحرف العربي. بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٢٠هـ، ١٩٩٩م.
- السعدي: عبد الرحمن بن ناصر، المتوفى سنة ١٣٧٦هـ: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان. مؤسسة الرسالة، بيروت. ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م. دط. تحقيق: ابن عثيمين.
- أبو السعود: محمد بن محمد العمادي، المتوفى سنة ٩٥١هـ: إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. دار إحياء التراث العربي، بيروت.
- سلامة: علي محمد: السمع والبصر في القرآن الكريم. من منشورات جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، طرابلس. ليبيا. الطبعة الأولى: ١٣٩٥، ١٩٨٦م.
- سيد: السيد علي. وبدر: فائقة محمد: الإدراك الحسي السمعي والبصري.. الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ، ٢٠٠١م. مكتبة النهضة المصرية. القاهرة
- السليتي: فراس: استراتيجيات التعلم والتعليم، النظرية والتطبيق. عالم الكتب الحديث. وجدارا للكتاب العالمي. عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ. ٢٠٠٨م.

- السمرقندي: نصر بن محمد بن أحمد، أبو الليث، المتوفى سنة ٣٦٧هـ: تفسير السمرقندي، المسمى بحر العلوم.. دار الفكر، بيروت، دط. تحقيق: محمود مطرجي. دت.
- الشافعي: محمد إبراهيم، بصائر الجنان في علوم القرآن. دط. دت. دن.
- شرف: إحسان علي، وميرة: كمال: علم التشريح، دراسة عامة لبنيان جسم الإنسان. مؤسسة الثقافة الجامعية، الاسكندرية، دط. ٢٠٠٤م.
- السمعاني: منصور بن محمد بن عبد الجبار، المتوفى سنة ٤٨٩هـ: تفسير القرآن. دار الوطن. الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ. ١٩٩٧م. تحقيق: ياسر بن إبراهيم وغنيم بن عباس بن غنيم.
- سويف: مصطفى: دراسات نفسية في الإبداع والتلقي. من منشورات الدار المصرية اللبنانية. القاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ. أكتوبر: ٢٠٠٤م.
- الشرقاوي: أنور محمد: الإدراك في نماذج تكوين وتناول المعلومات ١ -٤. مجلة علم النفس الإصدار: ٤٠، ٤١. السنة: ١٩٩٧م. الصفحات: ٨ -١٧.
- الشرقاوي: محمد: تأملات حول وسائل الإدراك في القرآن الكريم الحس والعقل والقلب واللب والفرد. من منشورات عالم الكتب، الرياض. الطبعة الأولى: ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م
- الشرقاوي: أنور محمد: علم النفس المعرفي المعاصر. مكتبة الإنجلو المصرية. القاهرة. ٢٠٠٣. دط.
- شريف: نادية محمود: الأساليب المعرفية الإدراكية وعلاقتها بمفهوم التمايز النفسي مجلة عالم الفكر. المجلد: ١٣. العدد: ٢. ١٩٨٢. الصفحات: ٤٥٣ -٤٧٨
- شلبي: محمد أحمد: مقدمة في علم النفس المعرفي. شلبي. دار غريب، القاهرة. دط. ٢٠٠١م.

- الشلول: زكريا ابراهيم: أثر العقيدة الإسلامية في السلوك الإنساني. دار الكتاب الثقافي، الأردن، إربد. دط. ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م
- شواهين: خير: أجهزة الإحساس عند الإنسان، تجارب وأنشطة وقياسات، استخدام الحاسوب والإلكترونيات. دار الأمل للنشر والتوزيع. الأردن. الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م
- الشوكاتي: محمد بن علي محمد: فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير المتوفى سنة ١٢٥٠هـ. دار الفكر، بيروت. دط. دت.
- الشيال: هدى عبد الرحمن: "الطفل والإدراك البصري في الفراغات العمرانية. دراسة ميدانية بالقاهرة، لأطفال المرحلة الإعدادية. مجلة الطفولة والتنمية. العدد: ٣. مج: ٢٠٠١/١. الصفحات: ٢٧ - ٥٠.
- صالح: ابراهيم محمد: علم النفس المعرفي واللغوي. من منشورات دار البداية، عمان/الأردن. الطبعة الأولى، ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م.
- صالح: قاسم حسين: سيكولوجية إدراك اللون والشكل، منشورات دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الأولى: ٢٠٠٦م.
- الصنعاني: عبد الرزاق بن همام، المتوفى سنة ٢١١هـ: تفسير القرآن. مكتبة الرشد، الرياض. الطبعة الأولى: ١٤١٠هـ. تحقيق: مصطفى مسلم محمد.
- صوالحه: حكيم عبد الجبار: الجيولوجيا العامة. دار المسيرة، عمان. الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٥م.
- الصيفي: علاء: السمع في الأطفال: نهضة مصر، القاهرة. دط. ١٩٩٠م
- الطائي: محمد باسل: علم الفلك والتقويم. دار النفائس، بيروت. الطبعة الأولى: ٢٠٠٣م. ١٤٢٤هـ.

- الطبراني: المعجم الأوسط. دار الحرمين. القاهرة. دط. ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م
- الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (٢٢٤ - ٣١٠هـ): جامع البيان عن تأويل آي القرآن، حققه وخرّج أحاديثه: محمود محمد شاكر. دار المعارف بمصر. دط. دت.
- طه: حسن: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية. دط. دت. دن. كتبت مقدمة الكتاب بتاريخ: ١٤١١هـ. ١٩٩٠م.
- طه: فرج عبد القادر، وقنديل: شاكر عطية، وآخرون: موسوعة علم النفس والتحليل النفسي. دار سعاد الصباح، الكويت. الطبعة الأولى: ١٩٩٣م.
- الطيبي: عكاشة عبد المنان: علاج النسيان، وطرق مضمونة لتقوية الذاكرة. المكتبة الثقافية. بيروت. دط. ١٤٢٠هـ. ١٩٩٩م.
- ابن عاشور: محمد الطاهر، المتوفى سنة ١٢٨٤هـ: التحرير والتوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس. ١٩٩٧م.
- عباس: فضل حسن: البلاغة فنونها وأفنانها، علم المعاني. دار الفرقان للنشر والتوزيع، عمان. الطبعة الحادية عشرة. ٢٠٠٧هـ.
- العباس: أبو القاسم إسماعيل بن عباد المحيط في اللغة. عالم الكتب، بيروت. لبنان. الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م. تحقيق: محمد حسن آل ياسين
- عبد الجواد: محمد أحمد: هل تسمعي، كيف تتصت بفاعلية وتفهم ما وراء الكلمات. ص: ٢١. دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة. الطبعة الأولى: ٢٠٠٤، ١٤٢٥هـ.
- عبد الحليم: أحمد المهدي، وآخرون: المنهج المدرسي المعاصر. دار المسيرة عمان، الطبعة الأولى: ١٤٢٨هـ، ٢٠٠٨م.
- عبد الرؤوف: عبد القادر سيد: التربية الإسلامية في ضوء القرآن والسنة النبوية. دار الطباعة المحمدية. القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤١٤هـ. ١٩٩٤م.

- عبد الهادي: عائدة وصفية؛ فسيولوجيا جسم الإنسان. دن. الطبعة الأولى، إصدار ثاني، ١٤٠٤هـ. ١٩٨٤م.
- عبوي: زيد منير: التعليم والتعلم الفعال. دائرة المكتبة الوطنية بالملكة الأردنية الهاشمية. الطبعة الأولى: ٢٠٠٧م.
- العتوم: عدنان يوسف: علم النفس المعرفي: النظرية والتطبيق. دار المسيرة. الطبعة الأولى: ٢٠٠٤م. ١٤٢٥هـ. عمان، الأردن.
- ابن العربي: أبو بكر محمد بن عبد الله، المتوفى سنة ٥٤٣هـ: أحكام القرآن. دار الفكر للطباعة والنشر، لبنان. تحقيق: محمد عبد القادر عطا. دط. دت.
- أبو عرقوب: ابراهيم: الإتصال الإنساني ودوره في التفاعل الاجتماعي. دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، الطبعة الثانية: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٥م.
- علوان: فادية: مقدمة في علم النفس الارتقائي. مكتبة الدار العربية للكتاب. القاهرة. الطبعة الثانية: ١٤٢٧هـ. ٢٠٠٦م.
- علي: سعيد إسماعيل: أصول التربية الإسلامية. دار الثقافة للطباعة والنشر، القاهرة. ١٩٧٨م. دط.
- العلي: محمد تيسير سليمان: الصلة بالله تعالى وأثرها في تربية النفس. دار البشير، مؤسسة الرسالة. بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م.
- الغزالي: محمد بن محمد، أبو حامد، المتوفى سنة (٥٠٥هـ). إحياء علوم الدين: ٣٧٤/٤. دار المعرفة، بيروت. دط. دت.
- الغزالي: محمد: خُلُق المسلم، دار القلم. دمشق، بيروت. الطبعة الثانية: ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
- فارد: بريان: سلسلة جسم الإنسان، كتاب الأذن والسمع. دار الهدى، بيروت. دط. ١٩٩٥م.

- فارد: بريان: اللمس، الذوق والرائحة: جسم الإنسان. (سلسلة جسم الإنسان). دار الهدى للطباعة والنشر. الأردن. دط. ١٩٩٥م.
- فرج: عبد اللطيف حسين: تخطيط المناهج وصياغتها. دار الحامد للنشر والتوزيع. الطبعة الأولى: ٢٠٠٨م.
- فرج: عبد اللطيف بن حسين: التدريس الفعال. دار الثقافة. عمان. الطبعة الأولى. الإصدار الأول. ٢٠٠٩م.
- ابن قتيبة: عبد الله بن مسلم الدينوري، المتوفى سنة ٢٧٦هـ: غريب الحديث. مطبعة العلي، بغداد. الطبعة الأولى: ١٣٩٧هـ. تحقيق: عبد الله الجبوري
- القشيري: أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري النيسابوري الشافعي، المتوفى سنة ٤٦٥هـ: تفسير القشيري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى: ١٤٢٠هـ، ٢٠٠٠م. تحقيق: عبد اللطيف حسين عبد الرحمن.
- قطب: سيد: التصوير الفني في القرآن الكريم. دط. دن. ١٣٨٦هـ. ١٩٦٦م.
- قطب: سيد: في ظلال القرآن الكريم. دار الشروق. القاهرة. الطبعة السابعة عشرة. ١٤١٢هـ، ١٩٩٢.
- ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي، المتوفى سنة ٧٧٤هـ: تفسير القرآن العظيم. دار الفكر. بيروت. ١٤٠٤هـ. دط.
- الكرمانلي: محمود بن حمزة بن نصر، المتوفى سنة ٥٠٥هـ. أسرار التكرار في القرآن. دار الاعتصام. القاهرة. الطبعة الثانية: ١٣٩٦هـ. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا.
- الكلبي: محمد بن أحمد بن محمد الغرناطي: التسهيل لعلوم التنزيل، المتوفى سنة ٧٤١هـ. دار الكتاب العربي، لبنان. الطبعة الرابعة: ١٤٠٣هـ. ١٩٨٣م.

- لومان: جوزيف؛ إتقان أساليب التدريس. ترجمة حسين عبد الفتاح. مركز الكتب الأردني. ١٩٨٩م. دط.
- الماوردي: أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي البصري، المتوفى سنة ٤٥٠هـ: النكت والعيون، تفسير الماوردي. دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان. دط. دت. تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم.
- محمد: عبد النبي، ومحجوب: عباس: المهارات اللغوية. الطبعة الثالثة: ١٤١٩هـ. ١٩٩٨م. الخرطوم، جامعة النيلين. .
- محمد: مديحة حسن: تنمية التفكير البصري في الرياضيات لتلاميذ المرحلة الابتدائية (الصف - العاديين). عالم الكتب، القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٢٤هـ، ٢٠٠٤م.
- مصباح: عبد الهادي: العبقرية والذكاء والإبداع، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٢٦هـ، ٢٠٠٦م.
- أبو مغلي: عماد عادل: العلاقات الاجتماعية في القرآن الكريم. دار الكندي، الأردن، إريد. الطبعة الأولى: ٢٠٠٩م.
- أبو المكارم: فؤاد: أسس الإدراك البصري للحركة. من منشورات مكتبة الدار العربية للكتاب. القاهرة. الطبعة الأولى: ١٤٢٥هـ، ٢٠٠٤م.
- ابن منظور: محمد بن مكرم بن منظور، الإفريقي المصري: لسان العرب: ٢٧٦. دار صادر. بيروت.
- النجار: زغلول راغب محمد: موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن. (السماء). طبع على نفقة وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية/ دولة قطر. دار المعرفة، بيروت. طبعة خاصة. ١٤٢٨هـ. ٢٠٠٧م.

- النحاس: معاني القرآن الكريم. للنحاس، المتوفى سنة ٣٣٨هـ. جامعة أم القرى، مكة المكرمة. الطبعة الأولى: ١٤٠٩هـ. تحقيق: محمد علي الصابوني.
- النووي: يحيى بن شرف الدين الشافعي: التبيان في آداب حملة القرآن.. دار الكتاب العربي، بيروت. الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ. ١٩٩٥م. تحقيق: زهير شفيق الكبي.
- الواحدي: علي بن أحمد الواحدي أبو الحسن، المتوفى سنة: ٤٦٨. الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: دار القلم، الدار الشامية، دمشق، بيروت، الطبعة الأولى: ١٤١٥هـ. تحقيق: صفوان عدنان داوودي.
- ويب: بيتر. وبراهاام: بيتر: التشريح السريري في الإجراءات العملية الجراحية. ترجمة: جان توماس يوشوجيان. جامعة الموصل، وزارة التعليم العالي والبحث العلمي. دن. دط. ١٩٨٤م. ١٩٨٥م.
- يالجن: مقداد: التربية الأخلاقية الإسلامية. دار عالم الكتب للطباعة والنشر. الرياض. الطبعة الثالثة: ١٤٢٣هـ، ٢٠٠٢م.
- يالجن: مقداد، والقاضي: يوسف: علم النفس التربوي في الإسلام. دار عالم الكتب للطباعة والنشر. الرياض الطبعة الثانية: ١٤١٨هـ.
- يعقوب: إميل بديع: موسوعة كنوز المعرفة. دار نظير عبود، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
- JAMES B. WEAVER AREAS OF BRAIN ACTIVATION MALES AND FEMALES DURING VIEWING OF EROTIC FILM EXERPTS 2004

ثانياً: الدوريات.

- تاريخ المعرفة. دورية: إسلامية المعرفة. السنة السابعة، العدد السابع والعشرون. صفحات البحث: ٥ - ١٣.
- الطائي: محمد باسل، والزعبي: محمد خالد: المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية. مقال بعنوان: مفهوم السماء والسموات في القرآن وعلوم الفلك المعاصرة. مجلة عالمية محكمة. المجلد: ٤. العدد: ٢. رمضان: ١٤٢٩هـ، أيلول: ٢٠٠٨م. جامعة آل البيت.
- العبود: صالح بن أحمد: أثر توقيت تقديم العروض البصرية على التعلم الحركي. نظرية الإدراك البصري. دراسات مؤتمر التربية الرياضية، الرياضة نموذج للحياة المعاصر. عدد خاص: ٤: ٢٠٠٤م. الصفحات: ٢٦ - ٤٢. صالح بن أحمد العبود.
- وستمان: برونر: في الإدراك الحسي للظاهرة الشاذة. نموذج برونر وستمان. ترجمة ريتا الحاج علي. مجلة الفكر العربي الصفحات: ٢٥٩ - ٣٧٥. السنة: ١٩٨٦م.

ثالثاً: مقالات وبحوث على شبكة الإنترنت.

- www.annaba.org/nabanews/65/326 أسعد الامارة: إدراكنا يوجه سلوكنا.
- vb.aenal.com/t43939.html الإدراك، ما هو، وما عوامله.
- www.alquran/network.net/i3jazinsan.htm/tk8 عيد: محمد السقا. الإعجاز في جسم الإنسان في القرآن الكريم، معجزة السمع.
- www.egyptarch.net/quranmiracles/shadowmove.htm وزيرى: يحيى، إعجاز القرآن الكريم في وصف حركة الظلال (الظل الساكن).
- [www.nooran.org/O/12/12O\(3\).htm](http://www.nooran.org/O/12/12O(3).htm) السبيعي: سعود تلاؤم السمع والبصر في تعلم اللغات.

- www.kenanaonline.com/page/4220-39k الغنام: ابراهيم: مهارات حل المشكلات واتخاذ القرارات.
- http://213.230.15.195/sosnew/section/full_story.cfm الإبصار. الجمعية السعودية لطب العيون.
- www.uae.gov.ae/uaeagricent العيون والآبار، وزارة الزراعة بدولة الإمارات العربية المتحدة.
- [www.hayatnafs.com/mona3at alnafsa/auditory-pollution*](http://www.hayatnafs.com/mona3at%20alnafsa/auditory-pollution) أحمد: فخري: التلوث السمعي وتأثيراته على الإنسان.
- www.abna.ir/data.asp?lang=2&p=4&id ... عبده: محمود يوسف، المعجزة الصوتية للقرآن الكريم.
- www.Sayadla.com/vb/showthread.php?t=15717&page=5k97 اللبيدي: حسين رضوان: الإعجاز العلمي في السمع والبصر في القرآن الكريم.
- www.ar.wikipedia.org موضوع: الخوف.
- www.dr.fadel.net/content/view/406/47 العلماء يتعرفون على دارة الكراهية في المخ، تتشارك مع مناطق السلوك العدوانية.
- موقع: "المعرفة" بعنوان: "هل التكبر عزة ظاهرة أو ذلة باطنية" بتاريخ: ٢٠٠٣/٧/١٩. مرجع: www.almarefa.net/archive
- www.almarefa.net/archive هل التكبر عزة ظاهرة أو ذلة باطنية.
- www.ensb.dz/1mg/doc/-2-2.doc سيكولوجية التعلم.
- www.kenanaonline.com/page/4220-39k الغنام: ابراهيم: مهارات حل المشكلات واتخاذ القرارات.

- www.saaid.net/book/search.php?do=all&u الهلالي؛ صادق: الإعجاز العلمي ، للقرآن الكريم في السمع والبصر والفؤاد.
- www.uqu.edu.sa/majalat/humanities/nol13/ao4htm-643k رزق: محمد عبد السميع، الاتجاهات الحديثة في دراسة مهارات الاستذكار.
- www.awu-dam.org/trath25-26-003.htm-99k اليافي؛ نعيم: عودة إلى موسيقى القرآن.
- www.alriyadh.com/2007/07/26article268091.html-19k الصفراني؛ محمد: فضاءات التشكيل والشكل.
- <http://ar.wikibooks.org/wiki> أساليب وأنواع التعلم.

فهرس آيات القرآن الكريم

رقم الصفحة	الآية
١٤	إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً
١٤	لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم
١٥	حتى إذا أدركه الغرق
١٥	بل ادرك علمهم في الآخرة بل هم في شك منها
١٦	لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر
١٦	ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون
١٧، ١٦	لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار
٢٦	ولو نشاء لأريناكمهم فلعرفتهم بسيماهم
٢٦	تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر
٢٧	يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها وأكثرهم الكافرون
٢٧	عرفها لهم
٣٣، ٣٢	هل تحسّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً
٣٢	ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه
٣٢	يا بني اذهبوا فتحسبوا من يوسف وأخيه
٣٣	لا يسمعون حسيبها
٤٨، ٣٨	ولما فصلت العير قال أبوهم إني لأجد ريح يوسف لولا أن تفندون
٣٨	ولولا فضل الله عليكم ورحمته
٣٩	وإذا مسّه الخير منوعاً
٣٩	وإذا مسّ الإنسان الضرّ
٣٩	لا جناح عليكم إن طلقتم النساء
٣٩	وإن يمستك الله بضر فلا كاشف له إلا هو
٣٩	وما بكم من نعمة فمن الله
٤٠	قال أبشركموني على أن مسني الكبر
٤٠	واذكر عبدنا أيوب

٤٠	إن يحسسكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله
٤٢	قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس
٤٣	يوم يقول المنافقون والنافقات للذين آمنوا
٤٤	يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة
٤٤	ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم
٤٥	فدلّاهما بغرور
٤٦	فذاقت وبال أمرها
٤٦	إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً
٤٦	وضرب الله مثلاً قرية
٤٦	لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً
٤٧	لا يذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى
٤٧	وضرب الله مثلاً قرية
٤٧	ولكن أذقناه نعماء بعد ضراء مسته
٤٧	إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات
٤٨	قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً
٥١	فضرينا على آذانهم في الكهف سنين عدداً
١٤٨ ٥٣	لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية
٥٣	لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يغفونكم الفتنه
٢٦١ ٥٣ ٢٠٨	وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يُكفر بها
١١٩ ٥٤	أو كصيب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم
١٢٨ ٥٤	وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم
١٣١ ٥٥	وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون
١٣٠ ٥٥	وإذا تلى عليه آياتنا ولي مستكبراً كأن لم يسمعها كأن فيه أذنيه وقرأ
٢٢٨ ٥٥	يسمع آيات الله تلى عليه ثم يُصّرّ مستكبراً كأن لم يسمعها
٢٥٨ ٥٥ ٢٣٠	وما يأتيهم من ذكرٍ من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون
٦٨ ٦٤	أو لم ينظروا في ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء
٢٢٠ ٥٢ ٧٢	وفي أنفسكم أفلا تبصرون

٥٤	أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة
٥٥	قل أرأيتم إن أخذ الله سمعكم
٥٧	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم
٥٩	ثم سواه ونفخ فيه من روحه
٦١	ولقد مكناهم فيما إن مكناكم
٦٩	ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم
٦٩	والقمر قدرناه منازل
٧١	وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه
٧٣	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات
٧٥	ألم تر أن الله يزجي سحاباً
٧٧	أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤوا ظلاله
٨٠	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض
٨٢	ثم يهيج فتراه مصفراً
٨٢	ومن آياته يريكم البرق
٨٤	وترى الأرض هامدة
٨٧	قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق
٨٩	وكم أهلكننا قبلهم من قرن
٩٠	فانظر إلى آثار رحمة الله
٩١	ولقد صرفناه بينهم ليدذكروا
٩٤	ولما جاء موسى لميقاتنا
٩٥	فلولا إذا بلغت الحلقوم
٩٥	وأنتم حينئذ تنظرون
٩٦	قيل لها ادخلي الصرح
٩٨	وترى الجبال تحسبها جامدة
٩٩	أو كصيب من السماء
١٠١	ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة
١٠٦	ولا أقول لكم عندي خزائن الله
١٠٧	ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن

١٠٧	وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن
١٠٨	وإني كلما دعوتهم لتغفر لهم
١١٠	وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً
١١٢	ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق
١١٢	أفتطمعون أن يؤمنوا لكم
١١٣	فلما رأى قميصه قد من دبر
١١٤	فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم
١١٦	لولا إذا سمعتموه ظن المؤمنون
١١٩	ولقد جعلنا في السماء بروحاً
١٢٠	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فتصبح الأرض مخضرة
١٢٢	أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر
١٢٤	قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق
١٢٥	قد خلقت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض
١٢٨	لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية
١٢٩	وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى
١٣٠	الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
١٣٠، ١٣١	وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا
١٣٢	وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع
١٣٢	وأنا لمسنا السماء فوجدناها
١٣٤	أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت
١٣٧	ومن الجبال جدد بيض وحمر
١٤١	قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها
١٤٩	والذاكرين الله كثيراً والذاكرات
١٤٩	إن الله وملائكته يصلون على النبي
١٥٠	فاتقوا الله ما استطعتم
١٥٢	لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خيالاً
١٥٤	اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو
١٥٥	كمثل غيث أعجب الكفار نباته

١٥٦	أو لم يروا أنا خلقنا لهم مما عملت أيدينا أنعاماً
١٦٠	الذي خلق سبع سماوات طباقاً
١٦٣	أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها
١٦٥	وتفقد الطير قال ما لي لا أرى الهدهد
١٧٠	وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم
١٧٢	إنا المدركون
١٧٢	كلا إن معي ربي سيهدين
١٧٢	أو كالذي مرّ على قرية وهي خاوية
١٧٤	ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه
١٧٦	فبعث الله غرباً يبحث في الأرض
١٧٩ ، ١٧٨	وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن
١٧٨	إنا سمعنا قرآناً عجيباً
١٧٩	قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً
١٨٠	يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد
١٨٣	قل انظروا ماذا في السموات والأرض
١٨٦	وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً
١٨٨	وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم
١٩٠	وأنا لما سمعنا الهدى آمنا به
١٩٣	وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء
١٩٥	ألم يروا أن إلى الطير مسخرات في جوف السماء
١٩٥	أو لم يروا إلى الطير فوقهم صافات
١٩٧	أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض
١٩٩	الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها
٢٠٥	قل هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون
٢٠٦	الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
٢٠٨	يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً
٢٠٩	وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن
٢٠٩	وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا

٢١٠	ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث
٢٢٠	وفي الأرض آيات للموقنين
٢٢١	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم
٢٢١	والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً
٢٢٣	أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بيناها وزيناها
٢٢٤	ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض والفلك تجري في البحر
٢٢٥	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة
٢٢٥	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الأرض
٢٣٠	أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيوا وظلاله
٢٣٢	وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً
٢٣٣	فانظر إلى آثار رحمة الله
٢٣٤	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة
٢٣٦	وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له
٢٣٧	اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو
٢٣٨	ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه
٢٣٩	لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً
٢٤٠	لولا جاعوا عليه بأربعة شهداء
٢٤٠	إذ تلقونه بالسنتكم
٢٤١	يعظكم الله أن تعودوا لمثله
٢٤١	وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها
٢٤٢	ونفس وما سواها
٢٤٤	الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه
٢٤٥	فاتقوا الله ما استطعتم
٢٤٦	وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً
٢٤٨	الله الذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها
٢٥٢	وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا
٢٥٣	لا تحرك به لسانك لتعجل به
٢٥٤	إن علينا جمعه وقرآنه

٢٥٦	ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه
٢٥٦	ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه
٢٥٧	وهو الذي سخّر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً
٢٥٧	أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤوا ظلاله
٢٦١	الذي خلق سبع سماوات طباقاً
٢٦٣	فبأي آلاء ربكما تكذبان
٢٦٧	ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات
٢٦٧	لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار
٢٦٨	ولتعرفنهم في لحن القول
٢٦٨	أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض
٢٦٨	وفي أنفسكم أفلا تبصرون
٢٦٨	أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها
٢٦٩	ألم تروا أن الله سخّر لكم ما في السموات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعمه
٢٦٩	وترى الجبال تحسبها جامدة
٢٦٩	ولقد جعلنا في السماء بروجاً
٢٧٠	ولما فصلت العير قال أبوهم
٢٧٠	إن يمسخكم قرح فقد مسّ القوم قرح مثله
٢٧٠	قال فاذهب فإن لك في الحياة أن تقول لا مساس
٢٧٠	قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق
٢٧١	قل أرايتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم

Abstract

Al Majid: Kaltham, Sensory Perception In The Holy Quran, An Educational Study.
PhD, University of Yarmouk / 2009.

Supervised By: Dr. Ibrahim Abu Arqoob and Dr. Mohammed El-Shafei.

The study aimed to detect the parameters of sensory perception in the Holy Quran and the methodology employed. The researcher used the extrapolation method, the analytical and descriptive method and reached the following conclusions:

1. Perceptual processes take place through the humanity senses and are related to other procedures that reinforce each other to form the structures of the knowledge and cognitive experience, resulting in human knowledge.
2. Human knowledge depends heavily on perceptions. And the senses are so important to human life. This emphasizes the close link between the senses on the one hand, and awareness and knowledge on the other.
3. The Holy Quran employs human senses to provide many knowledge to human beings; and that appears in the recruitment of several mechanisms, including:

A. Prove sensible over abstract.

B. General frameworks for the formation of cognitive sensory gains, to be a reference to the knowledge of humanity.

C. Highlight the specific methods of learning, that impact positively on cognitive processes.

4. The Holy Quran presented a variety of methods to guide the human senses, to achieve the awareness and knowledge, including:

A. Directed sensory perception towards following, Organizing and Selecting what we be aware of and recognize.

B. Highlight the many references, fueling perceptions in a comprehensive manner.

C. Awareness of human beings about the use of negative sensory perceptions, and warning them.

5. Sensory perception in the Holy Quran achieves educational effects. The indicators of these effects appear in human beings belief and in the discipline of the soul and behavior.

6. The directives of sensory perception in the Holy Quran included ways of learning; like listening skill and repetition learning techniques, and investing in human capacities to achieve learning.

Hence, the researcher recommends the following:

1. The establishment of a methodology with specific processes and procedures that can be beneficial in utilizing the Holy Quran directives in sensory perception.

2. The addition other Quranic studies on the subject of sensory perception, and highlighting new features, which are contained in the book of Allah Almighty.

Keywords: Sensory Perception - The Holy Quran – Educational Study